

سلسلة

وَلَكِنْ شَيْءٌ وَقَرَّ فِي قَلْبِهِ

2

كَأَنَّكَ تَرَاهُ

المراقبة

سلسلة «ولكن شيءٌ وَقَرَ في قلبه»
الكتاب الثاني

كأنك تراه

المراقبة

تأليف وتوزيع مدارج
هذا الكتاب وقفٌ لله تعالى

الفهرس

7.....	إهداء
8.....	مقدمة
12.....	الباب الأول: أن تعرف من تعبد
13.....	1 — السؤال الذي نحتاج إليه
16.....	2 — ألم يعلم بأن الله يرى
19.....	3 — وجدته ساجدًا
22.....	4 — سمع الله شكواها
25.....	5 — على رسلكما
28.....	6 — دعاء يحفظ القلب في الحالين
31.....	7 — من أجل من كان العمل؟
35.....	8 — كأنك تراه، لا صورة تتخيلها
38.....	الباب الثاني: قلوب عرفت ربها
39.....	9 — يوسف حين أغلقت الأبواب
44.....	10 — مريم حين استعازت
48.....	11 — إنني معكما أسمع وأرى
52.....	12 — في الغار، لا خارج العناية
58.....	13 — دعاء في الظلمات
61.....	14 — وصية بحبة خردل
65.....	15 — ليلة صلى فيها حذيفة
68.....	16 — قلب الأم الذي ثبتته الله
72.....	الباب الثالث: عبادة يحضر فيها القلب

73.....	17 — صلاة تتعلم أن تتمها
77.....	18 — أعظم سورة
81.....	19 — نعم الرجل عبد الله
84.....	20 — حين تترك الطعام لله
87.....	21 — وصية لمن أحبه
90.....	22 — إنك تدعو سميعًا قريبًا
94.....	23 — أخشاكم لله
98.....	24 — أعط كل ذي حق حقه
101.....	الباب الرابع: حين تخلو بنفسك
102.....	25 — تركها وهو قادر
106.....	26 — الوجه الذي صُرف
109.....	27 — لا تجعل الخاطر حكمًا عليك
112.....	28 — ثوبان يرويان أثر النصيحة
115.....	29 — أحمي سمعي وبصري
122.....	30 — لم ينقذه عذر مصطنع
129.....	31 — سؤال لم يمنعه الحياء
132.....	32 — عمل كان يرجو به الخير
135.....	الباب الخامس: المراقبة في حقوق الناس
136.....	33 — ألقى السوط من يده
138.....	34 — البلل الذي لم يره المشتري
140.....	35 — هذا لكم، وهذا أُهدي لي
142.....	36 — أجر لم ينسه صاحبه
144.....	37 — عدل يراه أهل البيت

146.....	38 — دين بقي بعد صاحبه
148.....	39 — رحمة لا تنتظر جواباً
150.....	40 — أفلا شققت عن قلبه؟
152.....	الباب السادس: مواقف تكشف ما في القلب
153.....	41 — يوم عادت إليهم صورتهم القديمة
156.....	42 — أمانة عبرت البحر
160.....	43 — ليست السفينة لك وحدك
162.....	44 — كلمات لغلام
165.....	45 — الآية التي أوقفته
169.....	46 — ما الذي صغر في أعيننا؟
172.....	47 — حين جثا أبو إدريس
175.....	48 — أرجو له الخير
179.....	الباب السابع: علم يرَبِّي المراقبة
180.....	49 — مِمَّنْ تأخذ ما يصلح قلبك؟
183.....	50 — رسالة تخاف على العلم
186.....	51 — أسماء تعرف بها ربك
189.....	52 — ما كان يقوِّي قلب الشيخ
192.....	53 — محاسبة تعينك على الصلاة
195.....	54 — ليست المراقبة تجسّساً
198.....	55 — عشرون ليلة مع معلّم رحيم
201.....	56 — حمل أمه، وبقي حقها
204.....	الباب الثامن: خشية لا تقطع الرجاء
205.....	57 — ما الذي خافه من سبقونا؟

208.....	58 — الزاد لا ينافي التوكل
211.....	59 — لأنه يحب صفة الرحمن
214.....	60 — خاف من ذنبه، فعلم الله ما في قلبه
217.....	61 — حين رأوا رحمة الأم
220.....	62 — دمة لا تمنع الصبر
223.....	63 — حين ردّ النعمة إلى صاحبها
226.....	64 — لصاحب الحق مقال
229.....	الباب التاسع: رجوع يحفظ الطريق
230.....	65 — حين عرف مصدر الطعام
233.....	66 — رجل أحب أن يبقى بين الناس
236.....	67 — خرج يريد أن يتوب
239.....	68 — عمل يعرفه الله وإن عجزت عنه
242.....	69 — عمل صغير لم يغب عن النبي ﷺ
245.....	70 — خوف يدفع إلى الخير
248.....	71 — عشرة أعوام من القرب
251.....	72 — حتى تلقاه
254.....	خاتمة حين تغلق الكتاب
257.....	تدريب المراقبة ومتابعتها
288.....	فهرس الآيات
290.....	المصادر والمراجع

إهداء

إليك، يا من تحب الله، وترجو أن يراك حيث يحب، وأن يعينك على ترك ما لا يرضيه.

إليك، حين تخلو بنفسك فتحتاج إلى ما يذكرك به، وحين يضيق صدرك فتطمئن إلى أنه يسمع دعائك، وحين تجاهد ضعفك وترجو أن يقبل عودتك.

نهديك هذا الكتاب بمحبة. نحن وإياك نحتاج إلى قلب يتذكر، ونفس تقبل النصيحة، وعون من الله على ما نعلم وما نعمل. لسنا بمنأى عن الغفلة، ولكننا نرجو أن يردنا الله إليه كلما ابتعدنا، وأن يرزقنا خشيته في السر والعلن.

وحين تسأل الله أن يصلح قلبك، اذكرنا بدعوة؛ لنا ولوالدينا، ولكل من أعان على وصول هذه الصفحات إليك. سل الله أن يغفر لنا، ويستتر تقصيرنا، ويتقبل ما كان من خير، ويعيننا على تصحيح ما أخطأنا فيه. نسأل الله لنا ولك عبادة نحسنها، وأمانة نؤديها، وقلبًا يستحي منه ويرجو رحمته، حتى نلقاه وهو راض عنا.

هذا الكتاب وقف لله تعالى

تأليف وتوزيع مدارج

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، يعلم سرّنا وعلايتنا، ويسمع دعاءنا، ولا يخفى عليه شيء من أمرنا. نسأله أن يصلح قلوبنا، ويعيننا على طاعته، ويرزقنا حسن عبادته. والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

في حديث جبريل، الذي سيأتي متنه كاملاً في الفصل الأول، بيّن النبي ﷺ مقام الإحسان في العبادّة، وربطه بيقين العبد بأن ربه يراه.¹ وفي هذا المعنى ما نحتاج إليه كل يوم: أن نعبد الله ونحن نتذكر من نعبد، ونؤدي ما أمرنا به ونحن نعلم أنه يرانا. فلا تكون الصلاة حركات تؤديها على عجل، ولا يكون الدعاء كلمات نقولها وقلوبنا مشغولة عنها؛ بل نجتهد أن نصلي بقلب حاضر، وأن ندعو ونحن نرجو ربنا ونحسن الظن به.

ومعنى العبادّة على مقام كأنك تراه أن تعبدّه مع قوة اليقين به، وتعظيمه، ومحبته، والحياء منه. ليس المقصود أن تتخيل لله صورة؛ فهو سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى: 11]. وإنما تستحضر عظمته وإطلاعه عليك، فتحسن عبادته. وإن ضعف حضور قلبك، فتذكّر الحقيقة التي ختم بها جواب الإحسان: أن الله يراك. يراك في صلاتك، ويسمع دعاءك، ويعلم ما تخفيه في صدرك، وما تختاره حين تخلو بنفسك.

١. صحيح مسلم، رقم 8، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ حديث جبريل في الإسلام والإيمان والإحسان.

تلك هي المراقبة: أن يبقى علمك بأن الله مطلع عليك حاضرًا في عملك. فإذا هممت بكلمة تؤذي، تذكرت أنه يسمعك فأمسكت عنها. وإذا وجدت مالًا ليس لك، أديته إلى صاحبه وإن استطعت أن تحتفظ به دون أن يعلم. وإذا وقفت للصلاة، أقبلت على ربك واجتهدت في إتمامها. لا تنتظر أن يصير قلبك كاملاً حتى تبدأ؛ اعمل بما تعرف، واسأل الله أن يعينك على ما يشق عليك.

وقد تكون وحدك، وبين يديك ما يغيرك بمعصية تستطيع إخفاءها عن الناس. تتردد، ثم تتذكر أن الله يراك، فتتركها من أجله. وربما شق عليك هذا الترك، لكنك ترجح رضاه على رغبة عابرة. لا تحتاج حينها إلى أن تروي لأحد ما جاهدت نفسك عليه؛ يكفي أن تصدق مع الله. وفي موقف آخر قد تتبين لك أمانة قصرت فيها، فتصلح تقصيرك، وترد الحق إلى صاحبه، بدل أن تبحث عن يبرر لك ما فعلت.

والعلم بأن الله يراك ليس باعثًا على الخشية وحدها؛ فيه أيضًا ما يعينك على الرجاء والصبر. حين يمرض من تحب، وتقوم على خدمته، تذكر أن الله يعلم تعبك. وحين تعجز عن بيان حزنك لأحد، ادع ربك الذي يعلم حالك. وحين تفعل خيرًا لا يعرفه غيرك، فارجُ قبوله وثوابه. أنت لا تحتاج أن يعرف الناس كل ما تمر به حتى تستطيع أن تلجأ إلى الله وتبث إليه شكواك.

نحتاج إلى هذا المعنى في بيوتنا كما نحتاج إليه في عبادتنا. قد نحسن الكلام مع الغرباء، ثم نشد على أقرب الناس إلينا. وقد نحافظ على صورة الأمانة أمام من يحاسبنا، ثم نتساهل فيما لا يتابعه أحد. والمراقبة تدعونا إلى صدق يشمل الحاليين: أن نرفق بمن نعيش معهم،

ونؤدي ما أوتمنا عليه، ونتقي الله في الضعيف كما نتقيه في صاحب القوة. فلا تكون عنايتنا بما يبدو من صلاحنا أكبر من عنايتنا بحقيقة ما نعمل.

ومن راقب الله لم يستغن عن التوبة. نحن نغفل ونضعف ونخطئ، ثم نحتاج إلى أن نرجع. فإذا زلت فلا تستسلم لذنبك، ولا تجعل الخجل من تقصيرك يمنعك من الدعاء. اعترف بخطئك، واستغفر ربك، واترك ما نهاك عنه، وأصلح ما تستطيع إصلاحه. وليس صدقك أن تدعي أنك لا تضعف، بل أن تجاهد ضعفك، وألا ترضى بالإصرار على ما تعلم أنه خطأ.

ولا تجعل عنايتك بقلبك تفتيشًا مرهقًا في كل خاطر. إذا غفلت في الصلاة فعد إلى ما تقرأ، وإذا عرفت ذنبًا فتب منه، وإذا رأيت تقصيرًا فأصلحه. أما الخواطر التي تكرها ولا تختارها، فلا تعاملها كعمل تعمده؛ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ»^٢. نريد محاسبة تعيننا على الطاعة، لا شكا يحبسنا عنها، ورجاء يحملنا على العودة، لا غفلة تهوّن علينا المعصية. ابدأ من يومك الذي تعيشه. من صلاة حان وقتها، ووعده ينتظر الوفاء، وحق تستطيع أدائه، وكلمة تختار أن تقولها أو تسكت عنها. تذكر أن الله يراك، ثم انظر ما الذي يرضيه منك في هذا الموقف. هكذا يصحب الإيمان عملك، وتتعلم أن تعبد في الخلوة وبين الناس، في أيام الراحة وأيام التعب، وأنت ترجو رحمته وتسأله الثبات.

٢. صحيح مسلم، رقم 127، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ العفو عن حديث النفس ما لم يُعمل به أو يُتكلم به. المراد الخاطر غير المختار، لا القول أو الفعل المتعمد.

اللهم ارزقنا خشيتك في السر والعلن، وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن
عبادتك. أصلح قلوبنا وأعمالنا، واجعل علمنا بك عوناً على طاعتك. وإذا
غفلنا فذكرنا، وإذا ضعفنا فأعنا، وإذا أذنبنا فوفقنا للتوبة. واغفر لنا
ولو الدين، وارزقنا صدقاً معك، ورجاءاً في رحمتك، واستقامةً حتى
نلقاك وأنت راضٍ عنا.

الباب الأول: أن تعرف من تعبد

قد يعرف الإنسان أن الله يراه، ثم يتصرف في ساعة الغضب كأن الكلمة لا يسمعها إلا من أمامه. ويؤمن أن الله يعلم حاجته، ثم يحبس دعاءه لأنه لم يجد العبارة التي تشرحها. ليست حاجتنا إلى اسم جديد لهذا الإيمان، بل إلى حضور ما نعرفه حين نعمل وحين نسأل.

نريد أن نقف للصلاة ونحن نعرف من نقصد، وأن نكف عن الأذى لأن الله نهى عنه، وأن نرجو ثواب خير لم ينتبه إليه الناس. هذه أعمال قريبة، لكنها تحتاج إلى قلب يتعلم من جديد كيف تكون معرفته بالله عونًا له، لا معلومة يذكرها في وقت ثم ينساها حين تشتد رغبته.

ولا يبدأ هذا الطريق بادعاء حال لا نجدها. نستعين بالله، ونتعلم معنى الإحسان، ثم نأتي بما نستطيع من الصدق. من رحمة التعليم النبوي أنه لا يتركنا مع وصف مبهم للكمال؛ يدلنا على العبادة، وعلى من نعبد، وعلى حقيقة أنه يرانا. ومن هذه المعرفة يبدأ رجاء أن نحسن ما بين أيدينا.^١

١. صحيح مسلم، رقم 8، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ حديث جبريل في الإسلام والإيمان والإحسان.

السؤال الذي نحتاج إليه

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجَبْنَا لَهُ، يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا. قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحَقَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّيْءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ. قَالَ: ثُمَّ انْطَلِقْ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^١.

هكذا دخل معنى الإحسان إلى ذلك المجلس: جزءًا من الدين، متصلًا بالإيمان والعبادة، لا أمرًا زائدًا يستغني عنه من عرف حركات الصلاة وأحكام المال.

١. صحيح مسلم، رقم 8، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ حديث جبريل في الإسلام والإيمان والإحسان.

حين نقرأ هذا الخبر، قد ننتبه إلى غرابة حضور السائل، ثم نمر بالجواب الذي جاء من أجله. ولكن حاجتنا إلى الجواب باقية. نحن نعرف أحياناً ما يجب أن نفعله، وتضعف عنايتنا بكيف نفعله ولمن نفعله. نقف للصلاة فتسبق ألسنتنا قلوبنا، ونؤدي الأمانة إذا خفنا المحاسبة، ثم يختلف حالنا حين نطمئن إلى أن أحدًا لن يسأل. وهنا يأتي الإحسان ليرد العبادة إلى معناها.

قال عليه السلام: «أن تعبد الله». فالغاية عبادة الله، لا الوصول إلى شعور نصفه للناس. ثم دل على حال تعين على إحسان العبادة: أن يكون يقين العبد بربه وتعظيمه له حاضرًا، كأنه يراه. فإذا ضعف هذا الحضور، فالحقيقة التي يستعين بها ثابتة: الله يراه. ليس المطلوب أن ينظر الإنسان إلى نفسه طوال الوقت، وإنما أن يتذكر ربه فيطبع أمره ويحسن قصده. ويشرح ابن رجب هذا الحديث فيبين أن استحضر اطلاع الله يورث الخشية والتعظيم، ويدعو إلى بذل الجهد في تحسين العبادة وإتمامها. فالمعنى لا ينتهي في القلب؛ يظهر في عمل أقرب إلى الصواب، وقصد أقل التفاتًا إلى الخلق. كما أن الحديث يجمع أعمال الظاهر ومعاني الباطن، فلا يصح فصل أحدهما عن الآخر.^٣

قد يتعلم المرء أحكام الصلاة، ثم يحتاج بعد ذلك إلى أن يقرأ الفاتحة على مهل وهو يفهم ما يقول. وقد يعرف التاجر حكم الغش، ثم يحتاج عند عرض السلعة إلى أن يذكر العيب الذي يخشى أن ينقص ثمنها. المعرفة مهمة، ولكن موقع المراقبة هو تلك اللحظة التي نختار فيها العمل بما علمنا، وإن خالف رغبة عاجلة.

٣. ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الثاني؛ شرح الإحسان في حديث جبريل.

ولا تنتظر أن يصبح حضور قلبك كاملاً حتى تبدأ. إن شرد ذهنك في الصلاة، فعد إلى ما تقرأ. وإن غلبك الغضب ثم تذكرت، فكف عن الكلمة التي لم تقلها بعد. ليس الرجوع عملاً صغيراً؛ قد يكون هو أول ما تستطيع إحسانه. الذي يدعوك إلى عبادته يعلم ضعفك، وقد فتح لك أبواب التعلم والاستعانة والتوبة.

ولكل واحد منا موضع يحتاج فيه إلى هذا السؤال. ربما كنت تحسن ما يراه مديرك، ويضعف ما لا يتابعه. وربما أحسنت أمام الضيوف، ثم جفوت أهلك بعد انصرافهم. لا تبدأ بإدانة حياتك كلها؛ حدّد موضعاً تعرف أنك تستطيع إصلاحه، ثم اجعل علمك بأن الله يراك حاضراً فيه. أدّ الواجب نفسه في الحالين، واسأله أن يرزقك الصدق.

خرج جبريل من المجلس، وبقي التعليم الذي جاء به. ونحن لا نملك حضور ذلك المجلس، لكننا نملك أن نستجيب لما تعلمناه منه. بعد هذه الصفحات صلاة وأمانة وحديث مع إنسان؛ وفيها يتجدد السؤال: كيف أعبد الله في هذا الذي بين يدي؟ قد يكون الجواب أداءً أحسن، وقد يكون تركاً لمعصية، وقد يكون اعتذاراً تأخر. ومن هنا يبدأ الطريق.

ألم يعلم بأن الله يرى

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ: فَقِيلَ نَعَمْ. فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ. قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ. قَالَ: فَمَا فَجَّحْتُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ. قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ، وَهَوَلاً، وَأَجْنِحَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخْتَطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا. قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، لَا نَذْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ شَيْءٍ بَلَغَهُ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ ○ ○ ○ ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ ○ ○ ○ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ ○ ○ ○ ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ ○ ○ ○ ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ ○ ○ ○ ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ○ ○ ○ ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ ○ ○ ○ ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ ○ ○ ○ ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ ○ ○ ○ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ ○ ○ ○ ﴿سَدْعُ الرِّبَانِيَّةِ﴾ ○ ○ ○ ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾. زَادَ عُبَيْدُ اللَّهِ فِي حَدِيثِهِ قَالَ: وَأَمَرَهُ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ. وَزَادَ ابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾. يَعْني قَوْمَهُ. ٤

ليست الآيات مجرد تذكير لإنسان يغلق باباً على نفسه؛ إنها في سياق طغيان وأذى ومحاولة صدّ عن العبادة. من غفل عن نظر الله قد يظن أن الحق تابع لقوته، وأنه يستطيع إسكات من لا يملك مثل سلطانه. ٥

٤. صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رقم 2797؛ خبر أبي جهل حين أراد منع النبي ﷺ من الصلاة.

٥. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة العلق، الآية 14.

للمراقبة إذن أثر في كف الظلم قبل أن يكون لها أثر في إخفاء الطاعة. قد يخاف إنسان على صورته الدينية، ثم لا يخاف أن يذل ضعيفًا. يحرص ألا يراه الناس في خطأ ظاهر، ويتساهل في حق موظف أو قريب لأنه يقدر عليه. ولكن اطلاع الله يشمل الأمرين؛ لا يختص بعمل دون عمل، ولا تصبح المظلمة أقل شأنًا لأن صاحبها لا يجد من ينصره. تأمل اختلاف ما يراه الناس وما يعلمه الله. قد يظهر القوي واثقًا من نفسه، ويظهر الضعيف عاجزًا، ولا تكون العاقبة على قدر هذه الصورة. وما أخبر به الحديث من حماية النبي ﷺ في ذلك الموقف آية أكرمه الله بها؛ لا نجعلها وعدًا بأن كل مظلوم سيُمنع عنه الأذى على الصورة نفسها. لكننا نعلم أن الظلم لا يغيب، وأن الحساب لا يسقط لعجز صاحبه عن المطالبة.

وهذا العلم يغيّر طريقة استعمال القوة. تستطيع أن تنهي نقاشًا بالصراخ، لكن هل أديت الحق؟ وتستطيع أن تحرم أحدًا من فرصة لأنه خالفك، لكن هل عدلت؟ وتستطيع أن تنشر كلمة تسقط مكانة إنسان، لكن هل تثبت؟ قد يخلو الفعل من مخالفة يلاحظها من حولك، ويبقى فيه ظلم تعرفه أنت. هنا يحتاج القلب إلى من يرده إلى الله، لا إلى حيلة تحسن مظهر القرار.

وربما كنت أنت المتأذي، فتقرأ الآية على وجه آخر. يعلم الله ما لم تحسن شرحه، وما لم يُصدّق من خبرك، وما أخفيته عن أقرب الناس حياءً أو عجزًا. يمكنك أن تطلب الإنصاف من أبوابه المشروعة، وأن تستعين بمن يدفع الضرر؛ فالثقة بعلم الله ليست أمرًا بالسكوت عن حَقِّك. لكنها تعينك ألا تجعل ظلم غيرك لك سببًا لظلمك من لا ذنب له.

وفي المشهد رجل يصلي وآخر يريد أن يقطع عليه عبادته. لا تحتاج أن تكون صاحب سلطة كبيرة لتراجع نفسك أمامه. قد تمنع أهل بيتك من حقهم في وقت الصلاة بسبب رغبة عاجلة، أو تسخر من شاب بدأ يستقيم، أو تجعل الخير الذي يفعله غيرك موضع تنقص حتى يكف عنه. ليست هذه الوقائع سواء في حكمها، ولكنها تدعونا إلى سؤال أمين: هل أعين على الطاعة أم أثقلها على الناس؟

حين تستحضر أن الله يراك، لا تبحث عن ارتجاف ظاهر يدل للآخرين على خشيتك. ابحث عن اليد التي تكفها، والكلمة التي تعدل عنها، والقرار الذي تصححه. قد يكون أثر الآية أن تسمع الطرف الضعيف قبل أن تحكم، أو أن تعيد مالا بعد أن قدرت على منعه، أو أن تترك مسلمًا يؤدي عبادته من غير أذى.

لم تنفع أبا جهل كلمات التهديد حين تقدم إلى ما أراده. ونحن أحوج إلى أن نتعلم قبل أن نتورط، وأن نكف قبل أن نحتاج إلى الاعتذار. (أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى): سؤال تقرأه لنفسك، ثم تحمله إلى الموضع الذي تملك فيه قرارًا لا يملكه غيرك. هناك يكون تذكرك نافعًا.

وجدته ساجداً

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفَرَاشِ، فَالْتَمَسْتُهُ، فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ، وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخِطِكَ، وَبِمَعْفَاةِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^٦.

هذا هو القدر الذي روته لنا: بحثت عنه فوجدته في عبادة ودعاء. لا نحتاج إلى أن نزيد وصفاً لليل أو حديثاً دار في نفسه حتى يقترب الموقف من قلوبنا. نعرف من الكلمات التي سمعتها أين كان رجاؤه وإلى من كانت استعاذته. رسول الله ﷺ، الذي علّم الناس، يسأل ربه ويثني عليه، ويعلن عجز العبد عن إحصاء الثناء الذي يليق به سبحانه. تختلف هذه الخلوة عن الصورة التي قد نرسمها للعبادة حين نشغل بما يبدو منها. لم يكن هناك جمهور يستمع إلى موعظة، ولا درس ينتظر من صاحبه حسن البيان. كان سجوداً ودعاء، ثم نقلت عائشة ما سمعت، فتعلمت الأمة منه. في البيت من العبادة ما لا يراه عامة الناس، وفي حياة العبد مساحة لا يصح أن تكون خالية من الصدق لأنه لا يجد فيها من يشجعه.

والدعاء يجمع خوفاً ورجاء. طلب رضا الله ومعافاته، واستعاذ من سخطه وعقوبته. فلا نخترل المراقبة في الخوف من العقوبة وحده، ولا نجعل الرجاء غفلة عن حق الله. يعرف العبد أنه محتاج إلى ربه في

كل حال، فيخشى أن يخالفه ويرجو رحمته، ويعبد من له الرضا والسخط والمعافاة والعقوبة على الوجه اللائق به، من غير تشبيهه بخلقه.

ثم يقول ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك». معرفة الله لا تجعل الإنسان مستغنياً عن الأدب، بل تزيد اعترافه بعظمة ربه وقصور علمه. قد يحسن الواحد منا عبارة في الدعاء، فيعجبه حسنها وينسى حاجته. أما هذه الكلمات فتعيد الداعي إلى العبودية: لا أحيط بما يستحقه ربي من الثناء، وهو أعلم بنفسه وأكمل صفات مما يبلغه علم مخلوق.

ويبين ابن رجب أن حضور القلب مع الله يدعو إلى تحسين العبادة، وأن فهم النصوص على وجه يشبه الخالق بخلقه سوء فهم، لا حقيقة إحسان. القلب يتعلم من الخبر الصحيح، ويعظم الله بما أخبر به عن نفسه. ولهذا لا تكون الخلوة مجالاً نصنع فيه صوراً غيبية، وإنما مجالاً للصلاة والذكر والدعاء المشروع.^٢

قد تقول: لا أجد في نفسي مثل هذا الحضور. ابدأ بما تستطيع من العمل، ولا تجعل المقارنة تمنعك من خير قريب. توضاً وأحسن وضوءك، وصل ما تيسر من غير إخلال بحق واجب، وتعلم دعاء ثابتاً تفهم معناه. عندما تقول: أعوذ برضاك من سخطك، تذكر أنك تريد رضاه في عمل تعرفه، لا مجرد سلامة لفظ في لحظة الدعاء.

٦. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، حديث عائشة رضي الله عنها، رقم 486؛ افتقاده النبي ﷺ في الليل ووجدانها إياه ساجداً ودعاؤه.

٣. ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الثاني؛ شرح الإحسان في حديث جبريل.

وللخلوة النافعة أثر بعد انتهائها. من سأل الله رضاه في الليل يحتاج أن يلتمس ما يرضيه في النهار؛ في أمانة العمل، وصبره على أهله، وصدقه إذا أخطأ. لا نطلب حالاً جميلاً ينتهي عند طي السجادة، ثم تبقى الحقوق خارج عنايتنا. القصد واحد، وإن اختلفت الأعمال التي نخدم بها هذا القصد.

ولا يلزم أن تخبر أحداً بكل طاعة خفية حتى تصبح ذات قيمة. قد تحتاج إلى تعليم أو نصيحة فتسأل، وقد يرى أهلك شيئاً من عبادتك فينتفعون، وهذا لا يبطل العمل. لكن لا تجعل الإعلان شرطاً في استمرارك. إن وجدت أنك تفتر حين لا يعلم الناس، فاستعن بالله على تربية نيتك، واحفظ لنفسك عملاً تتعلم فيه الاكتفاء بعلمه.

تفتح لنا رواية عائشة باباً إلى الاقتداء بعبادة النبي ﷺ في بيته. نتعلم منها حسن الدعاء والافتقار إلى الله، ونجعل في خلوتنا عملاً صالحاً لا ننتظر أن يعرفه الناس.

سمع الله شكواها

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، تَشْكُو زَوْجَهَا، وَمَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾».^٧

بدأت السورة بإثبات سماع الله، ثم بيّنت حكم الظهار وما فيه من قول منكر وزور. فلم تكن عناية الوحي بالشكوى كلمات تطيب خاطر وحدها؛ كان فيها بيان للحق وتصحيح لفعل يؤثر في حياة الزوجين. من هنا يجتمع معنى المراقبة بمعنى العدل: الذي يسمع دعاءك يسمع أيضًا الكلمة التي تجرح بها من يعيش معك، ويعلم ما يترتب عليها من أذى.

قد يُخَيَّلُ إِلَى صاحب الحاجة أن شكواه أصغر من أن تُسمع؛ مشكلة في بيت، أو كلمة من قريب، أو ظلم لا يلتفت إليه الناس. لكن علم الله وسمعه لا يتوقفان على شهرة الإنسان، ولا على قدرة صاحبه على ترتيب كلامه. ليس عليك أن تجعل حزنك مؤثرًا في أعين غيرك حتى ترفعه إلى ربك. ادعه بما تعرف من حاجتك، وهو أعلم بها منك.

٧. سنن ابن ماجه، رقم 188، من حديث عائشة رضي الله عنها؛ خبر المرأة التي جاءت تجادل في زوجها، ونزول أول سورة المجادلة.

وليس في طلب المرأة البيان ما يقدح في صبرها أو حيائها. جاءت تسأل وتشتكي، فسمع النبي ﷺ كلامها. لم يأمرها الوحي أن تجعل كل ألم سرًّا لا يطلع عليه من يستطيع مساعدتها. وهذا يعلمنا أن طلب العلم والإنصاف باب مشروع؛ يتوجه القلب إلى الله، ويأتي الإنسان من الأسباب ما يعينه على معرفة حقه وأدائه.

وفي الجانب الآخر يقف المستمع. قد يحدثك أحدهم عن تعب قديم فتستثقل طول الكلام، أو تظن أنك عرفت القصة من أول جملة. تذكر أنك تسمع قدرًا، ولا تحيط بجميع الحال. السؤال الرفيق، وترك المقاطعة، وحفظ السر، أمور صغيرة في ظاهرها، لكنها من حسن أداء الأمانة. لا تحتاج أن تعد بما لا تقدر عليه؛ يكفي أن تسمع بأمانة وتدل على ما ينفع.

وإذا كنت طرفًا في الخصومة، فراقب الله قبل أن تجعل قدراتك في البيان وسيلة لتغليب قولك. قد تكون أفصح من صاحبك، أو أقدر على جمع من يؤيدك، ولا يغير ذلك حقيقة ما وقع. الكلمة التي قلتها في البيت لا تصير عدلًا لأنك صغت لها شرحًا مقبولًا خارجه. اسأل نفسك عما يعلمه الله من فعلك، لا عما نجحت في إقناع الناس به.

والمراقبة تحفظ كذلك لسان من ينقل الشكوى. ليس كل ما نسمعه مباحًا أن نحكيه، ولا كل حاجة تبرر أن نكشف من التفاصيل ما لا يلزم. نذكر لمن يستطيع الإصلاح ما يحتاج إليه، ونترك ما يزيد الأذى ولا يخدم حقًا. بذلك يجتمع طلب الإنصاف مع حفظ الحرمات، ولا تتحول النصيحة إلى تداول لأسرار البيوت.

ومن معاني الطمأنينة في القصة أن الإنسان قد يعجز عن أن يشرح نفسه، ولا يعجز الله عن العلم به. لكن هذه الطمأنينة لا تُغني عن الكلام الواضح مع البشر؛ من طلب مساعدة بيّن حاجته بما يستطيع، ومن سئل أجاب بصدق. الله يسمعنا، ونحن مطالبون أن نحسن ما يسمعه منا: دعاءً ورجاءً وشهادةً واعتذارًا.

ربما رجعت بعد هذه القصة إلى دعاء تأخر على لسانك، أو إلى إنسان لم تحسن الإصغاء له، أو إلى كلمة تحتاج أن تعتذر عنها. لا يبعد معنى الآية عن هذه الأعمال. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. فمن علم ذلك لم يحتقر شكواه إلى ربه، ولم يستهن بشكوى إنسان يستطيع أن ينصفه.

على رسلكما

عن صفية زوج النبي ﷺ أنها أخبرت علي بن الحسين رضي الله عنهما «أَنَّهَا جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ، فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَهَا يَقْلِبُهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ، مَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ: عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُبَيْبٍ. فَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ. وَكَبَّرَ عَلَيْهِمَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِّ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا».^٨

في هذه الزيارة عبادة وصلة ورحمة. لم يجعل الاعتكاف مانعاً من الحديث مع زوجته، وقام معها حين انصرفت. ثم كانت عنايته بقلبي الرجلين جزءاً من حسن تعامله، لا تنازلاً عن مقامه. كان يمكن أن يمرّ ولا يسألاً، ولكنه ﷺ علّم الأمة أن البيان في موضعه أمانة، وأن دفع الظن السيئ لا يستلزم أن نكون أسرى لكل ما يتخيله الناس.

المراقبة لا تقول لك: ما دام الله يعلم حقيقتك فلا تبال بأي أثر تتركه تصرفاتك في الآخرين. الله يعلم الحق، وقد أمرك أيضاً بالصدق وحفظ الحقوق ورفع الالتباس حين يحتاج الأمر إليه. من أوّتمن على مال يبيّن حسابه، ومن التبس قوله يصححه، ومن كان موقفه قابلاً لفهم يضر بغيره يدفعه بما يستطيع. لا ينافي ذلك إخلاصه لله.

٨. صحيح البخاري، كتاب الاعتكاف، حديث صفية بنت حبي رضي الله عنها، رقم 2035؛ خروج النبي ﷺ معها وقوله للرجلين: «على رسلكما».

لكننا قد نضيع في الطرف المقابل، فنقضي حياتنا في شرح كل حركة خوفاً من الناس. ليس هذا ما جرى في الخبر. كان بياناً محدداً لموقف محدد، ثم انتهى. ما لم يتعلق بحق أو مفسدة معتبرة، لا تحتاج إلى أن تصنع لكل إنسان ملفاً يثبت سلامة باطنك. احفظ الوضوح اللازم، ولا تجعل القبول العام غاية تستهلك قلبك.

ويظهر حسن الاقتداء كذلك فيمن رأى المشهد. لا تتعجل بناء قصة كاملة على صورة ناقصة. قد تسمع جملة من حديث فتسيء فهم ما قبلها وما بعدها، أو ترى رسالة دون سياقها فتظن أنك أحطت بما جرى. أحسن الظن حيث لا دليل، وثبت فيما يلزم التثبت منه، ولا تجعل الحدس علماً لمجرد أنه قوي في نفسك.

وقد يمر خاطر من غير اختيار، ثم يبدأ دورنا في تغذيته أو قطعه. نضيف إليه الاحتمالات، ثم نتحدث به، ثم يصبح عندنا خبراً. والذي لم يكن إلا تخيلاً ينتقل إلى سمعة إنسان وبيته وعمله. المراقبة تبدأ قبل الإرسال: بأي علم أقول هذا؟ وهل أحتاج إلى قوله؟ وماذا أصنع لو كنت أنا صاحب الموقف الذي لم يفهمه غيري؟

ومما يوجب الناس أن يُجعل طلب البيان اتهاماً لازماً. يستطيع الإنسان أن يسأل بأدب حين يكون له حق في السؤال، ويستطيع المسؤول أن يجيب من غير غضب. الزوجان، والشريكان، ومن يعملون معاً، يحتاجون إلى وضوح يمنع تراكم الشك. الكلمة الهادئة في أول الالتباس قد توفر اعتذارات كثيرة بعد اتساعه.

في قوله ﷺ: «إنما هي صفة» تعليم بالفعل؛ سَمَى الأمر باسمه، ولم يتركه للأوهام. وفي كلامه عن الشيطان تذكير بأن القلب محتاج إلى الحفظ، مهما كان صاحبه محبًا للخير. لا يأنف المؤمن من سبب ينفعه، ولا يرى نفسه أعلى من أن يتعلم كيف يدفع ما يفسد سلامة صدره. حافظ على صدقك مع الله، وأحسن بيانك للناس حيث يلزم البيان. لا تعمل لتبدو طاهر السريرة، ولا تتخذ صلاح نيتك عذرًا لفوضى تؤذي غيرك. في المسافة بين التعلق بمدح الناس والإهمال التام لأثر العمل طريق أهدأ: عمل مشروع، وقصد صالح، وكلام واضح بقدر الحاجة. هذه بعض ثمرات مراقبة تعرف حق الله وحق عباده معًا.

دعاء يحفظ القلب في الحالين

رُوي عن عطاء بن السائب عن أبيه أنه قال: «صلى بنا عمار بن ياسر صلاة فأوجز فيها، فقال له بعض القوم: لقد خففت أو أوجزت الصلاة. فقال: أما على ذلك فقد دعوت فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما قام تبعه رجل من القوم، هو أبي غير أنه كنى عن نفسه، فسأله عن الدعاء، ثم جاء فأخبر به القوم: اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي وتوفني إذا علمت الوفاة خيرًا لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب وأسألك القصد في الفقر والغنى وأسألك نعيمًا لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع وأسألك الرضاء بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزيينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين».^٩

لم يجعل عمار قصر الصلاة في ذاته علامةً على كمال العبادة؛ إنما أخبرهم بما دعا به مما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم وصلهم الدعاء بالرجل الذي سأله. ولا يدل الخبر على استحباب العجلة أو إسقاط الطمأنينة؛ فغايتته أنه أوجز ودعا بهذا الدعاء. ونحن لا نحيط بباطن أحد من مظهر عمله وحده.

٩. أخرجه النسائي في كتاب السهو، باب «نوع آخر»، رقم 1305، من رواية عطاء بن السائب عن أبيه؛ وفي لفظ الخبر أن الرجل الذي تبع عمارًا هو أبو الراوي، وقد كنى عن نفسه. حسنه محققو طبعة دار السلام.

تأمل قوله: «وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة». ليست خشية الله لباساً نلبسه بين الناس ثم نضعه إذا انفردنا. نسأله أن يرزقنا إياها في الحالين؛ حيث يشهد الخلق وحيث لا يشهدون. يكون الباب مفتوحاً أو مغلقاً، ويكون العمل ظاهراً أو خفياً، وتبقى معرفتنا بربنا دافعاً إلى أن نحفظ حدوده.

ثم تأتي كلمة الحق في الرضا والغضب. هذه صورة قريبة للمراقبة؛ فالإنسان قد يسهل عليه العدل وهو هادئ، ثم إذا غضب سمح لنفسه بما كان ينكره. وقد يحبه أحد فيجامله على باطل، فإذا اختلف معه بالغ في عيبه. الدعاء يسأل ثبات المعيار، لا غياب المشاعر: ارضَ واغضب، لكن لا تجعل شعورك إذناً بالكذب أو الظلم.

وفي القصد في الفقر والغنى عناية بحال أخرى. قد تمنعك قلة المال من بسط اليد، ثم يفسدك الغنى بالإسراف والتفاخر. وقد تدفعك الحاجة إلى تضيق الحقوق، ثم لا تصلح حالك إذا زالت لأن العادة بقيت. نسأل الله اعتدالاً يضبط العمل في الحالين، فلا يكون الدين عندنا تابِعاً لتغير ما نملك.

ويبدأ الدعاء بإقرار بعلم الله بالغيب وقدرته على الخلق. نحن لا نعلم متى تكون الحياة خيراً لنا أو الوفاة خيراً، ولا نملك المستقبل الذي نخافه أو نرجوه. لا يطلب العبد هنا تجربة مؤلمة ليثبت قوته، بل يسأل الله أن يختار له الخير بعلمه. ومن أدب المراقبة أن نتواضع فيما نجهل، وأن نسأل العافية ولا ندعي القدرة على كل بلاء.

عندك اليوم موقف تستطيع أن تحمل إليه بعض هذه المعاني: رسالة تكتبها وأنت غاضب؛ اتركها حتى تقدر على قول الحق من غير زيادة. ومدح تسمعه لمن تحب؛ لا تضيف إليه ما لم تعلم. ومال تنفقه لتبدو

في حال لا تطيقها؛ راجع حاجتك إليه. وقد تحتاج أن تدعو قبل أن تجد في نفسك القوة؛ فالدعاء ليس شهادة بأنك تملك ما تسأل، بل اعتراف بحاجتك إليه. نسأل الله الخشية والحق والقصد، ثم نأخذ بالأسباب التي تحفظ ميزاننا. لا نزكي أنفسنا بهذا السؤال؛ بل نقر بحاجتنا إلى هداية الله في كل حال.

من أجل من كان العمل؟

قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُفْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأَتَى بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأَتَى بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأَتَى بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».^{١٠}

١٠. صحيح مسلم، كتاب الإمامة، باب «مَنْ قَاتَلَ لِلرِّيَاءِ وَالسَّمْعَةِ اسْتَحَقَّ النَّارَ»، حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم 1905. رواه مسلم من طريق سليمان بن يسار عن أَبِي هُرَيْرَةَ؛

ليست أعمال هؤلاء في ظاهرها قليلة: قتال حتى الموت، وعلم وتعليم وقرأة للقرآن، وإنفاق في وجوه الخير. ومع ذلك كشف الحديث أن السؤال الحاسم ليس: كم رآها الناس؟ بل: من أجل مَنْ كان العمل؟ لقد نال كل واحد منهم الذكر الذي طلبه بين الخلق، لكنه لم يطلب بعمله الثواب الذي ينجيه عند الله.

هذا مشهد من الغيب أخبر به رسول الله ﷺ، لا قصة نضع بها حكمًا على عالم أو متصدق نعرفه. سرائر الأعيان ليست إلينا. وإنما نقرأ الحديث لأن نفوسنا نحن قد تخلط القصد من حيث لا نحب أن نعترف. نتعب في العمل، ثم نضيق لأن اسمنا لم يذكر؛ أو نعرض علمًا نافعًا، ثم يصير الانتصار لأنفسنا أحب إلينا من انتفاع من يسمع.

الإخلاص والمراقبة يتعاونان على إصلاح هذا الخل. الإخلاص أن تقصد الله بعبادتك، والمراقبة أن تستحضر اطلاعه عليك في هذا القصد وفي العمل نفسه. لا يكفي أن تصنع صورة خفية للعمل إن كان القلب يطلب بها غاية أخرى، ولا أن ترفع شعار النية الصالحة ثم تتهاون في حدود الفعل. نحتاج إلى قصد صحيح وعمل صحيح، وإلى مراجعة لا تنقطع بانتهاء البداية.

وقد ربط ابن رجب استحضر اطلاع الله بالإخلاص؛ فالعبد حين يعمل على علمه بأن الله يراه ويعلم سره يقل التفاته إلى إرادة الخلق بعمله. هذا ليس وصفًا لحيلة نفسية نمنع بها كل فرح بمدح، بل تربية للوجهة التي نعمل من أجلها. يفرح الإنسان بالشكر، لكنه لا يجعل غيابه سببًا لتترك حق أو إفساد خير.^٣

٣. ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الثاني؛ شرح الإحسان في حديث جبريل.

ومن الرفق بنفسك أن تفرق بين الخاطر العارض والغاية التي تعتمد عليها. قد يسرّك ثناء جاء من غير طلب، فلا تجعل السرور وحده دليلًا على أن عملك ضاع. وراقب في المقابل ما تختاره: هل تزيد الخير إذا ذكرت، وتقطعه إذا نسي اسمك؟ هل تقبل أن يتم النافع على يد غيرك، أم تحزن لأن الفضل لم ينسب إليك؟ هذه أسئلة تصلح للتربية، لا لإصدار أحكام قاطعة على كل ما مضى.

وقد تكون المراقبة في أثناء العمل أشق منها قبله. تبدأ راغبًا في النفع، ثم يأتي نجاح أو شهرة، فيدخل حب المنزل. لا يلزم أن تهدم ما بنيت؛ جدّد قصدك، واحفظ الحق لأصحابه، واقل أن تُصحح. الذي يريد رضا الله يستطيع أن يقول: أخطأت، وأن يفرح بإصابة غيره، وأن يترك شيئًا كان يحبه حين يتبين أنه يفسد العمل.

ومن صورها بعد العمل ألا تؤذي من أحسنت إليه بالمنّ. تذكره كل مرة بما فعلت، أو تنتظر منه موافقة لا يرضاها، أو تستعمل حاجته القديمة لتبقى لك منزلة عليه. إحسانك لا يشتري حريته، ولا يعطيك حقًا في سريره. نرجو الثواب من الله، ونحفظ للناس كرامتهم، ونطالب بحقوقنا الحقيقية من غير أن نحول المعروف إلى دين لم يلتزموه.

والخوف من الرياء لا ينبغي أن يصير طريقًا لترك الواجبات. قد يطلب منك تعليم تعرف نفعه، أو إعانة لا يقوم بها غيرك، فتتركها خشية أن يراك الناس. استعن بالله على نيتك وأدّ ما يلزمك. إخفاء العمل يُطلب حيث يصلح، وإظهاره قد تكون فيه مصلحة، والأمر لا ينحصر في شكل واحد. الذي نربيّه هو القلب الذي يعرف غايته، لا الصورة التي يختارها لنفسه.

حين يذكرك الحديث بأولئك الثلاثة، دع السؤال يتجه إليك: ما الذي أريده من هذا الخير؟ لا تحتاج أن تعلن الإجابة، ولا أن تحمل الناس على تصديقها. يكفي أن تصدق مع الله، وتستغفر من خلل تعرفه، وتبدأ عملك التالي بنية تصلحها. شهرة الفعل لا تخفي القصد عن الله، وخفاء اسمك لا يخفي عنه خيرًا عملته له.

كأنك تراه، لا صورة تتخيلها

تقدّم في الفصل الأول متن حديث جبريل كاملاً، وفيه بيان مقام الإحسان. وقد يسمع القارئ عنوان الكتاب فيتساءل: كيف أعبد الله على هذا المقام، وأنا لا أراه؟ وكيف أحضر قلبي دون أن أتكلف شعوراً أو صورة؟ السؤال مهم؛ لأن الجواب النبوي يهدي إلى عبادة صحيحة، ولا يفتح للخيال باباً يصنع فيه ما لم يخبرنا الله به عن نفسه.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. [الشورى: ١١].
 ثبت له ما أثبتته لنفسه وما صح عن رسوله ﷺ على الوجه اللائق به، ولا نقيسه بخلقه. فإذا عبدته كأنك تراه، فاستحضر معرفتك به وتعظيمك له وقوة يقينك، لا هيئة تتصورها ولا مكاناً تتخيله لذاته سبحانه. كل ما يصنعه خيال المخلوق من صور مأخوذ مما عرفه، والله ليس كمثله شيء.

بيّن ابن رجب، عند شرح حديث جبريل، أن استحضار قرب الله وإطلاعه يورث الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، ويدعو إلى النصح في العبادة وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها. هذا تلخيص لمعنى كلامه، لا نقل لألفاظه. وأما تنزيه الله عن مماثلة خلقه فأصله الآية المتقدمة: تعرف ربك بما أخبر به عن نفسه، وتعلم أنه مطلع عليك، فتحسن ما تتقرب به إليه من غير أن تصنع له صورة في خيالك.^٣

٣. ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الثاني؛ شرح الإحسان في حديث جبريل.

وفي شرح الدكتور خالد السبت لمراتب المراقبة بيانٌ لصلة مقام الإحسان بحضور القلب والخشوع، وأنه يحتاج إلى مجاهدة وتهذيب للنفس وتعاهد للقلب. وهذه خلاصة للمعنى الذي قرره في درسه، وليست اقتباساً من ألفاظه. فلا ننشغل بتصنيف منزلتنا، ونترك الفريضة أو الحق الذي بين أيدينا.^{١١}

تأمل ما يحدث في الصلاة. قد تكرر: الحمد لله رب العالمين، وتكون في الوقت نفسه ترتب حديثاً ستقوله بعد الصلاة. لا تحتاج عند رجوعك إلى أن تتخيل صورة، بل أن تعود إلى معنى الحمد وإلى أنك تناجي ربك. تتذكر أنه المنعم المستحق للحمد، وأنت تقرأ كلامه، فيجتمع من فهمك وتعظيمك ما يعينك على حضور أحسن. فإن شردت مرة أخرى، عد مرة أخرى دون يأس.

وفي الدعاء تقول: اغفر لي. اجعل طلب المغفرة متعلقاً بحقيقة تعرفها من حاجتك، لا بكلمة تجري وحدها. تذكر تقصيراً ترجو عفو، من غير أن تفتش عن كل خاطر يرهقك. وفي الصدقة اقصد رضاه، واحفظ كرامة المحتاج، واترك عدّ الثناء الذي يرجع إليك. هذا حضور تبيين آثاره، ولا يحتاج إلى حكايات عن مكاشفات لا تملك التحقق منها.

ونحتاج إلى تمييز آخر: إحسان العبادة لا يعني أن العبد صار معصوماً من الغفلة. ما زال إنساناً يتعب وينسى، وقد يستعين بتنظيم وقته أو إبعاد ما يشغله. إغلاق الإشعارات قبل الصلاة، وفهم ما يقرأ، وتعلم حكم ما يجهل، أسباب تعينه على العمل. ليست بديلاً عن حياة القلب، لكنها ليست عدواً لها أيضاً.

١١. خالد بن عثمان السبت، شرح رياض الصالحين، باب المراقبة، شرح حديث جبريل، خلاصة مراتب المراقبة.

وقد يخطئ الإنسان حين يجعل رضا الناس العلامة الوحيدة على صلاح باطنه. يُقال له: ما أهدأك وما أخشعك، فيطمئن إلى صورته، مع أن بينه وبين نفسه تقصيراً يعرفه. وقد يمر يوم لا يلاحظ فيه أحد جهاده فيظن أنه لم يتقدم. دع أعمال القلوب بينك وبين ربك، واستفد من النصيحة التي تكشف فعلاً يمكن إصلاحه، لا من ألقاب تزكي منزلة لا يعلمها البشر.

وللمراقبة وجه واسع في الحياة. أنت لا تغادر العبودية إذا خرجت من المسجد؛ تخدم أهلك، وتؤدي عملك، وترد أمانة، وتتعلم علماً، وتجتنب ظلماً. ليست كل هذه الأعمال على حكم واحد، لكن القصد الصالح والالتزام بما شرع الله يجعلان الحياة ميداناً للطاعة. لا تحصر مقام الإحسان في لحظة سكون، ثم تستثنِ ساعات المعاملة والاختيار. يكفيك أن تتعلم اليوم باباً من معرفة الله، وأن تحسن به عملاً تعرفه. لا تقل عن نفسك إنك بلغت؛ سل الله أن يعينك على الطريق. وقد تأتيك ساعة ضعف، فتستند إلى الحقيقة التي خُتم بها جواب الإحسان في حديث جبريل المتقدم: أن الله يراك. يراك وأنت تقرأ، وأنت تتوب، وأنت تجاهد. فليكن علمك بذلك سبب صدق واستعانة، لا تكلفاً لصورة لم يأمرك الله بها.

الباب الثاني: قلوب عرفت ربها

في لحظة الاختيار قد يكون الذي تعرفه حاضراً أمام قلبك، وتحتاج إلى أن ترجحه على رغبة تلح عليك. وفي لحظة الخوف قد تعرف واجبك، وتحتاج إلى عون يؤنسك وأنت تؤديه. لا ينفصل العلم بالله عن هذه اللحظات؛ فيها نحتاج أن نتذكر علمه وسمعه وبصره، وأن نسأله الهداية والحفظ.

وما أسرع أن نختصر حياة الصالحين في نهاياتها الجميلة، ثم ننسى السؤال الذي واجههم قبل ذلك. نقرأ النجاة ولا نقف عند الدعاء، ونقرأ الثبات ولا ننتبه إلى الاستعانة. لكن حاجتنا ليست إلى الإعجاب وحده؛ نريد أن نتعلم كيف نرجع إلى الله ونحن لا نملك قوة تكفيننا.

لن تكون أيامنا نسخاً من حياة الأنبياء، ولا لنا أن ندعي ما خصهم الله به من الوحي. لكن الهدى الذي نتعلمه من أخبارهم يردنا إلى أمانتنا وصلاة يومنا وكلمتنا. وإذا عرفنا ما يأمرنا الله به، كان من الوفاء بهذه المعرفة أن نطلب منه العون على فعله، لا أن نكتفي بمحبة من فعلوه قبلنا.

يوسف حين أغلقت الأبواب

قال الله تعالى:

﴿وَرَأَوَدَتْهُ النَّتْي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. [يوسف: ٢٣].

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. [يوسف: ٢٤].

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. [يوسف: ٢٥].

﴿قَالَ هِيَ رَأَوَدْتَنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. [يوسف: ٢٦].

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. [يوسف: ٢٧].

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾. [يوسف: ٢٨].

﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَن هَذَا ۖ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ۖ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾. [يوسف: ٢٩].

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۚ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. [يوسف: ٣٠].

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. [يوسف: ٣١].

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾. [يوسف: ٣٢].

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾. [يوسف: ٣٣].

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. [يوسف: ٣٤].

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾. [يوسف: ٣٥].

١٢

يعرض النص القرآني المحنة من أول المراودة إلى قرار السجن. اجتمع قرب الفتنة وإغلاق الأبواب وغياب أعين الناس، فبدأ موقف يوسف عليه السلام بالاستعاذة بالله، ثم ظهرت الاستقامة في الحركة إلى الباب، وبيان الحق، والدعاء عند تجدد الضغط. لم يستغنِ يوسف عن ربه لأنه ثبت في أول امتحان، ولم يجعل سلامة قصده سبباً للبقاء حيث تتكرر أسباب المعصية.

١٢. القرآن الكريم، سورة يوسف، الآيات 23-35. وحمل ابن كثير «إنه ربي أحسن مثوأي» على سيد يوسف الذي أحسن إقامته، وفسر رده بما يجمع الاستعاذة بالله واجتناب خيانة من أحسن إليه. لم يدخل المتن تعبيراً لـ«برهان ربه» لم يعينه النص القرآني.

ويبين السعدي أن صبر يوسف هنا صبر اختيار مع وجود الدواعي، بخلاف ما يصيب الإنسان قهراً فلا يجد إلا الصبر عليه. قدم طاعة الله، واستعان به على ما يضعف عنه البشر. فليست القصة عن إنسان لا يعرف معنى الامتحان، وإنما عن عبد حفظه الله، فاختر ما يرضيه حين خالف ذلك ما يُراد منه.^{١٣}

وهذا هو موضع المراقبة الذي نحتاج أن نفهمه. الأبواب قد تحجب العمل عن الناس، لكنها لا تحجبه عن الله. وقد يتاح للمرء طريق يبدو سهلاً، وتوجد حوله أسباب تبرره، ثم يبقى في قلبه علم بأنه محرم. ليس السؤال عندئذٍ: من سيعرف؟ بل: كيف ألقى الله باختيار أعرف حقيقته؟ هذه المعرفة هي التي تمنع الفرصة من أن تصبح حجة.

وللاستعانة صدق يظهر في الفعل. من استعاذ بالله ثم استمر يهيئ أسباب السقوط وهو قادر على تركها احتاج إلى مراجعة. أغلق ما يجرك إلى الحرام، واخرج من حديث تجاوز حده، وغيّر ترتيباً تعلم أنه يضعفك. لا تختبر نفسك بالبقاء قريباً من النار لتثبت أنك قوي؛ قوة العبد في استعانته بربه وفي أخذه بسبب السلامة.

وقد تكون الفتنة أقل شهرة من هذه القصة: مبلغاً يستطيع موظف تحويله إلى نفسه، أو معلومة خاصة يستطيع أن يستغلها، أو علاقة يعلم أنه يتدرج فيها إلى ما لا يحل. يبدأ الخل أحياناً صغيراً، ثم تصبح العودة أثقل لأن الإنسان صنع لنفسه أعذاراً كثيرة. انتفع بأول تذكير، قبل أن تتحول الرغبة إلى عادة تدافع عنها.

١٣. عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير سورة يوسف، الآيات 23-34؛ المراودة والاستعصام والدعاء.

وفي بيان يوسف براءته درس للمظلوم. لم يكن إحسانه لربه أمراً بالسكوت عن اتهام باطل. ذكر الحقيقة، وظهرت القرينة. يمكنك أن تدفع عن نفسك وتطلب حَقَّك، من غير كذب ولا افتراء على خصمك. حفظ السمعة بالحق ليس رياء، كما أن ترك الشكوى ليس شرطاً لقبول كل صبر.

وتخبرنا القصة أيضاً أن فعل الصواب لا يضمن نهاية سهلة عاجلة. سُجن يوسف بعد ظهور ما يدل على براءته. لا نَعُد كل من ترك معصية بأن تختفي مشكلته في اليوم نفسه، لكن نؤمن أن حفظ الدين خير، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين. بهذا لا يكون ثباتنا عقداً نشترط فيه راحة فورية ثم نتراجع إذا لم تأت.

وحين تقول: لا أستطيع، فتذكر دعاء يوسف في الآية الثالثة والثلاثين؛ أظهر حاجته إلى أن يصرف الله عنه الكيد. الحاجة إلى العون ليست عيباً. اعترف بالضعف، واطلب المساندة الأمانة عند الحاجة، واتخذ قراراً عملياً يقطع السبب. لا تمنح اليأس حق تقرير مستقبلك؛ قد يبدأ الانصراف عن ذنب باعتراَف صادق أنك لا تريد أن تبقى وحدك أمامه.

والذي يُعين غيره على العفة لا يسخر من حاجته إلى الاحتياط، ولا يختبره بما يخافه. كن له عوناً على الخروج من الدائرة، لا صوتاً يقول إن الأمر هين ثم يتركه لتبعاته. ليست التربية أن نكثر الاتهام؛ بل أن نعرف موضع الخطر، ونحفظ كرامة من يريد الرجوع، وندله على عمل يستطيع أدائه.

بدأ موقف يوسف بالاستعاذة بالله، ولم تبق الاستعاذة كلمة وحدها.
لحقها امتناع، وسعي إلى الباب، وصدق، ودعاء. هذا ما نأخذه إلى
حياتنا: نستعيذ بالله، ثم نفعل ما يصدق استعاذتنا، ونرجو حفظه في
السر والعلن.

مريم حين استعادت

قال الله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾. [مريم: ١٦].
﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.
[مريم: ١٧].

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾. [مريم: ١٨].
﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾. [مريم: ١٩].
﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾. [مريم: ٢٠].
﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئٌ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا
وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾. [مريم: ٢١].^{١٤}

يعرض النص القرآني الموقف كاملاً: اعتزال مريم عليها السلام أهلها، واتخاذها الحجاب، وتمثل الملك لها بشراً سويًّا، ثم استعادت بالرحمن قبل أن تعرف أنه رسول ربها. لم يمنعها انفرادها أن تتكلم بما يحفظها، فجمعت الاستعاذة بالله إلى تذكير من أمامها بالتقوى. ثم جاء البيان والبطارة، وسألت عن الأمر العجيب سؤالاً حفظ القرآن لفظه، فأخبرت بقدرة الله وحكمته.

^{١٤} القرآن الكريم، سورة مريم، الآيات 16-21. وفي تفسير ابن كثير أن «روحنا» في الآية 17 هو جبريل عليه السلام، وأن استعاذة مريم في الآية 18 سبقت معرفتها بأنه رسول ربها.

ويشرح السعدي استعاذتها بأنها جمعت الاعتصام بالله وتذكير المخاطب بلزوم التقوى. لم ترَضْ أن يكون البعد عن الناس إذناً بالتعرض لها، ولم تحتج إلى أن تعرف نهاية الموقف حتى تقول ما يصونها. كان رجوعها إلى ربها حاضرًا في أول ما واجهت.^{١٥}

هذا المعنى يربي في القلب قوة هادئة. ليست العفة سكونًا لا يقدر صاحبه على الرفض، وليست الاستعاذة بديلًا عن دفع الأذى. من حق الإنسان أن يحفظ حدوده، وأن يخرج من موقف مريب، وأن يستعين بمن يدفع عنه الضرر. المراقبة تعينه على فعل ما يرضي الله، ولا تطلب منه تعريض نفسه لما يخافه كي يبدو ثابتًا.

وقد يضغط بعض الناس على غيرهم باسم الثقة: لماذا تتحفظ؟ ألسنت تعرفني؟ فيستحي المرء من أن يصرح بما يريده من حدود. ولكن الحياء لا يوجب طاعة من يتجاوز. تستطيع أن تكون مهذبًا وواضحًا، وأن تقول لا دون خصومة، وأن تنهي ما لا ترتاح إلى مشروعيته حتى تسأل وتتبين. رضا الله أحق أن يطلب من رضا من يستثقل احتياطك.

ويعلمنا اختيارها الاستعاذة بالرحمن ألا نحبس أسماء الله في معنى الخوف وحده. تستعيز بمن له الرحمة، فتطلب الحفظ والعون. ومن عرف رحمة الله لم يجعل حيائه سببًا للصمت عن حاجته. يدعوه في سره، ويطلب النجاة مما يؤذيه، ويحسن الظن به، مع أداء ما يستطيع من الأسباب.

١٥. عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير سورة مريم، الآيات 16-21؛ استعاذة مريم بالرحمن.

وفي جهة أخرى من الموقف تذكير لكل من يملك أن يؤذي: التقوى ليست ما تصفه عن نفسك، وإنما ما يمنعك عند القدرة. إذا ذكرك إنسان بالله فلا تتخذ ضعفه فرصة. احفظ حرمة، ولا تساومه على راحته أو ماله أو كرامته. ليس حسن كلامك عن الدين تعويضاً عن تجاوز تعلم أنه يؤلمه.

وقد تظهر المراقبة في مواقف يومية لا تحمل خطراً كبيراً: حديث خاص تحفظ حدوده، ومزاح تتراجع عنه حين يتبين أنه يؤذي، وصورة لا ترسلها بغير إذن، ومعلومة لا تستغلها لقرب صاحبها منك. هذه أعمال تتعلم بها النفس أن الثقة أمانة، لا منفذ إلى أخذ ما لا تستحق.

ولا تجعل قصة مريم معياراً لقسوة على مبتلى أو متأذ. إذا تعرض إنسان لظلم فالمسؤولية على من ظلمه، وليس علينا أن نستخرج من اضطرابه تهمة لحيائه أو إيمانه. نقرأ القصة لتتعلم الفضيلة، لا لنعاقب بها من يحتاج إلى الحماية. الرحمة بالمتضرر وحفظ حقه أقرب إلى مقصود الشريعة من تتبع ما كان يستطيع فعله في ساعة خوف.

ومن جمال هذا الخبر أن الكرامة جاءت من الله، لا من تصنع الصورة أمام المجتمع. كانت مريم بعيدة عنهم في هذا اللقاء، وربها يعلم حالها. وقد يجهل الناس خيراً فيك، أو يسيئون فهم موقف، فلا تجعل جهلهم سبباً لترك ما تعرفه من الحق. بين ما يلزم بيانه، ثم لا تتعلق بكل حكم يمر على ألسنتهم.

واسأل الله أن يرزقك عفة تحفظ القلب والجوارح، وبصيرة تعرف بها ما يجوز وما لا يجوز، وشجاعة في قول كلمة صحيحة عند الحاجة. ليست الفضيلة ادعاء سلامة من كل ضعف، وإنما الاستعانة بالله والبعد عما يفسد، والرجوع الصادق إن وقع تقصير. القلوب تُربى بالفعل الذي تختاره مرة بعد مرة.

استعازت مريم، فسجل القرآن كلمتها. ونحن نقرأها فنتعلم أن الخلوة لا تُخرجنا من علم الله، وأن حاجتنا إلى رحمته لا تنقطع بغياب البشر. ليكن لنا من هذا العلم ما يحفظ حدًّا، ويرد أذى، ويقربنا إلى الله بعمل صادق.

إني معكما أسمع وأرى

﴿اذهبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾. [طه: ٤٣].
 ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾. [طه: ٤٤].
 ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾. [طه: ٤٥].
 ﴿قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ ۖ وَارْأَىٰ﴾. [طه: ٤٦].
 ﴿فَاتَّبَعَاهُ فَيَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا ۖ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾. [طه: ٤٧].
 ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾. [طه: ٤٨].^{١٦}

يعرض النص القرآني المشهد كاملاً: تكليف موسى وهارون عليهما السلام بالذهاب إلى فرعون، والأمر بالقول اللين مع بيان طغيانه، ثم إظهارهما ما وجدا من خوف، فجواب ربهما الذي يسكن القلب، وبعده صيغة البلاغ وما فيها من مطالبة بإرسال بني إسرائيل وترك تعذيبهم، وإنذار من كذب وتولى. لا يختزل السياق الخوف في لحظة، ولا الوعد في جملة منفصلة عن التكليف والبلاغ.

في هذه الآيات لا نجد خوفاً يُخفى حتى لا تنقص صورة صاحبه، ولا شجاعة تقوم على نسيان الخطر. نجد عبيد يدعون، ووعداً من الله بالحفظ والرعاية، وأمرًا بالبلاغ واللين. السمع والبصر ثابتان لله على ما يليق به، والمعية في هذا السياق تتضمن نصره وحفظه لرسوله؛ ليست حلولاً في موضعهما ولا تمثيلاً بمعية المخلوقين.

١٦. القرآن الكريم، سورة طه، الآيات 43-48؛ وفسر ابن كثير المعية في الآية 46 بالحفظ والنصر والتأييد.

ويبين السعدي في معنى الآيات أن القول اللين قول سهل لطيف، لا فحش فيه ولا غلظة، وأن وعد الله لموسى وهارون بحفظه ورعايته أزال عنهما الخوف وطمأن قلوبهما. فالحق الذي يحملانه لا يبيح سوء الوسيلة، وقوة الحجة لا تحتاج إلى قسوة تضيع معها منفعة الدعوة. المراقبة تضبط ما نقوله وكيف نقوله، حتى حين نتحدث إلى من نعلم خطأه وطفيلانه.^{١٧}

وهذا درس لمن يظن أن إخلاصه للحق يعفيه من محاسبة لسانه. قد تنصح قريباً فتجرحه بما لا يحتاج إليه البيان، أو تعالج خطأ موظف فتذله أمام غيره، ثم تقول إنك لا تقصد إلا الإصلاح. راقب الله في القصد، وراقبه في الطريقة. يمكن أن تكون حازماً في منع الضرر، واضحاً في الحكم، من غير زيادة ظلم أو تشفٍّ.

وفي اعتراف موسى وهارون بالخوف رحمة بمن يحمل مسؤولية شاقة. ليس كل تردد جبناً، ولا كل سؤال عن وسيلة الحفظ نقصاً في الإيمان. قد يحتاج الإنسان إلى مشورة أو ترتيب أو من يقف معه. يطلب ذلك وهو يرجو ربه، ولا يخجل من أنه بشر. الذي يكلفه بعمل يعلم استطاعته، ولم يأمره أن يدعي ما ليس فيه.

ولعلنا نحتاج إلى سماع حاجات من يعملون معنا قبل أن نطالبهم بنتائج. الابن الذي يخشى اعترافاً، والموظف الذي يواجه ظلاماً، والداعي الذي يقلق من رد فعل، لا ينتفعون جميعاً بالأمر المجرد: كن قوياً. اسمع ما يقولون، وبيّن لهم ما يستطيعون، ولا تعدهم بسلامة لا تملكها. الصدق في العون خير من كلمات كبيرة تتركهم وحدهم بعد انصرافها.

١٧. عبد الرحمن السعدي، تفسير الكريم الرحمن، تفسير سورة طه، الآيات 43-48؛ إرسال موسى وهارون إلى فرعون.

لكن معرفة الخوف لا تعني الاستسلام له في كل أمر. ما كان واجباً علينا أديناه بحسب الاستطاعة وبوسيلته المشروعة. نختار الوقت المناسب، ونتعلم الحجة، ونحفظ الحقوق، ثم لا نجعل احتمال كراهية الناس عذراً دائماً للسكوت عن كل خير. الفرق بين الحكمة والهرب قد يحتاج إلى سؤال صادق لا يجيب عنه حب الراحة وحده.

وتخص القصة نبين بوعدهما من ربهما، فلا يملك إنسان بعدهما أن ينسب إلى الله ضمناً لنتيجة معركة أو خصومة من عند نفسه. الذي نأخذه هو العلم بالله، والالتجاء إليه، واتباع أمره. أما تفاصيل الغد فلا نعلمها. المراقبة تحفظ القلب من القول على الله كما تحفظه من الخوف الذي يعطل الواجب.

قد يكون تطبيقك اليوم في مجلس عائلي. تريد أن تقول حقاً، وتخشى أن يغضب من يسمعه. حُضِر قولاً واضحاً لا يهين، وتثبت مما تنسبه، واجعل مقصدك إصلاح الخطأ لا الانتصار في المجلس. فإذا غضب المخاطب، فلا تدع غضبه يجرك إلى باطل. أنت مسؤول عما اخترت قوله، لا عن حمل القلوب جميعاً على قبولك.

وقد تكون في موضع من يحتاج أن يسمع النصيحة. لا تجعل منصبك سبباً لإخافة من يقول لك الحق، ثم تشتكي أن أحداً لا ينصحك. من صور مراقبتك لله أن تفتح باباً يستطيع فيه الضعيف أن يبين حقه من غير أن يخشى العقوبة. حسن السماع خلق يحتاج إليه القوي أكثر مما يظن.

والعلم بأن الله يسمع ويرى يعينك وأنت تدعو، ويضبطك وأنت تتكلم،
ويذكرك وأنت تسمع. لا تستعمل الحق لإذلال الخلق، ولا تستعمل
خوفك منهم لإسقاط حق الله. بين الأمرين عبودية تحتاج إلى علم
ورفق وشجاعة واستعانة.

مضى موسى وهارون إلى ما أمراً به، وقد علّمنا القرآن ما قالاه وما
أجيباً به. فلنحمل من الخبر صدق الشكوى إلى الله، والحرص على
القول الحسن، والثبات على أداء ما نعلمه واجباً. ليس نصر الحق في
ارتفاع أصواتنا، بل في إخلاصنا واتباعنا وحسن ما نستطيع عمله.

في الغار، لا خارج العناية

خبر عائشة رضي الله عنها في الهجرة^{١٨}

لَمْ أَغْلِ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَفِي النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الْحَبَشَةِ، حَتَّى بَلَغَ بَرَكَ الْغَمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغْنَةِ وَهُوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ. فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الْأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّي. قَالَ ابْنُ الدَّغْنَةِ فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ، إِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكُلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَأَنَا لَكَ جَارٌ، ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ. فَرَجَعَ وَارْتَحَلَ مَعَهُ ابْنُ الدَّغْنَةِ، فَطَافَ ابْنُ الدَّغْنَةِ عَشِيَّةً فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ، أَنْخَرِجُونِ رَجُلًا يَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الْكُلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ فَلَمْ تُكْذَّبْ قُرَيْشٌ بِجَوَارِ ابْنِ الدَّغْنَةِ، وَقَالُوا لِابْنِ الدَّغْنَةِ مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيَصِلْ فِيهَا وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلَا يُؤْذِنَا بِذَلِكَ، وَلَا يَسْتَغْلِبْ بِهِ، فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا. فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغْنَةِ لِأَبِي بَكْرٍ، فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلَا يَسْتَغْلِبُ بِصَلَاتِهِ، وَلَا يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَأَ لِأَبِي بَكْرٍ فَاِبْتَنَى مَسْجِدًا بِفَنَاءِ دَارِهِ وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقُذُ عَلَيْهِ نِسَاءَ

١٨. عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، حديث 3905؛

الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ
 رَجُلًا بَكَاءً، لَا يَمْلِكُ عَيْنِيهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ
 مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ. فَقَالُوا إِنَّا كُنَّا
 أَجْرُنَا أَبَا بَكْرٍ بِجَوَارِكَ، عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ،
 فَأَبْتَنَى مَسْجِدًا بِفَنَاءِ دَارِهِ، فَأَعْلَنَ بِالصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ فِيهِ، وَإِنَّا قَدْ
 خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا فَانْهَهُ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَفْتَصِرَ عَلَى أَنْ
 يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلْ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ بِذَلِكَ فَسَلِّهِ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ
 ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِكَ، وَلَسْنَا مُقَرَّرِينَ لِأَبِي بَكْرٍ الْإِسْتِعْلَانِ.
 قَالَتْ عَائِشَةُ فَأَتَى ابْنُ الدَّغِنَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي
 عَاقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي،
 فَإِنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنَّي أَخْفَرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ. فَقَالَ
 أَبُو بَكْرٍ فَإِنِّي أُرِدُّ إِلَيْكَ جَوَارِكَ وَأَرْضِي بِجَوَارِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَالنَّبِيُّ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لِلْمُسْلِمِينَ " إِنِّي أَرَيْتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَحْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ ". وَهُمَا
 الْحَرَّتَانِ، فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قَبْلَ الْمَدِينَةِ، وَرَجَعَ عَامَّةٌ مَنْ كَانَ هَاجَرَ
 بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قَبْلَ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ
 لِي ". فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ قَالَ " نَعَمْ ". فَحَبَسَ
 أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُضَحِّبَهُ، وَعَلَفَ
 رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمْرِ وَهُوَ الْخَبَطُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ. قَالَ ابْنُ
 شِهَابٍ قَالَ عُرْوَةُ قَالَتْ عَائِشَةُ فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي
 بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ هَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَقَنَّعًا - فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا - فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ فِدَاءُ

لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللَّهُ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ. قَالَتْ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي بَكْرٍ " أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ ". فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ " فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ ". فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصَّحَابَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " نَعَمْ ". قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَخُذْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " بِالْثَمَنِ ". قَالَتْ عَائِشَةُ فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحْتَّ الْجَهَّازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى قِمِّ الْجِرَابِ، فَبَذَلَتْ سُمَيَّةُ ذَاتُ النَّطَاقِ - قَالَتْ - ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ بَغَارٍ فِي جَبَلٍ ثَوْرٍ فَكَمْنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ نَقْفٌ لَقِنٌ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدَهُمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاةً، حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ يَذْهَبُ سَاعَةً مِنَ الْعِشَاءِ، فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلِ وَهُوَ لَبَنٌ مِنْحَتُهُمَا وَرَضِيفُهُمَا، حَتَّى يَنْعَقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بَغْلَسٍ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدَّيْلِ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيِّ هَادِيًا خَرِيَّتًا - وَالْخَرِيْتُ الْمَاهِرُ بِالْهَدَايَةِ - قَدْ غَمَسَ حُلُقًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَهُوَ عَلَى

دِينَ كُفَّارٍ قُرَيْشٍ فَأَمَنَاهُ، فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاِحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ بِرَاِحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالِدَلِيلُ فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَا حِلٍ.

قول أبي بكر رضي الله عنه في الغار^{١٩}

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا».

الآية من سورة التوبة

﴿إِلَّا تَنْصَرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. [التوبة: ٤٠]

في خبر الهجرة عملٌ منظم: إعداد راِحلتين، وتجهيز الزاد، والاستعانة بدليل خبير، وتوزيع المهام بين من ينقل الخبر ومن يأتي بالطعام. لا تعرض الرواية هذا التدبير بوصفه نقصاً في التوكل؛ بل تروي فعلاً بشرياً مسؤولاً يجتمع مع الاعتماد على الله.

١٩. أبو بكر الصديق رضي الله عنه، صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، حديث 3653؛ والآية كاملة من سورة التوبة، 40.

ثم جاء قول أبي بكر رضي الله عنه وهو يرى قرب المطاردين، فجاءه جواب النبي ﷺ يردّ القلب إلى الله. وتتمة الآية تذكر إنزال السكينة والتأييد والنصر؛ فالمعنى في سياقها معية حفظ ونصر، لا حلول في المكان.

ولا تعني هذه القصة أن كل خطة يتبعها المؤمن تضمن له النتيجة التي يريدها، ولا أن المؤمن لا يخاف. فيها موقف مخصوص لنبي الله وصاحبه، وخبر عن حفظ الله لهما. أما نحن فنأخذ بالأسباب المشروعة، ونسأل الله العون، ولا ندعي معرفة ما سيقع.

قد تمرّ بخصومة أو قرار تنتظر نتيجته. افعل ما تقدر عليه من إعداد، واستشر من يحسن الأمر، واحفظ ما أوثمت عليه، ثم ادع الله من غير أن تخلط الرجاء بتوقعك الشخصي. يقيّنك بالله لا يعني أنك تملك النتيجة؛ يعني أنك تلجأ إلى من يملكها.

وتذكر الرواية أن للصحة والعمل وجوهاً لا تتصدر المشهد: من يهيئ الزاد، ومن ينقل الخبر، ومن يرعى ما يحتاجه المسافرون. لا تُقاس قيمة خدمة الخير بظهور اسم صاحبها؛ أحسن ما أوثمت عليه، وافرح بتمام النافع، ولا تفسد عمل الجماعة طلباً للثناء.

وفي الاستعانة بأهل الخبرة أمانةٌ وحسن تقدير. لا يكفي قصد الخير إذا أهمل المرء ما يلزم لسلامته؛ التوكل لا يستر الجهل، والتخطيط لا يجعل صاحبه مستقلاً عن الله. يجتمعان حين يبذل الإنسان ما يقدر عليه، ويعلم أن أسباب البشر محدودة.

وفي الغار كانا مستترين عن أعين الناس، لا عن علم الله. وفي الطريق جرى ما أعدّاه من أسباب. نتعلم من الخبر أن نعمل بما نستطيع، ثم لا نعلّق قلوبنا بقدرتنا وحدها. فإذا صغرت الوسيلة في أعيننا، لم يصغر بها فضل الله.

دعاء في الظلمات

قال الله تعالى في خبر يونس عليه السلام:

﴿وَذَا الثُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. [الأنبياء: ٨٧]
 ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾. [الأنبياء: ٨٨].

٢٠

وفي الآية المذكورة فسر ابن كثير الفعل هنا بمعنى التضيق؛ فلا تُحمل الآية على نفي القدرة عن الله. نقرأ لفظها في سياقه، ونقف عند ما جاء به الوحي من غير أن نضيف إلى خبر نبي الله تفاصيل لا تثبت. في الآيتين انتقال من الدعاء في الشدة إلى الإجابة والنجاة. بدأ النداء بتوحيد الله: «لا إله إلا أنت»، ثم تنزيهه: «سبحانك»، ثم الاعتراف: «إني كنت من الظالمين». اجتمعت في هذه الكلمات معرفة بالله، وأدب معه، وإقرار بحاجة النفس إلى عفوه.

والمراقبة تعيننا على الاعتراف قبل أن يتسع الخطأ. نعرف من أنفسنا أحياناً ما نحاول نسيانه: كلمة قلناها ظلماً، أو حقاً أخذناه، أو تكليفاً قصرنا فيه. يطول الدفاع عن الصورة حتى نصير أبعد عن العلاج. وحين نتذكر أن الله يعلم الحقيقة، لا يعود التبرير أمام الناس قادراً على إصلاح ما بيننا وبينه.

٢٠. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الأنبياء، الآيتان 87-88. «لن نقدر عليه»: لن نضيق عليه، لا الشك في قدرة الله.

ليس الاعتراف أن تفضح نفسك لكل أحد. هو أولاً صدق مع الله، يتبعه ترك الذنب وإصلاح ما يمكن إصلاحه. وما تعلق بحق إنسان رددته أو طلبت الإبراء منه بما يحفظ الحق. الخلوة الصادقة ليست ملجأ نخفي فيه المظلمة، بل موضعاً نقرر فيه ألا نستمر عليها.

وقد يحتاج المبتلى إلى دعاء لا يحمل فيه تفاصيل كثيرة. يفهم أن الرجاء مفتوح، وأنه لا يجب أن يصبح كاملاً حتى يعود. لكن لا نحول الدعاء إلى عدد مخترع نضمن به وقت الفرج، ولا نجعل خبر نبي جدولاً لتفاصيل حياتنا. ندعو بما علمنا الله، ونرجو ما وعد، ونترك تعيين ما اختص بعلمه.

ذكر القرآن تسبيح يونس ونجاته، ثم إرساله إلى قوم آمنوا. لم تقف حياته عند لحظة الشدة. من أخطأ ثم رجع لا يجعل الخطأ اسمه الوحيد إلى آخر العمر؛ يتعلم منه، ويستغفر، ويصلح، ثم يستأنف ما يقدر عليه من الخير. بقاء الندم النافع غير الاستسلام لاحتقار النفس الذي يقطع العمل.

وربما لم تكن شدتك بسبب ذنب معين تعلمه. فلا تلزم نفسك أن تخترع جناية لتفسر ما أصابك، ولا تجزم بأن مصيبة إنسان عقوبة على أمر تظنه فيه. يدعو المؤمن ويستغفر في جميع أحواله، ويصلح ما يعلم من تقصيره، دون دعوى علم بالأسباب الغيبية لكل حادثة. ومن الأدب مع الله ألا نقول عليه ما لا نعلم.

ومع الدعاء تبقى الأسباب المشروعة التي تقدر عليها. من عنده مشكلة قابلة للإصلاح لا يترك السؤال والعمل، ومن يحتاج إلى عون لا يخل من طلبه ممن يقدر على إعانته. يلجأ القلب إلى الله، وتمتد اليد إلى سبب أذن به. لا تجعل الاستعانة بالبشر فيما يقدرون عليه خصماً لتوحيدك، ولا تجعل قدرتهم كل ما تعتمد عليه.

وإذا ائتمنتك إنسان على اعترافه، فكن أميناً عليه. لا تستعمل ما قاله ليبقى خاضعاً لك، ولا تنشره بحجة التحذير من غير حق. قد يعينك الله على أن تكون سبباً في خروجه من ذنب، فلا تحول ضعفه إلى منزلة لك. وما تحتاجه أنت من ستر الله يذكرك بحقوق من وثق بك. لا تغلق الشدة باب الدعاء. قد تضيق بك الأسباب، أو يثقل عليك ذنب، أو تعجز عن عبارة طويلة؛ فابدأ بتوحيد الله وتنزيهه والاعتراف بالتقصير، ثم خذ بما تستطيع من إصلاح. ليس في هذا ذل للناس، بل عبودية لمن بيده الخير كله.

وصية بحبة خردل

في وصية لقمان لابنه نداء قريب، ونهي عن الشرك، ثم يأتي كلام الله عن حق الوالدين، وتعود وصية لقمان إلى ما قد يستصغره المرء من عمل. نقرأ السياق كما جاء، قبل أن نقف عند حبة الخردل:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. [لقمان: ١٣].

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾. [لقمان: ١٤].

﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. [لقمان: ١٥].

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾. [لقمان: ١٦].

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾. [لقمان: ١٧].

﴿وَلَا تُصْعَرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. [لقمان: ١٨].

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾. [لقمان: ١٩].

حبة صغيرة، وفي موضع لا يقدر الناس على الوصول إليه بسهولة، لا تغيب عن الله. لا نحتاج إلى تعيين صخرة خفية أو بناء حكايات عن موضعها؛ المقصود إحاطة العلم وكمال القدرة على إحضار العمل وإن دق وخفي. يذكر ابن كثير هذا المعنى، ويبين السعدي أن فيه حثًا على المراقبة والطاعة، وتحذيرًا من القبيح قل أو كثر.^{٢١ ٢٢}

ثم لم يتوقف لقمان عند التذكير بالخفي. أوصى ابنه بإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على ما يصيبه. ونهاه عن الإعراض عن الناس تكبرًا، وعن المشي في الأرض مرحًا، وأمره بالقصد في المشي وخفض الصوت. انتقلت الوصية من حبة قد لا تراها عين إلى هيئة يلقيها بها الناس وصوت يسمعون.

بهذا يظهر ترابط القلب والحياة. العلم بأن الله يعلم الصغير ليس فكرة نحفظها وحدها؛ ينبغي أن يبلغ صلاتنا وطريقة كلامنا ونظرنا إلى الناس. قد يخشى الإنسان معصية في خلوة، ثم يستسهل الاستعلاء على ضعيف في مجلس. والوصية تجمعهما: حق الله، وحق الخلق، وخفي العمل وظاهره.

ما الذي نستصغره نحن؟ مبلغ يسير نحفظ به لأنه لا يضر صاحبه كثيرًا، أو دقيقة من حق العمل نتساهل فيها على الدوام، أو كلمة عن غائب نقول إنها عابرة. ليست جميع الأخطاء على درجة واحدة، لكن صغر الشيء في نظرنا لا يعطيه حكم الإباحة. حين يتكرر التساهل تصير الحجة هي العادة، لا الحق الذي ينبغي أدائه.

٢١. القرآن الكريم، سورة لقمان، الآيات 13-19؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية 16.

٢٢. عبد الرحمن السعدي، تفسير القرآن العظيم، سورة لقمان، الآيات 13-19.

وفي الجانب الآخر خير صغير قد تحتقره: إفساح الطريق لمتعّب، أو إصلاح شيء مشترك دون إعلان، أو ردّ كلمة تنقص من إنسان. الله لا يخفى عليه ذلك. فلا تجعل تفكيرك في الأعمال الخفية مقتصرًا على الخوف؛ فيه أيضًا رجاء أن يكون للمعروف الذي لا يذكره أحد قدر عنده، وأن يبارك في القليل الصادق.

ومن حكمة التربية أن تتصل المعرفة بالسبب. لم يقل لقمان افعل ولا تفعل دون بيان؛ ذكر عظمة ظلم الشرك، وإحاطة علم الله، وما يحب سبحانه وما لا يحب. حين نفهم لماذا نستقيم، يسهل أن يبقى أصل الاستقامة معنا عند غياب من يوجهنا. أما من لا يعرف إلا الخوف من عقوبة والده، فقد ينقطع هذا الدافع حين يبتعد عنه.

وهنا يحتاج المربي إلى مراقبة نفسه قبل مراقبة الطفل. لا تستعمل اسم الله لتجعل كل رغباتك أوامر دينية، ولا تنسب إليه تهديدًا لم يدل عليه نص. علّم حدود الحلال والحرام كما هي، وقل في اختيارات البيت إنها تنظيم أو مصلحة تراها. الصدق في التربية يحفظ ثقة الصغير بدينه، ولا يجعل نمو فهمه سببًا لاكتشاف مبالغات كثيرة.

ويحتاج إلى القرب كذلك. نداء الابن الحبيب في الوصية ليس تهويًا للأمر؛ معه نهى عن أعظم ظلم، ووصية بتكاليف جادة. الحميمية لا تناقض الحزم، والرفق لا يعني أن نترك الحق غامضًا. يستطيع الأب أو المعلم أن يشرح بهدوء، ويعيد البيان، ويطلب العمل، من غير إنذال يجعل المعنى الصحيح مكروهًا بسبب طريقته.

وقد تكون أنت المتعلم بعد أن كبرت. لا تستغني عن وصايا واضحة بحجة أنك تجاوزت سن التوجيه. راجع صلاتك، ونبرة صوتك، وما تشعر به حين يختلف معك من هو أقل خبرة أو مالاً. قد يظهر الاحتياج إلى التواضع في حركة صغيرة تسبق كلاماً كثيراً عن سلامة القلب.

والأمر بالمعروف في وصية لقمان يصحبه الصبر. من أراد نفع غيره احتمل مشقة التعليم والاختلاف، وتعلم قبل أن يأمر، ورفق عند البيان. لا تكفي حرارة الغيرة إذا جهل صاحبها المعروف أو جاوز في الإنكار. المراقبة تحفظه من أن تصبح الدعوة إلى الله وسيلة لتفريغ غضبه في الخلق.

خذ من الوصية عملاً محدداً لا مجرد إعجاب بالحكمة. ربما تصلح نبرة اعتادها أهلك منك، أو تؤدي حقاً صغيراً سكت عنه صاحبه، أو تعلم ولدك آية وتشرحها بلا تخويف مخترع. لا تحتاج إلى إصلاح كل شيء في يوم واحد، لكن تحتاج أن تصدق في الخطوة التي عرفتتها.

حبة الخردل لا تضيع، وكلمة الأب لا تنفصل عن الصلاة والخلق. هذا ما تجمعها الوصية في القلب: الله يعلم، وأنا مسؤول عما أستطيع اختياره. فإذا صغر في عينيك خير فافعله، وإذا صغر ظلم فكف عنه؛ فصغره عندك ليس حداً لعلم الله ولا لعدله.

ليلة صلى فيها حذيفة

عن حذيفة رضي الله عنه قال:

«صَلَّيْتُ مع النَّبِيِّ ﷺ ذاتَ ليلةٍ، فافتتح البقرة، فقلتُ: يركعُ عند المائدة، ثم مضى، فقلتُ: يصلي بها في ركعةٍ، فمضى، فقلتُ: يركعُ بها، ثم افتتح النساءَ فقرأها، ثم افتتح آل عمرانَ فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآيةٍ فيها تسبيحٌ سَبَّحَ، وإذا مر بَسْؤَالٍ سَأَلَ، وإذا مر بتعوذٍ تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريباً من قيامه».^{٢٣}

أول ما يلفت النظر طول العبادة، لكننا نفوّت جانباً عظيماً إذا وقفنا عند المقدار وحده. كان يقرأ مترسلاً، ويتفاعل مع المعنى بالدعاء والتسبيح والاستعاذة. لم تكن الغاية أن يبلغ آخر السورة بأسرع طريق، وإنما تلاوة يجتمع فيها اللسان والقلب والعمل. وحضور هذا المعنى ينفع من لا يقدر على مثل ذلك الطول.

قد تقرأ سوراً تحفظها، ثم يكون همك أن تنتهي. تعرف متى تقارب الخاتمة، ولا تعرف عند أي معنى وقفت. تجربة حذيفة تفتح سؤالاً ألطف: ماذا تقول لي الآيات التي أقرأها؟ أين الثناء، وأين الرجاء، وأين ما يدعوني إلى الاستعاذة؟ فهم القليل على مهل خير من أن نجعل علاقتنا كلها بالعدد دون عناية بالدلالة.

٢٣. صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، حديث حذيفة رضي الله عنه، رقم 772.

ولكل مقام أحكامه. ما وصفه حذيفة صلاة ليل، ولا نجعل طولها تكليفاً لكل مصلٍّ أو إمام يشق على من خلفه. نتعلم منها إحسان القيام بحسب الاستطاعة، ونرجع إلى السنة في مراعاة أحوال الناس. قد يكون إحسانك وأنت تصلي وحدك في إطالة تستطيعها، ويكون إحسانك إماماً في تخفيف يحفظ تمام الصلاة ولا يثقل على ضعيف. وفي الركوع والسجود تعظيم لله. لا يكفي أن نطيل القيام ثم نعجل بالأركان الباقية كأنها فواصل لا معنى لها. للجسد عبودية في خضوعه وطمأنينته، وللقلب عبودية في تعظيم ربه. وإذا اجتمعاً كان العمل أقرب إلى الإحسان الذي شرحه حديث جبريل؛ ليس هيئة بلا قصد، ولا قصداً يبرر إفساد الهيئة.

قد يعينك قبل الصلاة أن تقرأ تفسير آيات قليلة ستتلوها. لا تجعل ذلك شرطاً مصطنعاً للصلاة، ولكنه سبب للفهم. كلمة واحدة كنت ترددها من غير علم قد تفتح لك المعنى حين تعرفها، فتكون صلاتك أهدأ لأنك لا تمر على كلام لا تفهمه. والتعلم هنا رفيق العبادة لا منافس لها.

ومن المراقبة أن تحفظ حق جسدك وحق من يلزمك حقه. لا تكلف نفسك بداية لا تطيق دوامها، ثم تترك الخير كله. اجعل لك من النافلة ما تستطيع مع الفرائض والواجبات، وازدد حين تتسع قدرتك. ما نتعلمه من كمال عبادة النبي ﷺ يدعونا إلى الاجتهاد، لا إلى حساب قانس ينتهي بالعجز والإعراض.

وحين تصف عبادتك، احذر أن يصبح الوصف شاغلك عن العمل. قد تتعلم فائدة فتحب أن يراك الناس تعمل بها، فيسبق الإعلان الممارسة. ابدأ بينك وبين ربك، وعلم غيرك ما تعلمت إذا نفعه ذلك، دون أن تجعل نفسك بطل الحديث. مجلس حذيفة بقي نافعاً لأنه دل على النبي ﷺ وعلى صفة عبادته، لا على طلب الراوي منزلة لنفسه.

ولعل أثر هذه الليلة يمتد إلى قراءتك خارج الصلاة. تمر بآية رحمة فتسأل، وبآية وعيد فتتعوذ، وبخبر عن خلق الله فتسبح. لا تؤلف عبادات بمقادير مخترعة، ولكن دع المعنى الصحيح يوقظ الدعاء المشروع في قلبك. النص الذي تفهمه أقرب إلى أن يغير اختياراً في حياتك بعد أن تغلق المصحف.

وقد لا تنزل دمة، ولا تشعر بانفعال كبير، ومع ذلك تنتفع. احذر أن تجعل دموع غيرك شرطاً لصدق قراءتك. اسأل عن الفهم والعمل: هل اتضح لي حق؟ هل كففت عن ظلم؟ هل دعوت ربي بصدق؟ هذه ثمرات تحتاج إلى عناية، وربما كانت أهدأ من الصورة التي نبحت عنها.

وقف حذيفة خلف النبي ﷺ، فعرف من تلك الليلة أن التلاوة ليست انفصلاً عن الدعاء والتعظيم. ونحن نرجو أن نتعلم من خبره كيف نمهل الكلمة حتى نفهمها، والركن حتى نطمئن فيه، والقلب حتى يعود إلى من يقصد. ليست البداية بطول لا نطيقه؛ بل بعناية نصدق فيها ونستعين بالله على زيادتها.

قلب الأم الذي ثبته الله

في سورة القصص يمتد هذا السياق من الأمر إلى أم موسى بإرضاعه إلى رده إليها. نقرأ الآيات كما جاءت:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. [القصص: ٧].

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾. [القصص: ٨].

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْثُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. [القصص: ٩].

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. [القصص: ١٠].

﴿وَقَالَتِ لِأُخْتِهِ قُصِّيه فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. [القصص: ١١].

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾. [القصص: ١٢].

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. [القصص: ١٣].^{٢٤}

٢٤. القرآن الكريم، سورة القصص، الآيات 7-13؛ عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآيات.

تقرأ الخبر فتجد عناية الله بالطفل، وتجد عنايته بقلب الأم كذلك. الربط على القلب نعمة افتقرت إليها في شدة خوفها. لم ينسب القرآن ثباتها إلى قوة مستقلة فيها، ولم يجعل الأمومة عائقًا يزول إذا صح الإيمان. كانت تحب وتخاف، وربها يثبتها ويجري الأسباب التي رد بها ولدها.

ولذلك يحتاج حديثنا عن المراقبة إلى هذا الوجه من الرجاء. يعلم الله محاولتك أن تصبر، ويعلم ضعفك الذي لا تحب أن يراه الناس. لست مكلّفًا أن تعرض لهم وجهًا لا يتعب، ولا أن تصوغ كل يوم عبارة توحى بقوة كاملة. اسأله أن يربط على قلبك، ثم اعمل بما تستطيع من طاعة وسبب مشروع.

قد يرى الإنسان سببًا لا يفهمه في وقته، ولا يحيط بما يأتي بعده. لكننا لا نستخرج من هذا حقًا في تعيين الحكمة الغيبية لكل ما يقع للناس؛ نعرف ما أخبرنا الله به، ونتواضع في غيره.^{٢٤}

أما الأمر بإلقائه في اليم فوحي مخصوص لأم موسى، وليس قاعدة لتعريض الأطفال للخطر باسم التوكل. الذي يلزمنا رعاية من أوئمتنا عليه، والبحث عن سلامته، والدعاء له. لا نقيس قرارات نأخذها بأهوائنا على أمر خاص جاء من الله، ثم نجعل سلامة النية جوابًا عن التقصير في الحفظ.

٢٤. القرآن الكريم، سورة القصص، الآيات 7-13؛ عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآيات.

وفي سعي الأخت درس في العمل الهادئ. تابعت الخبر من غير أن تكشف ما يضر أخاها، ثم دلت على بيت يكفله. ليست كل نجدة صاخبة، ولا كل نفع يحتاج إلى إعلان. قد تصلح أمرًا بتصرف حازم قليل الكلام، أو تحفظ إنسانًا بأمانة تؤديها في وقتها. الله يعلم هذا الجهد وإن لم تتسع له رواية الناس عن الحدث.

وهذا معنى يحتاج إليه من يرعى مريضًا أو طفلًا أو كبيرًا. تتكرر الخدمة حتى يألّفها المحيطون، فلا يرون ما فيها من تعب. قد تشعر بوحدة في المسؤولية، لكنك تستطيع أن ترجو الأجر، وأن تطلب العون حين تحتاج إليه، وأن تنظم ما يحفظ قدرتك. احتساب التعب لا يمنع الراحة المشروعة ولا توزيع العمل بعدل.

ولا ينبغي أن يستعمل أحد رجاء الأجر ليتركك تحمل كل شيء وحدك. المراقبة تلزم المعين كما تلزم من يعان: إذا عرفت تعب قريبك فشارك بما تستطيع، ولا تكتفِ بأن تقول له إن الله يراه ثم تمضي مستريحًا. صدق التذكير يزداد حين يصحبه عمل يخفف عنه؛ وليس الكلام عن الصبر بديلًا عن أداء نصيبك من المسؤولية.

وقد يبتلى الإنسان بفراق لا يملك رده. لا نعهده بأن كل غائب سيعود كما عاد موسى، ولا أن كل أم ستري الصورة نفسها من الفرج. لكننا ندعو لها، ونذكرها برحمة الله وعدله، ونحفظ لها حق الحزن والصبر. القصص تمنحنا علمًا بالله، لا مواعيد نخترعها لحياة كل قارئ.

ومن بركة التأمل في هذه الآيات أن تعرف حاجتك إلى تثبيت الله في السعة قبل الشدة. لا تستكثر دعاء تسأله فيه قلبًا مستقيمًا، ولا تظن أن المعرفة وحدها تجعل الثبات مضمونًا. نتعلم ونعمل وندعو، ونشكر على كل مرة أعاننا فيها أن نكف عن باطل أو نؤدي حقًا ونحن متعبون.

رد الله الطفل إلى أمه، وذكر القرآن أنها قرت عينها. وبين أول الخوف وآخر الفرج كان ربها يعلم حالها كله. فلنحفظ هذا المعنى في قلوبنا: المراقبة خشية تحمل على الطاعة، ورجاء يردنا إلى من يعلم ضعفنا. لا نحتاج أن نكون أقوياء وحدنا؛ نحتاج أن نستعين بالله بصدق.

الباب الثالث: عبادة يحضر فيها القلب

تبدأ الصلاة بالتكبير، لكن حاجتنا إلى تعظيم الله لا تنتهي بانتهاء الكلمة. تتلو، وتركع، وتسجد، وتسأل؛ وفي كل ذلك تستطيع أن تعود بقلبك إذا شرد. ليس إحسان العبادة انتظاراً لانتباه لا ينقطع، بل عناية تتجدد، وعلم بما تصح به الطاعة، ورجاء في أن يتقبل الله ما أديت.

وقد نطلب العبادة الأشد لأنها أوضح في أعيننا، ونغفل عن الواجب الأقرب. لا تكون كثرة التطوع إصلاحاً إذا ضيعت حقاً لازماً، كما أن الرحمة بالنفس لا تعني أن نرضى بتضييع الفرائض. نحتاج إلى هدي يبين موضع الجهد وموضع الرفق، فلا نجعل أهواءنا هي التي تسمي التقصير اعتدالاً أو تسمي المشقة طاعة.

وحضور القلب لا يعزل العبادة عن التعلم. سؤال عن الطمأنينة في الصلاة قد ينفع أكثر من موعظة لا نفهم كيف نعمل بها، ودعاء ثابت نفهمه قد يفتح لنا من الرجاء ما لا تصنعه كثرة الكلام. فلنقبل على ما علّمنا رسول الله ﷺ، ولنطلب من الله أن يعيننا على حسن الاتباع.

صلاة تتعلم أن تتمها

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، فدخل رجل فصلّى، فسلم على النبي ﷺ، فرد وقال:

«ارجع فصل، فإنك لم تصل». فرجع يصلي كما صلى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ، فقال: «ارجع فصل، فإنك لم تصل» ثلاثاً. فقال: «والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره، فعلمي». فقال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راکعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، وافعل ذلك في صلاتك كلها».^{٢٥}

كان الرجل قد دخل في الصلاة فعلاً، وأدى حركات يعرفها، ثم تبين له أن أدائها على ذلك الوجه لم يكن كافياً. هذه حقيقة قد تؤلم النفس أول سماعها، لكنها تفتح باب خير إذا قُبِلت. لم يكن العلاج أن يجد عبارة تطمئنه إلى أن قصده الحسن يغني عن التصحيح. قال: علّمني. انتقل من فعل يظنه تآمراً إلى معرفة ما يلزمه ليطمئنه.

والمراقبة تحتاج إلى هذا الانتقال. فقد يحرص الإنسان على إحساس الخشوع، ويغفل عن ركن يؤديه على غير وجهه. وقد يتقن الأحكام إجمالاً، ثم يحمل عادته في السرعة إلى كل صلاة. إذا كنت تريد أن

٢٥. صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يُجهر فيها وما يُخافت، حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رقم 757.

تعبد الله كأنك تراه، فابدأ بأن تعرف كيف تعبد، وأن تمنح العمل الواجب حقه من العناية. لا يقوم صلاح القلب على التساهل المتعمد في صورة العبادة التي أمر بها الله.

جعل النبي ﷺ الطمأنينة ظاهرة في تعليمه؛ ليست حركة تلاحق حركة قبل استقرار الجسد. يركع المصلي فيطمئن راکعًا، ويرفع فيعتدل، ويسجد فيطمئن ساجدًا. ومن هذا التعليم نتعلم أن الصلاة لا تُقاس بسرعة الوصول إلى آخرها. قد تكون المشاغل حقيقية، وقد يضيق الوقت، لكن بعض استعجالنا عادة نحملها حتى إلى الأوقات التي لا يزاحمنا فيها شيء.

وليس المقصود أن تظل أثناء الصلاة تسأل: هل أدت كل حركة؟ ثم تعيد ما فعلت مرارًا. هناك فرق بين تعلم خطأ معلوم وتصحيحه، وبين الاستجابة لشك يتكرر بغير بينة. الحديث يعلم أداءً واضحًا يستطيع المصلي أن يتعلمه ويعمل به. ومتى تعلمت ما يلزم وأدبته، فلا تجعل الطلب المشروع للإتقان ذريعة لإرهاق نفسك بما لم يطلبه الله.

ربما تعلمت الصلاة صغيرًا، وبقيت تعمل بما رأيت، ولم تعرض صلاتك بعد ذلك على تعليم صحيح. لا عيب في أن تراجع ما حفظت، أو تسأل عن مسألة تظن أن الجميع يعرفها. الذي قال: علّمني، فتح لنفسه ولمن يقرأ خبره بابًا نافعًا. والحرص الذي يمنع السؤال لا يجعل العبادة أصح، كما أن كثرة السنين لا تصحح الخطأ من تلقاء نفسها.

وفي التوجيه النبوي حق للمعلم أيضًا. ليس له أن يترك خطأ مؤثرًا لئلا يزعج المتعلم، وليس له أن يجعل التصحيح إهانة. النبي ﷺ أعاد الرجل إلى الفعل، ثم بين له العمل بيانًا يستطيع أدائه. ومن علم طفلًا أو حديث عهد بالاستقامة احتاج أن يشرح، وأن يصبر على السؤال، وأن يفرق بين من يعاند ومن لم يتعلم بعد.

قد يكون أول إصلاح في صلاتك أن تصل إليها قبل الإقامة بقليل، أو أن تبعد ما يشغلك، أو أن تعرف معنى ما تقرأ. هذه أسباب تعين، لكنها لا تقوم مقام حقيقة الإقبال على الله. ولا يلزم أن تجتمع كلها في كل مرة؛ يفعل العبد ما يستطيع، ويجتهد في حفظ الأركان والواجبات، ثم يعود إلى قلبه كلما شرد، من غير قنوط ولا ادعاء كمال.

وإذا صليت مع الناس، فاجعل عنايتك بإتمام الصلاة لله، لا بتقييمهم لها. وإذا صليت منفردًا، فلا تجعل غيابهم سببًا لاختصار ما لا يجوز اختصاره. هنا يكون للمراقبة أثر واضح: أن يبقى الواجب محترمًا في الحالين، وأن تكون صلاتك في بيتك قريبة من صدق صلاتك حين يراك من تحب احترامهم.

قد نخرج من هذا الموقف بسؤال ينفعنا أكثر من لوم طويل: ما الذي يحتاج إلى تعلم في عبادتي؟ حدّد شيئًا واحدًا، واطلب فيه العلم، ثم صحح فعلك. لا تحمل نفسك في يوم واحد فوق طاقتها، ولا تؤجل ما عرفت وجوبه إلى أن تتفرغ تمامًا. الصلاة تتكرر، وكل صلاة باب لتطبيق ما تعلمته.

قال الرجل: ما أحسن غيره، فعلمني. لم تنته القصة عند وصف النقص، بل بدأت من هناك معرفة جديدة. فليكن اعترافنا بحاجتنا بابًا للإصلاح كذلك. نرجو قلبًا يقبل التعليم، وجسدًا يؤدي العبادة بعناية، ونفسًا لا تستكبر أن تعود فتتعلم، ما دام في العودة ما يقربها من رضا الله.

أعظم سورة

عن أبي سعيد بن المعلّى رضي الله عنه قال: «كُنْتُ أَصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَصَلِّي. فَقَالَ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾؟ ثُمَّ قَالَ لِي: لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّورِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ».^{٢٦}

حمل هذا المجلس إلى أبي سعيد علماً يتعلق بسورة يكررها المصلي. لم تكن العظمة في نص بعيد لا يتناوله إلا المتخصصون، وإنما في الفاتحة التي نقف بها بين يدي الله مرات كل يوم. وقد تكون كثرة تكرارها سبباً لأن نغفل عن السؤال: ماذا أقول وأنا أقرأها؟ ولمن أوجه هذه الكلمات؟ وما الذي أطلبه في آخرها؟

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَفْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ» قالها ثلاثاً «غَيْرُ تَمَامٍ». فقليل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام. فقال: اقرأ بها في نفسك؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمْدُنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكُ

٢٦. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، حديث أبي سعيد بن المعلّى رضي الله عنه، رقم 4474.

يَوْمَ الدِّينِ}، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي» - وقال مرة: «فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي» -
«فَإِذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي،
وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} ٢٧ صِرَاطَ الَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي
وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

هذا خبر نتلقاه كما جاء، لا دعوة إلى أن نتخيل صوتًا أو صورة، ولا أن
نضع بين الآيات كلامًا نخترعه وننسبه إلى الله. يكفي ما أخبر به
رسوله ﷺ لنعرف أننا لسنا أمام كلمات تؤدّي بلا معنى. نشني على الله،
ونقر له بالعبادة، ونعترف بالحاجة إلى عونه، ونسأله الطريق الذي
يرضاه لنا.

قد تقول: إياك نستعين، وفي قلبك هم تعرف أنك لا تستقل بحمله.
ليس هذا الهم خارجًا عن حاجتك إلى الله. أسأله العون على طاعة
شقت عليك، وعلى أمانة تخاف التقصير فيها، وعلى حق تريد أدائه.
ثم لا تجعل الاستعانة لفظًا يبيح ترك السبب؛ فمن سأل الهداية اعتنى
بأن يتعلم، ومن سأل العون على الصدق اجتهد ألا يكذب.

وحين تقول: اهدنا الصراط المستقيم، فأنت لا تطلب الهداية لأول مرة
فقط، كأن ما بعدها لا يحتاج إليها. تحتاج إلى معرفة الحق، وإلى قبول
ما عرفت، وإلى الثبات عليه في حال الرضا والغضب. وقد تعرف
الصواب في المعاملة، ثم تحتاج إلى قوة تنفذه حين يخالف منفعتك.
ليس طلب الهداية حكمًا بأنك لا تملك خيرًا؛ إنه اعتراف بأن خيرك لا
يستغني عن فضل الله.

٢٧. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وأنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه
تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رقم 395.

ومن لطيف ما في خبر أبي سعيد أنه تذكر وعد النبي ﷺ قبل أن يخرج. لم يكتفِ بسرور الصحبة عن الفائدة التي كان ينتظرها. نحن أيضًا قد نحضر مجلسًا أو نستمع إلى تلاوة فنفرح بالجو كله، ثم لا نحمل معنا معنى محددًا. اجعل لما تقرأ أثرًا يمكن أن تتذكره بعد انتهاء القراءة، ولو كان فهم كلمة واحدة بقيت غامضة عليك.

ويحفظ هذا الفهم الصلاة من تحولها إلى امتحان للمشاعر. ربما لم تبك، وربما شرد قلبك في أثناء التلاوة، فلا تقل إن الفاتحة لم تنفعك. عُدْ إلى الآية التي تقرأها وإلى معناها. بعض الحضور ينمو بالمعاودة الهادئة، لا بمحاولة إجبار النفس على التأثر. المطلوب أن تصدق في الإقبال بقدر استطاعتك، لا أن تصنع لنفسك حالًا تعرضه على غيرك.

وفي البيوت مجال واسع لتعليم الفاتحة بهذا القرب. يسمع الطفل معنى رب العالمين، ويعرف أن الحمد لله، وأنا نسأله الهداية. لا نحتاج إلى مصطلحات كثيرة تجعل السورة بعيدة عنه، ولا إلى حكايات مختلقة لإثارة انتباهه. يكفي أن نصل الكلمات بحاجته إلى ربه، وأن يرى فيمن يعلمه احترام الصلاة وحسن الخلق بعدها.

وإذا علمت أن الفاتحة عظيمة، فالعناية بتلاوتها ليست شأنًا صوتيًا وحده. تصحح ما يلزم تصحيحه من النطق، وتتعلم المعنى، وتحفظ موضع الدعاء فيها. لا تزين اللفظ ثم تتعمد مخالفة ما تعلن من عبادة الله، ولا تهمل اللفظ باسم حضور القلب. يتعاون العلم والعمل، وتبقى المعرفة بداية لتحسين العبادة لا ذريعة للاكتفاء بالكلام عنها.

خرج أبو سعيد بعلم عن أعظم سورة. وبين يديك السورة نفسها،
تقرؤها في صلاتك المقبلة. لا تنتظر مناسبة استثنائية لتبدأ الانتفاع
بها؛ ابدأ عند الحمد، وامض إلى الاستعانة، ثم اسأل الهداية وأنت تعرف
حاجتك. لعل آية اعتدتها تصبح اليوم أقرب إلى قلبك، وأظهر في
عملك، وأصدق في طلبك من ربك.

نعم الرجل عبد الله

عن سالم بن عبد الله، عن أبيه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا رَأَى رُؤْيَا قَصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَمَنَّى أَنْ أَرَى رُؤْيَا فَأَقْصَهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكُنْتُ غَلَامًا شَابًّا، وَكُنْتُ أَنَا فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي فَذَهَبَا بِي إِلَى النَّارِ، فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبُرِّ، وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ، وَإِذَا فِيهَا أَنَاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ. قَالَ: فَلَقِينَا مَلِكَ آخَرَ فَقَالَ لِي: لَمْ تُرْعَ. فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ، فَقَصَّتْهَا حَفْصَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: نِعَمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، فَكَانَ بَعْدُ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا».^{٢٨}

انتقل التوجيه من مجلس حفصة إلى حياة عبد الله. لم يبق ثناء يحفظه ليتحدث به عن نفسه، ولا ملاحظة يحزن منها ثم ينساها. علم بابًا من الخير يحتاج أن يفتحه، ففتح له موضعًا في ليله. وهذا من أجمل وجوه الانتفاع بالنصيحة: أن تصبح فعلاً هادئاً مستمراً، لا مجرد حديث عن أثرها في النفس.

كان في الكلام ثناء، وكان فيه توجيه. لم يمنع وجود الخير من طلب المزيد، ولم يُلغَ الخير لأن صاحبه يحتاج إلى عمل لم يحافظ عليه. قد نخطئ في تربية أنفسنا حين لا نرى إلا التقصير، فنظن أن كل ما عندنا لا قيمة له. وقد نخطئ حين نكتفي بما نعرفه من خيرنا، فنضيق بكل نصيحة. يجمع هذا الموقف الاعتراف بالخير والدعوة إلى تمامه.

٢٨. صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب فضل قيام الليل، حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، الرقم 1121 و1122.

والليل هنا ليس مسرحًا لإثبات شدة العزيمة أمام الناس. قد يخلو المرء بصلاته ولا يعلم به أحد، فيقرأ ويدعو ويركع ويسجد. ليست له حاجة أن يعلن عدد ركعاته أو يصف ما وجد في قلبه. الذي يقصده حاضر في علمه، وهو يرجو رضاه. والمراقبة تحفظ هذه العبادة من أن تتحول إلى صورة يريد بها الإنسان منزلة في أعين الآخرين.

ولا يعني الاقتداء بعبد الله أن نحمل أنفسنا فورًا مقدار عمله، أو أن نضيع بسبب ذلك واجبًا نهاريًا. أحوال الناس تتفاوت، وللبدن وللأهل حقوق. يبدأ العبد بما يستطيع المحافظة عليه من الخير المشروع، ويسأل الله الزيادة. ليس ميزان الصدق أن يحمس نفسه ليلة ثم ينقطع، بل أن يجد للطاعة مكانًا لا يطرده منه أول تغير في المزاج.

قد تكون ساعاتك ممتلئة، ولا تجد فراغًا طويلاً. انظر أولاً في الذي تستطيع تنظيمه، وفي شيء من الوقت يذهب بلا نفع. ليس كل ضيق ادعاء، وليس كل انشغال عذرًا مطلقًا. تستطيع أن تراجع عادتك في السهر، وأن تعتني بالفرائض قبل النوافل، وأن تسأل عن العمل المناسب لحالك. لا تحتاج إلى مقارنة تقسو بها على نفسك أو ترفعك على غيرك.

وخبر الرؤيا ليس دعوة إلى تعليق الاستقامة على رؤيا ننتظرها. بين النبي ﷺ لعبد الله ما ينفعه، ونحن بين أيدينا تعليم واضح يغنينا عن طلب إشارة خاصة. لا تثبت عبادة جديدة بمنام، ولا يصبح حلم شخص آخر أمرًا يلزمك. نأخذ من الموقف العمل بالتوجيه الصحيح، لا الانشغال الذي يصرفنا عن المعروف انتظارًا لما لم نكلف بطلبه.

وللناصح في هذه القصة حظ من الأدب. قد تسمع من شاب ما يشغله، فترى فيه باباً يقربه من العبادة. لا تجعل كلامك محصوراً في كشف النقص، ولا تمنحه ثناءً يقطعه عن المجاهدة. دله على عمل واضح، وأبق بينكما من المحبة ما يعينه على قبوله. بعض النفوس تحتاج أن تعرف أن النصيحة لم تمنح ما فيها من خير.

وإذا جاءك توجيه كذلك، فحاول أن تحمله إلى أقرب موضع للعمل. قد تعرف أن عليك ضبط اللسان، أو أداء حق، أو حفظ صلاة في وقتها. لا تؤجل الاستجابة حتى تتكون خطة مثالية لكل حياتك. الاستقامة تنمو من قرارات محددة، يصدق فيها الإنسان ثم يعاودها. أما الإعجاب بالنصيحة وحده فقد يعطي شعوراً بالتغيير من غير تغيير.

ويحدثنا سالم عن فعل أبيه بعد الخبر، فتظهر قيمة الأثر الطويل. بعض الكلمات النافعة لا يعرف قائلها كل ما تصنعه بمرور السنين. لذلك نحسن التعليم، ونخلص القصد، ولا نشترط أن نرى الثمرة فوراً. وحين نقل خيراً ثابتاً عن أحد، ننقله بما فيه من دعوة إلى الطاعة، لا لنقيم به مقارنة جارحة مع من يسعى إلى البدء.

نعم الرجل عبد الله؛ بقي الثناء، وازداد معه العمل. ونرجو لأنفسنا قلباً يتلقى الخير بالشكر، والتوجيه بالتواضع، ثم يرجع إلى ربه في خلوة لا ينافس فيها أحداً. المهم أن تكون النصيحة قد قربتنا من طاعته، لا أن تكون قد زادت ما نحفظه من كلمات الإعجاب بأنفسنا.

حين تترك الطعام لله

عن أنس رضي الله عنه أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «تَسَحَّرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ». قال أنس: قلت: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: «قَدَرُ خَمْسِينَ آيَةً».^{٢٩} خبر موجز عن طعام يؤكل قبل الصيام، وصلاة يؤدي حقها بعده؛ تدخل تفاصيل الوقت والبدن في حياة العبادة، ولا تبقى خارجها.

قد ننسى ونحن نتكلم عن أعمال القلوب أن الطاعة تبدأ أحياناً بلقمة يأكلها العبد اتباعاً، ثم ينتهي وقتها فيتركها اتباعاً كذلك. ليست قيمة العمل في الأكل أو التترك مجردين، بل في معرفة أمر الله وقصده. الشيء نفسه يكون مباحاً في وقت، ويمنع منه الصائم في وقت، فيتعلم القلب أن هواه ليس وحده من يحدد ما يفعل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ. وَالصَّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَضْحَبْ، فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي أَمْرٌ صَائِمٌ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفٌ فِيمَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ. لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ».^{٣٠} هكذا يتصل الإمساك برجاء الثواب، ويتصل جوع البدن بضبط اللسان وحفظ حق من أمامه.

٢٩. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قدر كم بين السحور وصلاة الفجر، حديث أنس عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما، رقم 1921.

٣٠. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم، حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رقم 1904.

والخلوة تكشف موضعًا من هذا المعنى. قد تكون قادرًا على الوصول إلى الطعام والشراب، ولا يراك أحد ممن يعيشون معك، ثم تمتنع لله. لا تحتاج إلى شاهد من البشر يثبت أنك صمت في تلك الساعة. يعرف ربك ما فعلت، ويعرف ما تركت. ومن هذه التربية يرجو المؤمن أن يمتد الصدق إلى غير الصوم؛ فيحفظ مألًا وسرًا وعهدًا كما حفظ إمساكه.

لكن الصوم لا يمنح صاحبه رخصة في الغضب. قد يشتد عليه التعب، فيقول لمن حوله: تحملوني، أنا صائم. والحديث يوجهه إلى ضد التوسع في الخصومة: يذكر نفسه بحقيقة عبادته، ولا يجعلها سببًا لإيذاء الناس. يستطيع أن يخبرهم بحاجته إلى راحة أو تنظيم، لكن ليس له أن يجعل الجوع حجة للكلمة المهينة أو الظلم المتعمد.

وقد يفرح الصائم بالفطر فرحًا طبيعيًا، فلا يعارض ذلك قصده لله. الدين لا يطلب منه أن ينكر حاجته إلى الماء أو أن يستحي من راحته عند الطعام. إنما يسأل نفسه عن شكر النعمة، وعن حدود ما يفعل. يجتمع في القلب الفرح بما أحل الله والرجاء فيما عنده، ولا يلزم أن يكون الوجه متعبًا دائمًا حتى يكون العمل صادقًا.

ونحتاج إلى المراقبة في ترتيب يوم الصوم. هل يطول انشغالنا بالطعام حتى تضيق الصلاة؟ هل نتساهل في حقوق العاملين معنا بحجة تعبنا؟ هل نغيب عن مسؤولية نستطيع أداءها ثم نكتفي بوصف مشقة العبادة؟ لكل حالة عذرها الصحيح وحدودها، لكن الأصل ألا نستعمل الطاعة ستارًا لتقصير لا تقتضيه.

والذي يعجز عن الصيام عجزًا معتبرًا يسأل أهل العلم عن حكمه، ولا يقيس قربه من الله بعمل من عوفي. لسنا أصحاب حكم على سرائر الناس من أطباقهم وأوقات طعامهم. قد يكون لإنسان عذر لا تعرفه، وقد يؤدي في حاله ما أمر به. المراقبة تبدأ من حَقِّك أنت، ثم تعلمك العدل والستر وحسن السؤال، لا التسرع في الاتهام.

ومن السهل أن يصير الصوم عادة موسمية نعرف شكلها ولا نراجع مقصدها. يأتي السحور والفطر، وتمضي الأيام، ثم يبقى تعاملنا مع الخلوة كما كان. لا نطلب تحولًا كاملاً يحدث فجأة، لكن نرجو أثرًا محددًا: أن تتذكر قدرتك على ترك ما تحب لله، فتستعين بهذا المعنى على ترك ما حرّم، وأن يكون حفظك للسان جزءًا من عبادتك لا عملاً مؤجلًا بعدها.

وحين تعلّم صغيرًا هذا المعنى، لا تبني حديثك كله على اكتشاف ما يخفيه. علّمه أن الله يعلم، وأنه رحيم، وأن العبادة صدق معه. اسمع سؤاله عن التعب، وعرفه بما يلزمه بحسب سنه وحاله، ولا تخلط التدريب بما لم يجب عليه. التربية التي تحفظ المعنى أعمق من انتصار سريع تجبره فيه على إظهار ما لا يصدق فيه.

تتكرر هذه الأعمال كل عام، وقد يمر السحور والفطر بلا انتباه إلى المقصود. فليكن لك في صيامك عمل لا يراه الناس: كف أذى، أو حفظ أمانة، أو ترك كلمة تعرف أنها تجرح. ومع كل ذلك اسأل الله القبول، ولا تزك نفسك لمجرد أنك امتنعت عن الطعام.

وصية لمن أحبه

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ، والله إنني لأحبك، والله إنني لأحبك». فقال: «أوصيك يا معاذ، لا تدعني في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك». وأوصى بذلك معاذ الصنابحي، وأوصى به الصنابحي أبا عبد الرحمن.^{٣١}

قد تتوقع النفس إذا سمعت إعلان المحبة أن يأتي بعده ثناء طويل أو خبر عن منزلة خاصة. لكن الذي جاء هنا دعاء يذكر العبد بافتقاره. من الخير الذي أوصى به النبي ﷺ من يحبه أن يسأل الله العون. ليست قوة المؤمن في أنه يستغني عن ربه، بل في أنه يعرف حاجته، ويطلب ما يعينه على أداء الحق.

أعني على ذكرك. لسنا نملك أن نثبت على الذكر بما عندنا من عزم وحده، مع كثرة ما يتنازع الانتباه. نستطيع أن ننظم أوقاتنا ونترك بعض المشغلات، لكننا نحتاج إلى توفيق الله. وحين يقر العبد بهذا لا يعفي نفسه من العمل؛ بل يجمع الطلب إلى السبب، ويعرف أن نعمة التذكر أعظم من مجرد قدرة اللسان على تكرار لفظ.

٣١. سنن أبي داود، كتاب الوتر، باب الاستغفار، حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، رقم 1522.

وأعني على شكرك. الشكر ليس كلمة تقال عند حصول ما نحب ثم لا تُرى في استعمال النعمة. يشكر المرء ربه على العلم حين يصون به الحق، وعلى المال حين يؤدي ما عليه، وعلى القدرة حين لا يظلم بها. وقد تكون المراقبة في أيام السعة أشد خفاء؛ لا خطر ظاهر يوقظنا، لكن أمامنا نعم تحتاج إلى وفاء لا يغيب بغياب الحساب البشري.

وحسن عبادتك. لا يقتصر السؤال على أن نؤدي أعمالاً كثيرة، بل أن نحسن ما نؤدي: نتبع المشروع، ونصدق في القصد، ونتجنب العجلة التي تفسد العمل، ونرد الحقوق إلى أصحابها. وقد يكثر أحدنا من عمل يحب صورته، ويثقل عليه واجب لا يجد فيه الثناء. هذا موضع يحتاج إلى عون الله قبل أن يحتاج إلى وصف طويل للإخلاص.

وفي أخذ اليد وإخبار معاذ بالمحبة صورة من التعليم القريب. ليس كل وعظ نافع يبدأ بالشدة. قد يثبت المعنى في النفس لأن الناصح أشعرها بالمحبة، ثم دلها على ما يصلحها. من يربي ولدًا أو يعلم شابًا يستطيع أن يحفظ هذه الرحمة في صوته، دون أن يتنازل عن الصواب، ودون أن يجعل المحبة مسaire لكل رغبة.

والوصية التي انتقلت إلى الصناحي ثم إلى أبي عبد الرحمن تذكرنا أن الأثر لا يحتاج إلى كثرة الكلام. ثلاثة مطالب تجمع شأنًا عظيمًا: ذكر، وشكر، وإحسان عبادة. قد تنفع إنسانًا حين تعلمه دعاء صحيحًا وتشرح له معناه أكثر مما تنفعه بكلمات كثيرة لم تضبط نسبتها. العلم الذي ينتقل بأمانة خير من معنى مؤثر يضيع أصله في الطريق.

وربما حفظت هذا الدعاء من صغرك، فأصبح يجري على لسانك وأنت لا تتوقف عنده. لا تستبدله لمجرد أنك ألفته؛ جدد فهمه. في يوم غفلة اسأل العون على الذكر، وفي نعمة جديدة انتبه للشكر، وفي واجب تؤديه على عجل استحضر حسن العبادة. الدعاء واحد، لكن حاجتك إليه تظهر في أحوال متعددة.

ولا تجعل طلب المعونة انتظاراً لحال لا تعرف موعدها. قد تقول: إذا فتح الله علي حضرت الصلاة بقلبي. أسأله الفتح، ثم قم إلى الصلاة كما أمرك، وتعلم ما ينقصك، وعد إلى المعنى كلما شردت. من تمام افتقارك أن تقبل العمل الممكن اليوم، لا أن تتركه لأنك لم تبلغ الصورة التي تتمناها لنفسك.

ولنا في تبليغ الوصية فرصة تخف فيها العناية بصورة النفس. علمها لمن تحب لأنك ترجو نفعه، لا يقال إنك شديد العناية بالتربية. وقد لا تعرف متى يستحضرها، ولا في أي شدة تنفعه. يكفي أن تؤدي ما تعرفه من خير بأمانة، وأن تسأل الله أن يجعل أثره صالحاً، دون أن تطلب من الناس شهادة على كل ما بذلت.

محبة ووصية ودعاء؛ هكذا وصل إلينا الخبر. فلنأخذ منه قلباً لا يخجل من حاجته إلى الله، ولساناً يسأله، وعملاً يصدق به السؤال. نحن نحتاج إلى الذكر حين نغفل، وإلى الشكر حين ننعم، وإلى حسن العبادة في كل حال. وما أجمل أن يكون من أحب الكلام إلينا ما يردنا إلى ربنا ولا يجعلنا نستغني بأنفسنا.

إنك تدعو سميعًا قريبًا

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ».^{٣٢} لم ينفهم عن ذكر الله، بل رَدَّهم إلى معرفة من يدعونه، وأرشدهم إلى الرفق في الذكر.

هذه معرفة تغيّر هيئة العمل. قد يرفع الإنسان صوته لأنه يريد أن يصل كلامه إلى من لا يسمع البعيد، لكن ربنا يسمع دعاءه، فلا يحتاج إلى تكلف المشقة ليضمن بلوغه. لا يُقاس سمع الله بسمع خلقه، ولا قرب به بقرب الأجساد؛ ثبت ما جاء في الخبر على ما يليق به، وهو سبحانه ليس كمثله شيء.

وقد يكون في الدعاء إخفاء يحفظ القلب من التعلق بالناس. تقول حاجتك فلا يسمعها إلا من أردت أن تسأله، ولا تبحث في أثناء ذلك عمن تأثر بدعائك. ليس كل دعاء مسموع رياءً، ولا كل صوت منخفض إخلاصًا، لكن الحديث يعلمنا أن شدة الصوت ليست وحدها علامة قوة الصلة بالله. المعنى أعمق من مقدار ما يسمعه الآخرون.

٣٢. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، رقم 2992.

في السفر يتجاوز الناس ويشتركون في مشقة الطريق، وربما جرّ بعضهم بعضًا إلى رفع الصوت والحماس. جاء التوجيه ليحفظ العبادة من أن تتحول إلى تكلف يتعبهم. ونحتاج إلى مثله في أعمال كثيرة: لا نزيد على أنفسنا من عندنا ثم نزن أن المشقة دليل الفضل، ولا نلوم من يعمل بالسنة لأنه لا يساير صورتنا المتحمسة للعمل.

ومن عرف أن الله يسمعه، اعتنى بما يقوله خارج الدعاء كذلك. يسمعه حين يعتذر بصدق، وحين يخفي الحقيقة بكلمة ملتوية، وحين يذكر أخاه في غيبته. ليست صفة السمع باب رجاء في ساعات المناجاة وحدها، ثم تغيب في ساعات الخصومة. يجمعها القلب في حالاته، فيحسن الطلب ويحفظ اللسان، ويستغفر مما بدر منه.

وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَالٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَالٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً».^{٣٣} ليست العزلة شرطًا لكل ذكر، ولا حضور الناس سببًا لفساده. يذكر العبد ربه في موضعه المشروع، ويحرص على الصدق، ويتبع ما ورد، ويجعل رجاءه في الله أكبر من انتظار أثره عند من يسمعه.

٣٣. صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رقم 2675.

قد تحتاج إلى دعاء وأنت بين الناس لا تملك أن تنفرد. في قلبك هم، وأنت تؤدي عملاً أو تنتظر خبراً. لا يلزم أن تهیی مشهداً خاصاً لتسأل ربك، ولا أن تجد عبارة أدبية تكفي لوصف حالك. ادعه بما تحتاج إليه من خير، واستغفره، وارح رحمته. يعلم من أمرك ما تعجز عن شرحه، ويسمع ما تقول على قلته وبساطته.

ولا يفهم من الرفق أن نتهاون في العبادة أو نتخذ الراحة مقصوداً أعلى من الطاعة. يختلف المشروع بحسب موضع الذكر والصلاة والدعاء. لكن الأصل أن نتعلم بدل أن نخترع قاعدة: كلما كان أشق فهو أقرب. قد تكون المتابعة نفسها في تخفيف ما شددناه، وفي ترك طريقة أحببنا أثرها لكنها لا تقوم على علم.

وحين تعين غيرك على الدعاء، لا تحمله على أداء يمثل شعورك أنت. قد يكون صوته هادئاً وقلبه حاضراً، وقد يبكي دون أن يحسن الكلام، وقد يحتاج إلى من يذكره بدعاء قصير. المهم ألا نصير نحن جمهوراً يراقب كيف يناجي الناس ربهم. نستر، ونرفق، ونعلم ما صح، ونترك السرائر لمن يعلمها.

وربما استقرت في نفسك عادة أن تنتظر وقتاً كامل الصفاء. يأتي الوقت وتظل الفكرة: لست حاضراً كما ينبغي، فأؤجل. يمكن أن تبدأ بما بين يديك، وتترج في تصحيح ما يشغلك. كلمة استغفار صادقة، وتسبيح تفهمه، ودعاء تدرك حاجتك إليه، أبواب لا تحتقرها لأنك لم تجمع معها كل ما تتمنى من حال القلب.

قال النبي ﷺ: ارفقوا بأنفسكم، وعرفهم بسمع ربهم وقربه. فاجتمع العلم بالرحمة، والذكر بالسكينة، والعمل بالاتباع. وحين تدعو بعد قراءة هذا الخبر، تذكر أنك لا ترفع حاجتك إلى غائب، ولا تحتاج إلى إقناع الناس بصدقها. اسأل ربك الذي يسمعك، وأحسن الظن به، واجعل لهذا العلم نصيبًا من بقية كلامك كذلك.

أخشاكم لله

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». ٣٤

كان ظاهر كلامهم طلب الزيادة في الخير. لكن حسن القصد لا يكفي لتصحيح طريق يخالف الهدى. ما توهموه أقرب إلى التقوى لم يكن أقرب من سنة من هو أعلم بالله وأخشاه. وهذه قاعدة تحفظ أعمال القلوب من أن تستقل عن العلم: لا نخترع صورة للمراقبة ثم نزن بها هدي رسول الله ﷺ، بل نتعلم منه معنى المراقبة والعمل الذي تدعو إليه.

وقد يدخل على الإنسان مثل هذا الخطأ من باب المقارنة. يرى غيره قليل النوم أو كثير الصيام، فيظن أن الطريق واحد لا ينفع سواه، أو يسمع وصفاً لحال عالية، فيحمل نفسه عملاً لا يقدر على دوامه. ليست

٣٤. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، رقم 5063.

أحوال الناس نسخة واحدة، لكن السنة مرجع الجميع. يستزيد المرء من المشروع بحسب استطاعته، ولا يتخذ الغلو دليلاً على أنه أكثر صدقاً من غيره.

وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».^{٣٥} يشرح ابن رجب هذا المعنى، فيجعل أداء الفرائض أصلاً لا يستغني عنه طالب الزيادة، ثم يتبعها بما يشرع من النوافل.^{٣٦} لا يصح أن نبحث عن أعمال نادرة بينما نهمل صلاة واجبة أو حقاً لازماً.

قد يتعب إنسان في نشاط تطوعي، ثم يتساهل في أجر موظف عنده. ويكثر آخر من القراءة، ثم يسيء إلى والديه. ليس المقصود تهوين الخير الذي يقومون به، بل ردّ القلب إلى ترتيب ما يحبه الله. الواجب لا يفقد حقه لأن النفس وجدت لذة في نافلة، وحقوق الناس لا تصبح تفصيلاً صغيراً لأن عملاً آخر لفت أنظارنا.

٣٥. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رقم 6502.

٣٦. ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الثامن والثلاثين؛ حديث الولي.

والمراقبة في هذا الباب تعلمنا أن نسأل عن محبوب الله، لا عن الصورة التي نحب أن نراها لأنفسنا. ربما أحببت أن توصف بالقوة على العبادة، وربما شق عليك أن يراك الناس تستريح. لكن الراحة المباحة التي تعين على الواجب ليست نقصاً يقتضي التمثيل، كما أن التكلف الذي يضيّع الحقوق ليس فضيلة لأنه يبدو شاقاً.

ولا يعني ذلك أن نعتذر بالاعتدال عن كل كسل. يستطيع الإنسان أن يجعل الحديث حجة لترك النوافل كلها، كما يستطيع أن يبالغ في خلافه. السنة فيها صلاة وصيام وذكر وإحسان، وفيها نوم وفطر وزواج. الاعتدال ليس حذف الجانب الذي يحتاج إلى مجاهدة، بل أن نعبد الله من غير تغيير لدينه، وأن نحفظ الحقوق مجتمعة.

ومن الجميل أن يكون لك عمل يسير لا تنازعك فيه حاجة إلى الشهرة. تتعلم مسألة نافعة، أو تقرأ ما تستطيع، أو تتصدق بما تقدر، وتخفي من عملك ما لا يلزم إظهاره. لا تضع لنفسك لقباً بسبب ذلك، ولا تتعامل معه كضمان لمنزلتك. إنما ترجو فضل الله، وتسأله أن يقبل، وتعرف أن التوفيق إلى العمل نفسه نعمة تحتاج إلى شكر.

وفي بيوتنا نحتاج إلى تعليم هذا التوازن. لا نعرض الدين للأبناء كأنه حرب دائمة مع كل مباح، ولا كأنه كلمات طيبة لا تتطلب التزاماً. يرون صلاة محفوظة، وصدقاً في المعاملة، ورفقاً عند التعليم، وفرحاً بما أباح الله. تتصل العبودية بالحياة، ولا يصبح الاقتراب من الله في خيالهم مرادفاً لترك كل ما يحبون.

وليس لشعور خاص أن يجعل صاحبه فوق السنة. إن وجد خشوعًا أو راحة في عمل مخالف، لم تصبح المخالفة صحيحة بذلك. نزن الحال بالعلم، ونصحح الفعل، ونسأل الله أن يرزقنا طمأنينة في اتباع ما شرعه. قد تكون مخالفة الهوى في هذه اللحظة أعظم أبواب التربية، لأن الهوى جاء متزيّنًا بلباس الاجتهاد في الخير.

أخشاهم لله هو الذي دلّهم على هديه. هذه حقيقة نحتاج أن تبقى أمامنا كلما أغرتنا صورة المبالغة. لا نطلب مقامًا نتجاوز به سنة رسول الله ﷺ، بل نحسن اتباعه، ونؤدي ما افترض الله، ونستزيد من النوافل بعلم. هكذا يكون القلب مراقبًا لمن يعبد، لا أسيرًا للصورة التي يريد أن يصنعها عن نفسه.

أعط كل ذي حق حقه

عن عون بن أبي جحيفة، عن أبيه رضي الله عنه قال: «آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَرَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَدِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا. فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ. قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ. قَالَ: مَا أَنَا بِأَكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ. قَالَ: فَأَكَلَ. فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ. فَتَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ. فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ: فُمُ الْآنَ. فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: صَدَقَ سَلْمَانُ.»^{٣٧}

لم ينته التعليم بإبعاد أبي الدرداء عن الصلاة؛ صلى سلمان معه، لكنه رده إلى عبادة لا تضيع معها الحقوق الأخرى. هذه صفة تنصح وتشارك، ولا تقف عند وصف ما ينبغي فعله.

في بيت أبي الدرداء كان هناك أثر لا يراه من يكتفي بمشاهدة العبادة من خارج البيت. قالت الزوجة ما ينبه إلى حاجة أهلها زوجها باشتغاله. من المراقبة أن نسمع مثل هذا التنبيه، لا أن نقول لمن تضرر: عليك أن ترضى لأنني مشغول بالطاعة. ليست النية الحسنة جواباً كافياً عن حق ضائع، ولا منزلة العابد تعفيه من النظر في أثر فعله.

^{٣٧} صحيح البخاري، رقم 1968، من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه؛ خبر سلمان وأبي الدرداء، وتصديق النبي ﷺ لقوله في حقوق الرب والنفس والأهل.

وقد تكون الحقوق أقرب إلينا من أن نحتاج إلى رحلة لنعرفها. أهل ينتظرون وقتًا نجلس فيه معهم، وبدن نرهقه ثم نعجز عن واجب، وعمل أو تمنا عليه فلا نحسن أداءه. حين تتزاحم هذه الأمور، لا نتبع ما يوافق ميلنا وحده. نسأل عما يجب، ونعرف ما يتسع له الوقت، ونقبل أن بعض الخير لا يؤدي بإلغاء الخير الآخر.

ولا يصح نقل فعل سلمان في صيام أبي الدرداء إلى كل صوم؛ فالصيام الواجب له حكمه، وليس للأصدقاء أن يدعوا صاحبه إلى تركه بدعوى الصحبة. القصة تروى في سياق التطوع وحقوقه. العلم يحفظ حدود الاقتداء، حتى لا نستعمل موقفًا صحيحًا استعملاً يخالف ما دل عليه، أو نجعل حاجة عارضة حجة لإضاعة ما فرضه الله.

ولعل في ترتيب الليل ما يعلمنا الرحمة بالنفس من غير استسلام لها. لم يتركهما سلمان نائمين إلى نهاية الليل، ولم يقرّ التوسع الذي أراد تصحيحه. اختار وقتًا قاما فيه معًا. بعض الإصلاح يحتاج إلى ترتيب عملي من هذا النوع: وقت للعبادة، ووقت للراحة، وحفظ لما لا يسع تركه؛ لا خطبة تجعل صاحبها أشد حيرة في كيفية الجمع.

قد تقول إنك لا تجد المعنى القلبي نفسه مع أهلك كما تجده وأنت تصلي منفردًا. هذا لا يجعل الإحسان إليهم أقل شأنًا عند الله إذا أدبته بقصد صالح. قد يكون تحمل سؤال طفل، أو الإصغاء إلى همّ زوجة، أو خدمة والد، مما يحتاج إلى مجاهدة أعظم من عمل اعتدت لذته. لا تجعل ما تستمتع به وحده تعريفك للطاعة.

وقد يقع العكس؛ تُشغلنا مباحات البيت حتى لا يبقى للصلاة والتعلم والذكر موضع محفوظ. لا نحتاج أن نختار أحد الطرفين ثم نهمل الآخر. قول سلمان يذكر الحقوق كلها، ويمنعنا من جعل كلمة واحدة عذراً دائماً. نعود إلى العلم حين يشتهه علينا الترتيب، ونراجع عاداتنا، ونستعين بمن يرى في حياتنا ما لا نراه نحن.

وكان لصدق الأخوة أثر في قبول التصحيح. لم يكتف سلمان بزيارة مجاملة، بل سأل وأعان، ولم يجعل النصيحة سباقاً يثبت فيه أنه أعلم أو أصلح. إذا أردت أن تنصح قريباً، فافهم ظروفه، واعرف ما تدعوه إليه، ولا تنتزع خبراً من حاله ثم تحكم على حياته كلها. النصيحة التي تقوم على محبة وعلم أقدر على جمع الحق والرحمة.

ومن يتلقى النصيحة يحتاج إلى تواضع أبي الدرداء؛ عرض الأمر على النبي ﷺ، فتبين له الصواب. لسنا نملك في كل موقف علماً كاملاً بما علينا. قد يشير إنسان إلى حق نسيناه، فيكون قبول الإشارة أقرب إلى الله من الدفاع عن ترتيب اخترناه لأنفسنا. المراقبة لا تعني أننا أحسنا الاختيار مرة واحدة إلى الأبد؛ بل أننا نرجع إلى الحق حين يظهر.

صلى الرجالان، وبقيت حقوق البيت والنفوس حاضرة في الحديث. فلنرجُ عبادة لا تقسو بها نفوسنا على من حولنا، وراحة لا تنسينا الواجب، وصحبة تساعدنا على الجمع. ليس المطلوب أن يرضى عنا كل الناس، بل أن نؤدي ما أمر الله به، وأن نعرف أن إحسان العبادة يشمل عدلنا في توزيع جهدنا، لا كثرة الجهد وحدها.

الباب الرابع: حين تخلو بنفسك

قد لا يكون بينك وبين الخطأ إلا قرار تتخذه وحدك. لا يحتاج الأمر إلى مكان بعيد ولا إلى ساعة استثنائية؛ رسالة، أو كلمة، أو صورة، أو مال تستطيع أن تتصرف فيه. هنا يظهر أثر ما تذكره عن علم الله، حين لا تعتمد استقامتك على وجود من ينهك من الناس.

والخلوة ليست موضع خطر دائم. فيها دعاء خالص، وتعلم، وراحة مباحة، وإحسان لا يطلب صاحبه شاهداً. فلا تخف من أن تكون وحدك، بل اعتن بما تختاره إذا خلوت. تعرّف إلى ما يضعفك، وأغلق من أسباب الشر ما تستطيع، وافتح لنفسك أبواب خير يسهل الرجوع إليها. وإذا أخطأت، فلا تجعل ستر الله عليك دعوة إلى الاسترسال، ولا تهتك سترك لتثبت أنك نادم. تب إليه، وردّ الحق إن كان لغيرك، واطلب عوناً أميناً عند الحاجة. الصدق في الخلوة ليس ادعاء أنك لا تضعف؛ إنه أن يكون لعلمك بأن الله يراك أثر في مقاومتك للذنوب وفي رجوعك بعده.

تركها وهو قادر

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة رهطٍ ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غارٍ فدخلوه، فاندحرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم. فقال رجلٌ منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي في طلب شيءٍ يوماً، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة». فأنفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج. قال النبي ﷺ: «وقال الآخر: اللهم كانت لي بنتٌ عمٌ كانت أحب الناس إلي، فأردتها عن نفسها، فامتنعت مني حتى ألفت بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينارٍ على أن تخلي بيني وبين نفسي، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أجل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه. فتحرجت من الوقوع عليها، فأنصرفت عنها وهي أحب الناس إلي، وتركْتُ الذهب الذي أعطيتها. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه». فأنفرجت الصخرة، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها. قال النبي ﷺ: «وقال الثالث: اللهم إنني استأجرت أجراً فأعطيتهم أجرهم، غير رجلٍ واحدٍ ترك الذي له وذهب، فتمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حينٍ فقال: يا عبد الله أد إلي أجرِي. فقلتُ له: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر

وَالْغَنَمَ وَالرَّقِيقَ. فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِي. فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ. فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا. اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ». فَأَنْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ».^{٣٨}

ليس جمال الموقف في بدايته؛ فقد بدأ باستغلال حاجة امرأة في الوصول إلى ما حرم الله. وإنما موضع التوبة في رجوعه حين صار قادرًا، وفي أنه لم يجعل ما بذله من مال حجة لإتمام الظلم. ينبغي أن يبقى هذا واضحًا، حتى لا نستحسن في القصة ما جاء الخير بتغييره، أو نسَمي الضغط على المحتاج محبة تبرر لصاحبها فعله.

قالت له ما يذكره بالحق، فوقف. كان يستطيع أن يسترسل، وكان لنفسه ميل قوي، ثم قدم ما يرضي الله. هنا تظهر المراقبة في صورتها العملية؛ ليست فكرة يعرفها الإنسان وقت الراحة فقط، بل علم يتذكره في اللحظة التي يدعوه هواه فيها إلى خلافه. ولا يشترط أن تزول الرغبة تمامًا حتى يكون الترك صادقًا.

بقيت المرأة أحب الناس إليه كما روى الخبر، ومع ذلك تركها. بعضنا ينتظر أن تصبح المعصية غير محبوبة إلى نفسه ليظن أنه قادر على التوبة منها. لكن المجاهدة تبدأ أحيانًا مع بقاء الميل؛ نعلم أن الفعل حرام، فنمتنع ونسأل الله أن يصرف قلوبنا عنه. ليس كل ما نرغبه حجة على جوازه، ولا كل مشقة في الترك علامة على استحالة الثبات.

٣٨. صحيح البخاري، كتاب الإجارة، حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، رقم 2272؛ خبر الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار.

وترك المال الذي أعطاها. لم تتحول توبته إلى وسيلة جديدة للضغط عليها، ولم يعاقبها لأنها ذكرت به بالله. في هذا ما ينبه إلى أن الرجوع عن الذنب يشمل تصحيح ما اتصل به من ظلم، لا مجرد التوقف عند الحد الأخير منه. فمن أراد الإحسان إلى محتاج لا يجعل حاجته باباً لابتزازه، ولا يشتري بصنيعته ما لا يحل له.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ، فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا، فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا». وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ، ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ، فَقَالَ: ارْقُبُوهُ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ». وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ». ٣٩ لا نحكم على سرائر الناس من ظاهر امتناعهم، لكن نسأل أنفسنا عن قصدنا. قد أغلق باب المعصية لأنه انكشف للناس، ثم أحتاج إلى توبة أصدق، أترك بها الرغبة في العودة متى غابوا.

وقد يكون موضعك مختلفاً عن هذه القصة: رسالة تستطيع إرسالها، أو صورة تقدر على فتحها، أو مال يمكنك أخذه خفية. لا تنتظر أن يبلغ الأمر أقصى مراحل حتى ترد نفسك. كل خطوة مبكرة تتركها لله تحفظ عليك ما بعدها، وكل سبب مباح يعينك على البعد خير من اختبار قوتك في موضع تعرف ضعفك أمامه.

٣٩. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب، حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رقم 129.

إذا وجدت في نفسك تعلقاً يؤذيك، فاعترف بحاجتك إلى العون. لا تجعل السرية عذراً للبقاء وحدك مع المشكلة إذا احتجت إلى نصح أمين. تستطيع أن تسأل عن العلاج العملي من غير تفصيل لا حاجة إليه، وأن تبعد ما يغريك، وأن تملأ وقتك بما ينفع. الاستعانة بالله لا تمنع الاستفادة من نصيحة، كما أن النصيحة لا تغني عن صدق قرارك. ومن المهم أن نسمع التذكير ولو جاء ممن أخطأنا في حقه. ربما تحاول النفس إسكات الناصح لأنه أضعف منها، أو لأنه احتاج إليها، فتستعلي بموضع القوة وتغفل عن الحق. الرجل في القصة لم يقل: جئتني محتاجة فليس لك أن تعطيني. قبل التذكير وترك. وما أعظم أن تكون كلمة الحق أكبر عندك من الشعور بأن لك سلطاناً على قائليها. وليس من الوفاء للقصة أن نعد كل تائب بانفراج عاجل يشبه تحرك الصخرة. ما أخبر به النبي ﷺ حق، والتوبة باب خير، لكننا لا نحدد لكل عبد صورة الأقدار بعد رجوعه. يترك الذنب لأن الله نهى عنه، ويرجو المغفرة والفرج، ولا يحول الطاعة إلى شرط يطالب به ربه بنتيجة اختارها هو.

لم يعرف الناس في القصة أسماء أولئك الرجال، لكننا عرفنا فعلاً نحتاج إلى مثله: أن نقف عند التذكير، ونترك ما لا يحل وإن قدرنا عليه، ونصلح ما أفسدناه. قد يكون هذا العمل خفياً لا ترويه لأحد. حسبك أن تصدق مع الله فيه، وأن تسأله قلباً يقبل الحق في اللحظة التي تشتد فيها حاجة النفس إلى خلافه.

الوجه الذي صُرف

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَ الْفَضْلُ رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ مِنْ خَتَنَمَ، فَجَعَلَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْرِفُ وَجْهَ الْفَضْلِ إِلَى الشَّقِّ الْأَخْرِ. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحَجِّ أَدْرَكْتُ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. وَذَلِكَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ»^{٤٠}

اجتمع في الموقف تعليم حكم، ورعاية لقلب شاب، وحفظ لحق السائلة في أن تتعلم. لم تتحول النظرة إلى سبب لإغلاق باب السؤال في وجهها، ولم تُترك النظرة بلا توجيه. هذا جمع نحتاجه؛ نصح الخطأ في موضعه، ولا نستعمله ذريعة لإضاعة حق آخر أو لإلقاء المسؤولية كلها على طرف واحد.

حركة الوجه بسيطة، لكنها تقرب معنى كثيراً ما نعجز عن تحويله إلى فعل. نعرف أن علينا غض البصر، ثم نبقي ننظر ونتحدث عن قوة الإرادة. أحياناً تكون الخطوة النافعة أن تصرف عينك بالفعل، وأن تغيّر ما بين يديك، وأن تخرج من موضع تسترسل فيه. لا يستقل القلب عن الجوارح؛ ما تكرر العين قد يزداد حضوره في النفس، وما تكفها عنه يعينها على الترك.

٤٠. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب وجوب الحج وفضله، حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، رقم 1513.

وسأل جرير بن عبد الله رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة، فأمره أن يصرف بصره.^{٤١} يضع هذا التوجيه فرقاً واضحاً بين ما يقع من غير قصد وبين الاسترسال بعده. لا تلم نفسك على كل صورة مرت أمامك دون اختيار، لكن لا تجعل وقوعها الأول إنذاراً لمتابعتها. التكليف فيما تستطيع فعله حين تنتبه.

وفي عالم الشاشات تتكرر هذه اللحظة في صور كثيرة. قد يفتح الإنسان مادة مباحة ثم تظهر له أخرى لا ينبغي أن يتابعها. ليس مطالباً أن يقدم للناس شهادة بأنه غض بصره، ولا أن يذكر لهم تفاصيل ما واجهه. يستطيع أن يغلق، وأن يصحح اختياراته، وأن يقلل الأسباب التي تجره إلى ما يكره. تكون المراقبة صادقة حين يبقى هذا الاختيار قائماً ولو لم يعرفه أحد.

ولا يصح أن نختزل علاقة النساء والرجال في اتهام مستمر أو خوف من كل حديث. جاءت المرأة تسأل عن واجب يخص أباه، فأجيبته. الحياء وغض البصر لا يمنعان التعامل المشروع والتعليم والعمل النافع، لكنهما يحفظان حدوده. نحتاج إلى علم يميز الحاجة الصحيحة من الاسترسال الذي لا حاجة إليه، وإلى صدق مع النفس عند هذا الحد.

وقد يخطئ المربي حين لا يعرف إلا الفضيحة وسيلة للتصحيح. يرى من شاب ضعفاً، فيرويه في كل مجلس، أو يعيده عليه في كل خلاف. هذا لا يعينه على مراقبة الله؛ قد يعلمه أن يخفي عن الناس ويخاف انكشاف صورته عندهم. الأفضل أن يكون التصحيح واضحاً محفوظ الكرامة، وأن يفتح له طريقاً يعود فيه إلى الصواب دون أن يسكن في وصف خطئه القديم.

٤١. صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب نظر الفجأة، حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه، رقم 2159.

ومن يتلقى النصيحة يحتاج أن يقبلها في وقتها، لا بعد أن ينهي ما يريد. ربما يقول المرء: أعلم، ثم يستمر. العلم النافع يظهر في الفعل، ولو كان صغيراً كتحويل الوجه. لا تستصغر هذه الاستجابة؛ فالاستقامة ليست قراراً كبيراً يقع مرة واحدة، بل مواقف يتكرر فيها اختيار ما يحبه الله على ما تميل إليه النفس.

وإذا عاودك الضعف، فلا تجعل تكراره سبباً لترك المجاهدة، ولا حجة لتطبيع الخطأ. اعرف أين تبدأ السلسلة التي تحملك إليه، وغير ما تستطيع من أسبابها. قد تحتاج إلى صحبة أحسن، أو إلى تنظيم وقت، أو إلى ترك مادة بعينها. ليس العزم كلاًماً تقوله في ساعة الندم ثم تترك يومك كما كان دون تغيير.

ويحفظ غض البصر علاقتك بالناس أيضاً. تراهم أصحاب كرامة وحقوق، لا صوراً تستهلكها ثم تبحث عن غيرها. وتتعلم أن رغبتك ليست مقياس حقك في الآخرين. هذا المعنى لا يولد من الاحتقار، بل من احترام حدود الله ومن معرفة أن القلب يحتاج إلى صيانة، وأن الإنسان ليس مأذوناً له في كل ما يستطيع الوصول إليه.

كان النبي ﷺ قريباً من الفضل يصرف وجهه، ونحن نرجو أن يبقى في قلوبنا من علمه ما يذكرنا حين لا نجد من ينبهنا. إذا حضرت اللحظة فابدأ بالفعل الممكن: اصرف بصرك، وعد إلى حاجتك المشروعة، واستعن بالله. لا تنتظر أن يراك أحد حتى تحسن الاختيار؛ الذي تريد رضاه يراك حين تختار.

لا تجعل الخاطر حكماً عليك

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذاك صريح الإيمان».^{٤٢} لم يمدح مضمون الخواطر التي أنكروها، بل في إنكارهم لها واستعظامهم إياها ما يبين أنهم لم يرضوا بها. فرق بين ما يمر على النفس وهي تدفعه، وبين ما تعتقد عليه القلب وتختاره.

لو غاب هذا الفرق لصار حديثنا عن المراقبة سبباً للخوف من كل حركة في النفس. يظن الإنسان أنه مسؤول عن ظهور كل خاطر، وأن مجرد مرور ما يكرهه كشف عن حقيقته. لكن الشريعة لم تسوّ بين الخاطر العارض وبين القول أو الفعل المتعمد؛ فقد أخبر النبي ﷺ بالعفو عما حدثت به النفس ما لم تعمل به أو تتكلم.^٢

ومعرفة أن الله يعلم باطنك ينبغي أن تكون سبب إنصاف لنفسك أيضاً. هو يعلم أنك تكره ما خطر، ويعلم أنك لم تختره ولم تعمل به. لا تحتاج أن تثبت براءتك لكل من حولك، ولا أن تعيد وصف الخاطر مرات حتى تحصل على طمأنة جديدة. قد يكون العلم الذي تحتاجه بسيطاً: لست كل ما يمر في ذهنك، ولا يلزم من ورود الفكرة أنك رضيت بها.

٤٢. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رقم 132.

٢. صحيح مسلم، رقم 127، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ العفو عن حديث النفس ما لم يُعمل به أو يُتكلّم به. المراد الخاطر غير المختار، لا القول أو الفعل المتعمد.

في المقابل، ليست هذه الرحمة ذريعة لتسوية العزم المقصود بالخواطر المكروهة. من تعمد تدبير ظلم، ثم عمل في أسبابه، ليس حاله كمن استنكر فكرة مرت به. نحن نحرر الفرق لنحسن المحاسبة، لا لنلغيها. نعود إلى العلم عند الاشتباه، ونجتنب إطلاق أحكام شاملة على كل ما يسمى حديث نفس دون فهم لما يندرج تحته.

قد تقف للصلاة فيمر في ذهنك أمر لا تريد التفكير فيه، ثم تنشغل بمقاومته حتى تنسى القراءة. عُذ إلى صلاتك بدل أن تدخل في محاكمة لكل خاطر. لا تحتاج إلى بداية جديدة كلما غفلت، ولا إلى شعور كامل يسبق أداء العبادة. تجاهد بما تستطيع، وتستعين بالله، وتؤدي ما تعلمه واجبًا، وتدع المبالغة التي تشغلك عن الفعل نفسه. وهناك سؤال علمي مشروع غير الخاطر المتكرر. قد لا تفهم حكمًا أو دليلًا، فتسأل من يعلم حتى يتضح لك. لا يصح أن يسكت الناصح كل سؤال باسم الوسوسة، كما لا يصح أن نحول كل خاطر إلى بحث لا ينتهي. تعيين الحاجة أول الإصلاح: هل أحتاج إلى بيان لم أفهمه، أم أحتاج إلى ألا أسترسل مع ما عرفت جوابه؟

كان سؤال الصحابة محفوظًا في قدر حاجتهم. لم يرو لنا الخبر أنهم فصلوا كل ما خطر لهم، بل وصفوا ما يستعظمون. في هذا ما يفتح باب السؤال دون تكلف كشف كل شيء. يستطيع الإنسان أن يطلب العلم بعبارة واضحة تحفظ نفسه، وأن يقول للناصح ما يحتاج إليه من حاله، ولا يجعل الكلام في المخاوف مناسبة لتتبع تفاصيل لا تنفعه.

وحين يثق بك من يشكو مثل ذلك، فابدأ بالفهم لا بالاتهام. قد تزيده كلمة قاسية حيرة، وقد يريحه علم صحيح لم يكن يعرفه. لا تدع القدرة على الحكم على إيمانه، ولا تستخرج من وجهه وصمته معاني لا تعلمها. بين ما ثبت، وأجل ما تجهله إلى من يحسن الجواب، واحفظ سر السائل وكرامته.

وقد يمر بك خاطر وأنت تقرأ لابنتك، أو تزور والدك، أو تمشي إلى صلاة. لا يلزم أن توقف هذا الخير لتشرح لنفسك كل ما مر بها. أكمل ما جئت له؛ فالله يعلم عنايتك بمن أمامك، كما يعلم أنك لم ترض بما كرهته.

أما الشك في طهارة أو فعل من أفعال الصلاة، فله حكمه الذي يُتعلم؛ وسيأتي في فصل «محاسبة تعينك على الصلاة». معرفة الفرق توفر عليك أن تعالج مسائل مختلفة بالخوف نفسه.

خرج أولئك الصحابة بعلم يصحح ما أقلقهم. فلنحفظ هذه الرحمة في حديثنا عن المراقبة: الله يعلم ما نختار وما ندفع، وما نعقد عليه قلوبنا وما نكرهه من عارض. نسأله الثبات، ونجاهد ما نقدر عليه، ولا نجعل الخاطر الذي لم نختره حكماً يلغي ما نؤمن به أو يغلق علينا باب طاعته.

ثوبان يرويان أثر النصيحة

عن المعرور بن سويد قال: «لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غَلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ. إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».^{٤٣}

بدأ السؤال بثوبين، وانتهى إلى كلمة قديمة غيّرت سلوك صاحبها. لم يذكر أبو ذر توجيه النبي ﷺ ليبرر ما فعل، بل نقله وهو يعمل بما تعلم. وهذا مما يجعل الخبر قريباً: أثر النصيحة لم يبق في الذاكرة وحدها، بل ظهر في حق إنسان ضعيف لا يملك ما يملكه من هو فوقه.

ولم تمنع منزلة أبي ذر أن يصحح له النبي ﷺ هذه الكلمة. قد يحمل الإنسان من الإيمان والعبادة خيراً كثيراً، وتبقى فيه خصلة تحتاج إلى إصلاح. لا نزكي الخطأ بسبب فضل صاحبه، ولا نمحو فضل الرجل بسبب خطأ تاب منه. العدل أن نسمي الفعل باسمه، وأن نفتح لصاحبه طريق الرجوع والعمل الصحيح.

٤٣. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه، رقم 30.

التعبير بالأُم، أو بالأصل، أو بما لا يختاره الإنسان من صفاته، ليس مجرد عبارة قاسية تنتهي بانتهاء الخصومة. قد يجعل المرء نفسه في منزلة أعلى بسبب أمر لم يكسبه، ثم يبيح لنفسه إذلال غيره. المراقبة ترد هذا الاستعلاء إلى حقيقة العبودية: أنت ومن تخاطبه خلق لله، ولكل منكما كرامته وحقوقه، ولا يجعل الغضب ظلمك كلامًا مباحًا.

وفي توجيه النبي ﷺ انتقال من منع الأذى إلى أداء الحق في الصورة التي ورد بها الحديث. أما علاقات العمل المعاصرة فلها أحكامها وأنظمتها وعقودها الخاصة، ولا تُنقل إليها أحكام الصورة التاريخية بمجرد التشابه؛ وإنما يُستفاد هنا معنى الرفق، وأداء الحقوق، والإعانة عند التكليف بما يشق، مع ردّ التفاصيل إلى أحكامها المعتمدة.

قد لا يقول لك العامل إن ما حملته عليه فوق طاقته، لأنه يخاف فقد عمله. وقد لا يشتكي من إهانة لأن حاجته أقوى من قدرته على الرد. هنا تحتاج إلى المراقبة قبل أن يأتي الاعتراض. اسأل عن عدل تكليفك، وعن أسلوب كلامك، وعن حق تعرف أنه له ولو لم يحسن المطالبة به. ضعف صوته لا يجعل حقه ضعيفًا عند الله.

ومن الرحمة في الحديث الأمر بالإعانة عند التكليف الشاق. ليست الإدارة الصالحة أن ترفع المطلوب ثم تترك من تحته وحده، وتلومه على كل عجز. تعلم قدر العمل ووقت أدائه، ووفر ما تستطيع من عون، واستمع إلى ما يخفى عليك من تفاصيله. قد يكون الإنصاف في تعديل المطلوب، وقد يكون في مشاركة أو مورد أو وقت إضافي مشروع.

ولا ينبغي أن نخلط هذا كله بإلغاء المسؤوليات. العامل مأمور بالأمانة كذلك، وصاحب العمل مأمور بالعدل. لكن حقك في المحاسبة لا يجيز التحقير، كما أن تقصير غيرك لا يعطيك حق التعيير بأهله أو أصله. تستطيع أن تحزم وتصح وتطبق ما يصح من اتفاق، من غير أن تجعل العقوبة انتقامًا من كرامة الإنسان.

وكان أبو ذر صادقًا في ذكر سبب تغييره. قد يثقل علينا أن نقول: كنت مخطئًا فتعلمت. بفضل أن يظهر سلوكنا الحسن كأنه لم يسبقه نقص، لكن معرفة طريق الإصلاح قد تنفع غيرنا. لا يلزم أن نجاهر بذنب ستره الله، وإنما إذا احتاج البيان إلى ذكر خطأ معروف فلا نجعل صورة الكمال حاجرًا عن تعليم الأمانة.

اسأل نفسك عن الكلمات التي تظهر منك عند فقد الهدوء. هل ترجع إلى العدل، أم تبحث عما يوجع الشخص ولو لم يكن له ذنب فيه؟ اجعل هذا السؤال خاصًا بإصلاحك، لا بتحقير نفسك. تستطيع أن تعتذر عما بدر، وأن تكف اللفظ، وأن ترد ما ضاع من حق، وأن تتعلم طريقة أحسن للتعبير عن رفضك.

رأى المعرور ثوبًا على أبي ذر وثوبًا على غلامه، فسأل. وقد يرى من حولك أثر التوبة في تغير معاملتك قبل أن يسمعوها خبرها. لا تجعل رؤيتهم غاية عملك، لكن ارجُ أن يكون التغير حقيقيًا: كلمة أقل ظلمًا، وحقٌّ أوفى، وتكليف أعدل. تلك مراقبة تدخل البيت ومكان العمل، ولا تبقى حديثًا نلقيه ونحن بعيدون عن موضع الاختبار.

أحمي سمعي وبصري

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه فأيهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه

قالت عائشة فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما أنزل الحجاب فكنت أحمل في هودجي وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل دنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل فقامت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه قالت وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه وهم يحسبون أنني فيه وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل فساروا ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب فتيمنت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رأي وكان رأي قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير

استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فقمت إليها
فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر
الظهيرة وهم نزول قالت فهلك من هلك وكان الذي تولى كبر الإفك عبد
الله بن أبي سلول قال عروة أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به
عنده فيقره ويستمعه ويستوشيه وقال عروة أيضا لم يسم من أهل
الإفك أيضا إلا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش
في ناس آخرين لا علم لي بهم غير أنهم عصابة كما قال الله تعالى وإن
كبر ذلك يقال له عبد الله بن أبي ابن سلول قال عروة كانت عائشة
تكره أن يسب عندها حسان وتقول إنه الذي قال فإن أبي ووالده
وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

قالت عائشة فقدمنا المدينة فاشتكت حين قدمت شهرا والناس
يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك وهو يربيني
في وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف
الذي كنت أرى منه حين أشتكي إنما يدخل علي رسول الله صلى الله
عليه وسلم فيسلم ثم يقول كيف تيكم ثم ينصرف فذلك يربيني ولا
أشعر بالشر حتى خرجت حين نقيت فخرجت مع أم مسطح قبل
المناصع وكان متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ
الكنف قريبا من بيوتنا قالت وأمرنا أمر العرب الأول في البرية قبل
الغائط وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا قالت

فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف
وأما بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة
بن عباد بن المطلب فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من
شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها بئس
ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرا فقالت أي هنتاه ولم تسمعي ما قال

قالت وقلت ما قال فأخبرتني بقول أهل الإفك قالت فازددت مرضا على مرضي فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال كيف تيكمن فقلت له أتأذن لي أن آتي أبوي قالت وأريد أن أستيئن الخبر من قبلهما قالت فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لأمي يا أمتاه ماذا يتحدث الناس قالت يا بنية هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن عليها قالت فقلت سبحان الله أولقد تحدث الناس بهذا قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي

قالت ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسماء بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله قالت فأما أسماء فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه فقال أسماء أهلك ولا نعلم إلا خيرا وأما علي فقال يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدق قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك قالت له بريرة والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا قط أغمصه غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي وهو على المنبر فقال يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي والله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما يدخل على أهلي إلا معي قالت فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال أنا يا رسول الله أعذرک فإن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک

قالت فقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذة وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج قالت وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال لسعد كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين قالت فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر قالت فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت قالت فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم قالت وأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوما لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي

فبينما أبواي جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي قالت فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا فسلم ثم جلس قالت ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال أما بعد يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم عني فيما قال فقال أبي والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لأمي أجيبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال قالت أمي والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من

القرآن كثيرا إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنني منه بريئة لتصدقني فوالله لا أجد لي ولكم مثلا إلا أبا يوسف حين قال فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ثم تحولت واضطجعت على فراشي والله يعلم أنني حينئذ بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيا يتلى لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها

فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه من العرق مثل الجمان وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه قالت فسري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال يا عائشة أما الله فقد برأك قالت فقالت لي أُمي قومي إليه فقلت والله لا أقوم إليه فإني لا أحمد إلا الله عز وجل قالت وأنزل الله تعالى إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم العشر الآيات ثم أنزل الله هذا في براءتي

قال أبو بكر الصديق وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقربته منه وفقره والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله ولا يأتل أولو الفضل منكم إلى قوله غفور رحيم قال أبو بكر الصديق بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال والله لا أنزعها منه أبدا

قالت عائشة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال لزينب ماذا علمت أو رأيت فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت إلا خيرا قالت عائشة وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع قالت وطفقت أختها حممة تحارب لها فهلكت فيمن هلك قال ابن شهاب فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط ثم قال عروة قالت عائشة والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت من كنف أنثى قط قالت ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله.^{٤٤} وقد نزلت آيات الإفك في سورة النور، وفي سياقها التحذير من تلقي القول بغير علم.^{٤٥}

في هذا الخبر الطويل، لم تتكلم زينب بنت جحش رضي الله عنها إلا بما تعلم، مع ما كان بينهما من منافسة. لم تحملها المنافسة على زيادة لا علم لها بها، ولم تجعل مكانتها الاجتماعية سبباً لترك الشهادة بالخبر الذي ظهر لها.

المراقبة هنا أمانة في حدود المعرفة: لا تردد ما لا تخبته، ولا تتوسع في تتبع حياة الناس بحجة التثبت. وإذا تعلّق الأمر بحق أو شهادة لازمة، فقل ما علمت بقدر الحاجة، من غير زيادة تحملها الخصومة أو المصلحة.

وقد تكون ناقلاً لخبر لا منشئاً له؛ لكن النقل قد يضاعف أثره. إذا بان لك خطأ ما نشرت، فصححه عند من وصل إليهم، ولا تجعل الاعتذار للناس أثقل عليك من رد الظلم. وامتنع عن نقل ما لا يعينك أصلاً، فالتثبت لا يبيح اقتحام الأسرار.

٤٤. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، من رواية عائشة رضي الله عنها، رقم 4141.

٤٥. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة النور، الآية 15.

هذا شاهد من واقعة مخصوصة، وليس تفويضاً لأحد أن يفتش عن أعراض الناس أو يحكم فيهم بغير بينة. نستفيد حفظ اللسان، والاقتصار على ما نعلم، وأداء الشهادة حيث تلزمها، مع رد تفاصيل أحكام القذف والشهادة إلى أبوابها الفقهية.

لم ينقذه عذر مصطنع

عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «قال كعب لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أنني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنها إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد

ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين توائمتنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها

كان من خبري أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وعدوا كثيرا فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان قال كعب فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله

وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا فأقول في

نفسي أنا قادر عليه فلم يزل يتمادي بي حتى اشتد بالناس الجدد فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئاً فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم أحزنني أنني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك ما فعل كعب فقال رجل من بني سلمة يا رسول الله حبسه برده ونظره في عطفه فقال معاذ بن جبل بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كعب بن مالك

فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرني همي وطففت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلم قادمًا زاح عني الباطل وعرفت أنني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب فأجمعت صدقه وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادمًا وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبأيعهم واستغفر لهم ووكّل سرائرهم إلى الله فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك فقلت بلى إني والله لو جلست

عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله لا والله ما كان لي من عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقمتم وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر إليه المتخلفون قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ثم قلت لهم هل لقي هذا معي أحد قالوا نعم رجلان قالا مثل ما قلت فقليل لهما مثل ما قيل لك فقلت من هما قالوا مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لي

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحبائي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ثم أصلي قريبا منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني

حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام فقلت يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فقال الله ورسوله أعلم ففاضت عيني وتوليت حتى تسورت الجدار

قال فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان فإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة فالحق بنا نواسك فقلت لما قرأتها وهذا أيضا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرت به

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت أطلقها أم ماذا أفعل قال لا بل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلي صاحبي مثل ذلك فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر قال كعب فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربك قالت إنه والله ما به حركة إلى شيء والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم

إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت
لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
كلامنا

فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من
بيوتنا فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت علي نفسي
وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل
سلع بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر قال فخررت ساجدا وعرفت
أن قد جاء فرج وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا
حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي
مبشرون وركض إلي رجل فرسا وسعى ساع من أسلم فأوفى على
الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته
يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه والله ما أملك غيرهما
يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فيتلقاني الناس فوجا فوجا يهنوني بالتوبة يقولون لتهنك
توبة الله عليك

قال كعب حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم
جالس حوله الناس فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني
وهناني والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة
قال كعب

فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله قال لا بل من عند الله وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قلت فإني أمسك سهمي الذي بخير فقلت يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلاني ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا كذبا وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت

وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار إلى قوله وكونوا مع الصادقين فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوا فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال تبارك وتعالى سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إلى قوله فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين قال كعب وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا

حتى قضى الله فيه فبذلك قال الله وعلى الثلاثة الذين خلفوا وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه».^{٤٦}

لم يخفف صدق كعب ما ترتب على الواقعة من مشقة في الحال، لكنه منعه أن يضيف إلى التقصير كذبًا. والحديث يبين أنه اختار الحقيقة مع علمه بأنها قد تعرضه للعتاب، ثم انتظر حكم الله ولم يفرض على الواقعة خاتمة يختارها.

لا تجعل القصة إذنًا بهجر المخطئ أو إزالته؛ ما وقع كان بتوجيه نبوي في حادثة معلومة، ولا يملك كل مربي أن ينسخ صورتها على من حوله. نأخذ منها صدق التوبة، ونرد تفاصيل الحكم والتأديب إلى العلم والعدل، ولا نعمم إجراءً خاصًا خارج سببه.

وفي حياتنا قد يكون موضع الصدق تقريرًا متأخرًا، أو أمانة أتلفناها، أو وعدًا لم ننجزه. سمّ التقصير باسمه، وأصلح ما تستطيع، ولا تعد الناس براحة فورية لم يعد بها النص. التوبة رجوع إلى الله، وليست صفقة نحدد بها شكل النتائج.

^{٤٦}. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، من حديث كعب رضي الله عنه، رقم 4418.

سؤال لم يمنعه الحياء

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ قال النبي ﷺ: إذا رأت الماء. فغطت أم سلمة، تعني وجهها، وقالت: يا رسول الله، أو تحتلم المرأة؟ قال: نعم، تربت يمينك، فبم يشبهها ولدها».^{٤٧}

لم يكن السؤال خروجاً عن الحياء المحمود، بل طلباً لعلم تحتاج إليه العبادة. وقد يكون ما يمنع الإنسان من السؤال خوفاً من نظرة الناس أكثر من كونه تعظيماً لله. يريد أن يبقى في صورة من يعرف، فيحمل جهله إلى عبادته سنوات. المراقبة تدعوه إلى تقديم صحة العمل على راحة الصورة: أتعلم ما يلزمي، وإن كان السؤال مما يخل بعض الناس من طرحه.

وفي طريقة أم سليم وضوح بلا فضول. سألت بالقدر الذي يحتاج إليه الحكم، ولم تجعل المجلس مجالاً لتفاصيل لا تنفع. هذه طريقة يمكن أن نتعلمها في كل مسألة خاصة؛ نصوص السؤال بدقة، ونقصد من يحسن الجواب، ونحفظ الأدب والكرامة. لا نحتاج إلى الغموض الذي يضيع المسألة، ولا إلى التوسع الذي يتجاوز الحاجة.

^{٤٧} صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، حديث أم سلمة رضي الله عنها، رقم 130.

ويحتاج المعلم إلى أن يكون مأمونًا على هذا الباب. قد يأتيه شاب أو فتاة بسؤال يمس الطهارة أو العبادة أو علاقة لا يحسن فهم حدودها. إن قابلهم بالسخرية أو التشهير، حملهم إلى الصمت أو إلى مصادر لا تؤتمن. أما إذا سمع وأجاب بعلم، وأقر بجهله فيما لا يعلم، فقد أعانهم على عبادة الله بدل أن يكون خوفهم منه حاجزًا عنها.

ونحن حين نتكلم عن الخلوة قد نكثر الحديث عن الذنب، وننسى أن فيها عبادات تحتاج إلى فقه. يغتسل المرء ويتوضأ ويصلي، وليس معه من يصحح. إذا راقب الله تعلّم ما يلزم لهذه الأعمال، ولم يكتفِ بما تتناقله العادات. وربما كان سؤال قصير يصحح طريقة تكررت عنده زمنًا طويلًا، فينفعه أكثر من موعظة لا تمس حاجته.

ولا يلزم من ورود السؤال أن السائل وقع في معصية. ما في خبر أم سليم أمر طبيعي تسأل عن حكمه، وليس اعترافًا بذنب. ينبغي أن نحفظ هذا الفرق في التربية، فلا نجعل كل حديث عن البدن والطهارة موضوع اتهام. قد يتعلم الصغير من طريقة استقبال السؤال أن الدين يحفظه ويعلمه، أو يظن خطأ أن عليه أن يخفي جهله وخوفه دائمًا.

وفي حياتنا أسئلة أخرى يمنعها الحرج: مال أخذته ولا تعرف كيف ترده، أو وعد لم تف به، أو عبادة لا تحسن حكمها. اجعل طلب العلم جزءًا من توبتك ومراقبتك، لا أمرًا تؤجله بعد إصلاح لا تعرف كيف يتم. لا تقصد من يوافق رغبتك فقط، بل من تثق بعلمه وأمانته ويفهم حقيقة ما تسأله عنه.

وقد تتلقى جوابًا لا تفهمه من أول مرة. تستطيع أن تسأل عن المراد، وأن تذكر ما يغير الحكم من ظروفك، من غير إلحاح يبحث عن رخصة لم يدل عليها العلم. الفرق في القصد والمسار: هل أطلب البيان لأعمل، أم أكرر الصياغة حتى أجد من يجيز لي ما عزمت عليه قبل السؤال؟ هذا موضع صدق يعرفه العبد من نفسه.

وحماية خصوصية السائل ليست فضلًا زائدًا في هذه المواطن. من ائتمنك على سؤال فلا تنقله إلى مجالسك للتندر أو لإظهار كثرة من يرجعون إليك. قد تذكر صورة عامة للتعليم لا تُعرف بها شخصية، لكن الأصل حفظ الأمانة. الذي يسأل عن مراقبة الله لا ينبغي أن يجد عند ناصحه تفريطًا في مراقبته في سر أو تومن عليه.

ولا تجعل التعلم مسارًا بلا نهاية للعمل. إذا عرفت الحكم الواضح فاعمل به، ولا تبحث عن شك جديد يعيدك إلى نقطة البدء. تتعلم ما تحتاجه، وتراجع عند ظهور مسألة أخرى، وتحفظ للعبادة بساطتها المشروعة. العلم يبين الطريق، وليس المقصود أن يبقيك واقفًا أمامه لا تدخله أبدًا.

حفظت أم سلمة سؤال أم سليم، فصار علمًا ينتفع به من بعدها. لعل من أعظم بركة السؤال الصادق أنه لا يرفع الجهل عن صاحبه وحده. فاسأل بأدب، وتعلم بأمانة، واحفظ للآخرين حقهم في التعلم. نريد حياءً يمنعنا من القبيح، لا حرجًا يمنعنا من معرفة ما نصح به عبادتنا وحياتنا.

عمل كان يرجو به الخير

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لبلال: «عند صلاة الفجر: يا بلال، حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة». قال: «ما عملت عملاً أرجى عندي: أني لم أتطهر طهوراً في ساعة ليل أو نهار، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي». قال أبو عبد الله: «دف نعليك يعني تحريك». ^{٤٨} كشف السؤال عن عمل متكرر، قريب من حياة صاحبه، لم يحتج إلى جمع الناس حوله أو إلى صورة استثنائية يعلنها لهم.

نقف عند قول بلال عن العمل الذي يرجوه. لم يقل إنه استحق به كل ما عند الله، ولا أنه يعلم لنفسه حقيقة القبول، بل ذكر أرجى ما عنده جواباً عن سؤال النبي ﷺ. الرجاء يختلف عن تزكية النفس؛ يعمل المرء ويحب الخير ويرجو ثوابه، ثم يعرف أنه محتاج إلى رحمة الله، وأن فضل الله أعظم من عمله.

وللعمل المتكرر شأن في تربية القلب. قد تمر فرصة يسيرة مرات كثيرة، فنراها صغيرة لا تستحق العناية، ثم نجمع أمنياتنا كلها في عمل كبير نؤجله. بلال جعل للطهور صلاة يتقرب بها إلى الله. لسنا نحتاج أن ننسخ تفاصيل كل حال، لكننا نتعلم أن القرب يبني بالمحافظة على المشروع المتاح، لا بالتطلع الدائم إلى ما لم نبدها.

٤٨. صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب فضل الطهور بالليل والنهار وفضل الصلاة بعد الوضوء بالليل والنهار، حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رقم 1149.

والصلاة بعد الوضوء عبادة تُتعلّم أحكامها من أهل العلم، وليست إذنًا
لاختراع صلاة بصفة أو عدد لم يدل عليه الشرع. قد يستحسن الإنسان
صورة تعجبه، فيضيف إليها توقيتًا أو دعاءً أو إلزامًا لا أصل له، ثم
يسمي ذلك خبيثة صالحة. الخبيثة التي نرجو نفعها تجمع صلاح القصد
وصحة الفعل؛ لا يغني أحدهما عن الآخر.

ومن لطيف أثر العمل الخفي أنه يختبر مقدار تعلقنا بالشكر. قد نصلي
أو نتصدق ثم لا يعلم أحد، فلا تأتي كلمة تعزز في نفوسنا ما فعلنا. هنا
يبقى السؤال واضحًا: أكنت أريد الله أم كنت أنتظر ما يقوله الناس؟ لا
نتعجل حكمًا قاسيًا على كل فرح بالثناء، لكننا نربي أنفسنا على ألا
يصبح الثناء شرط الاستمرار.

وقد يحمل الإنسان من الخير الخفي ما لا تسعه الصورة المشهورة.
يعتني بمريض ليلاً، أو يوفي بدين من غير ضجيج، أو يعين قريبًا
يحفظ كرامته، أو يصلح خطأ لا يعرف الناس من أصلحه. لا نحصر
العبودية السرية في نافلة واحدة، ولا نهمل واجبًا ظاهرًا بحجة البحث
عن عمل لا يراه أحد. أولى القربات ما أوجب الله عليك.

ولا يلزم أن يكون لك سر تستعرض وجوده بالإشارات. قد يذكر أحدهم
أنه يخفي أعمالاً عظيمة، فيطلب من الناس إعجابًا بالغموض بدل
إعجاب بالتفصيل. احفظ عملك من الحاجة إلى هذا كله. إن دعت
حاجة إلى ذكر شيء فاذكره بصدقه وقدره، وإلا فدع بينك وبين الله ما
لا يحتاج إلى تعليق.

ومما يعين على الاستمرار أن تختار ما يناسب قدرتك ولا يضيع الحقوق. لا تجعل البداية وعدًا كبيرًا ترهق به نفسك، ثم تلومها حين لا تفي. احفظ الفرائض، وأضف من النوافل ما تستطيع، واترك لنفسك باب الرجوع إذا انقطعت. لا يكون تعثر يوم حكمًا ببطلان كل ما سبقه، ولا عذرًا لترك ما يمكنك استئنافه.

وإذا بلغك فضل خاص لصحابي، فاقبله كما ورد، ولا تجعله معادلة تمنح بها لنفسك شهادة مماثلة. بلال أخبره رسول الله ﷺ بما أخبره به. ونحن نرجو الخير باتباع السنة، ولا نقطع لأنفسنا بغيب لم نُخبر به. هذا التواضع يحفظ القلب من العجب، ويجعل العمل طريق عبودية لا وسيلة لامتلاك ضمان على الله.

قد تكون في يوم عادي لا يذكره أحد، ثم تتوضأ وتصلي، أو تؤدي حقًا وتستغفر. لا تحتقر يومك لأنه لم يحمل حدثًا كبيرًا. عرف بلال عملاً كان يرجوه، وداوم على باب من الخير. ونحن نسأل الله أن يفتح لنا ما ينفعنا، وأن يعيننا على حفظه، وأن يجعل في خلواتنا صدقًا لا يتغير حين تنصرف عنا عيون الناس.

الباب الخامس: المراقبة في حقوق الناس

لصاحب الحق حاجة قد لا نراها. ربما ينتظر أجره ليقضي شأنًا لازمًا، أو ينتظر صدقنا ليختار على بيئة، أو يحتاج إلى كلمة عدل تحفظ له مكانه بين أهله. لا يصبح حقه أقل لأننا نقدر على تأخيرته، ولا لأن صوته أضعف من أصوات من اعتدنا الاستماع إليهم.

حين تتصل المراقبة بالحقوق، تنتقل من شعور نحبه إلى أمانة نؤديها. ينفعك أن تعرف أن الله مطلع عليك وأنت تنهي حسابًا، أو تصف سلعة، أو تقرر في شأن من تحت يدك. ليس كافيًا أن تكون نيتك العامة حسنة إذا كنت تعلم موضع ظلم ثم لا تصلحه.

وقد يبدأ الإصلاح بإصغاء إلى صاحب الحق قبل الدفاع عن نفسك. ما الذي تأخر عليه؟ وما الذي أخفيته عنه؟ وأي شيء تستطيع رده الآن؟ لا يمنعك خطأ في أسلوبه أن تؤدي حقه، ولا يمنعك اعتذار صادق من تعويض ما أفسدت. ما نرجوه من صلاح القلب ينبغي أن يجد الناس أثره عدلاً ورحمة، لا كلامًا لا يصل إلى حاجاتهم.

ألقى السوط من يده

عن أبي مسعود البدرى رضي الله عنه قال: كنت أضرب غلامًا لي بالسوط، فسمعت صوتًا من خلفي: «اعلم أبا مسعود». فلم أفهم الصوت من الغضب. قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: «اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود». قال: فألقيت السوط من يدي، فقال: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام». قال: فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا.^{٤٩}

تبدأ المراجعة هنا من لحظة كان فيها أبو مسعود قادرًا على غلامه، غارقًا في غضبه، لا ينتبه إلى النداء. ثم لما عرف المتكلم ألقى السوط وسمع التذكير: قدرة الله عليه أعظم من قدرته على من تحت يده. لم يترك الراوي لنا نصيحة مجردة؛ نقل انتقالًا ظاهرًا من إيقاع الأذى إلى كف اليد.

ورد الخبر في سياق علاقة الرق التاريخية، فلا يُتخذ ترخيصًا بإيذاء الناس اليوم ولا قاعدةً عامةً لأحكام التأديب. موضع العبرة أن السلطة لا ترفع مسؤولية صاحبها، وأن الغضب لا يسقط حق الضعيف. وفي البيت والعمل والتعليم صور معاصرة تختلف عن صورة الخبر، لكنها تستدعي سؤالًا واحدًا: هل أستعمل ما أملك لإصلاح الخطأ، أم أزيد على غيري أذى لا يستطيع دفعه؟

٤٩. صحيح مسلم، كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده، حديث 1659، من رواية أبي مسعود البدرى رضي الله عنه.

إذا خشيت أن تقودك ثورة الغضب إلى ظلم، فكف الفعل أولاً، وابتعد حتى تهدأ، واستعن بمن يوقف التجاوز إن كان غيرك معرضاً للأذى. وبعد ذلك أصلح ما وقع بقدر الاستطاعة: رد مالاً، أو اعتذر، أو أزل أثراً، أو اطلب من صاحب الحق ما يحتاجه. الندم بداية نافعة، لكنه لا يغني عن أداء حق معلوم.

والقوة التي تقبل أن تُردَّ إلى العدل قوةً مأمونة. قد يخشى المرء أن يبدو متراجعاً أمام من غضب عليه؛ غير أن الرجوع عن الظلم ليس هزيمة. إذا ذكرك أحد بحد الله أو بحق إنسان، فاقبل التذكير قبل أن يتحول الإصرار إلى عادة، ولا تجعل هيبتك عند الناس أثمن من سلامة قلبك وحقوقهم.

وفي الخبر أيضاً أدبٌ في نقل التصحيح: روى أبو مسعود ما وقع له، ولم يخف موضع غضبه ولا رجوعه. لا يفسد قدر الإنسان أن يذكر خطأه إذا كان في ذلك تعليمٌ ونفع؛ فقد تكون أصدق كلمة تقولها لمن تحت مسؤوليتك: أخطأت، وهذا حقك الذي سأرده.

البلبل الذي لم يره المشتري

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غش فليس مني». ٥٠

ليس موضع التنبيه مجرد أن جزءاً من الطعام ابتلّ، بل أن البلبل خفي على من يشتريه. فأرشد النبي ﷺ إلى إظهار ما يحتاج الناس إلى رؤيته، وختم بإنكار الغش. يتصل التوجيه بصدق العرض، لا بمجرد اجتناب الكذب الصريح.

قد يعرف البائع عيباً مؤثراً لا يعرفه المشتري، وقد لا يكون في صياغة الوصف كذبٌ مباشر، لكن كتمان الحقيقة يوقع الطرف الآخر في فهم لا يختاره لو علم. يراجع المرء نفسه: هل أخفيت أمراً أعرف أثره في قرار غيري؟ وهل عرضت الخدمة أو السلعة بعبارات توهم بما لا أستطيع الوفاء به؟

ومن التطبيقات المعاصرة التي نقيس بها المعنى، لا التي يرويها الحديث: وصف منتج يخفي نقصاً معلوماً، أو تقرير عمل يطمس خلافاً يؤثر في قرار صاحبه. تتغير الصور، ويبقى واجب الصدق في حدود ما

٥٠. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا»، حديث 102، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يعلمه المرء وما يلزمه بيانه. أما تفاصيل صحة البيع وحقوق الأطراف في الواقعة المعينة، فتُسأل فيها جهة العلم المختصة ولا تُستخرج من المثل وحده.

والأمانة لا تخص البائع؛ فالمشتري لا يخلق عيبًا ولا يبالغ في الضرر ليأخذ ما ليس له. حين نكون في موقع العرض نبين ما نعلمه من العيوب المؤثرة، وحين نكون في موقع الطلب نصدق في وصف ما وقع. هكذا لا تتحول الثقة إلى فرصة للاستغلال، ولا تتحول المطالبة بالحق إلى باب للظلم.

قد يبدو الإفصاح سببًا لفوات صفقة، لكنه يحفظ للإنسان قلبًا لا يحتاج إلى تبرير ما أخفاه. إذا اكتشفت بعد المعاملة نقصًا لم تبينه، فابحث عما يلزم لتصحيح الحق في تلك الصورة بعينها. ابدأ بما تعلم: لا تُخفِ الحقيقة عن صاحبها، ولا تدّع علمًا لا تملكه، وارجع إلى أهل العلم في الحكم التفصيلي.

هذا لكم، وهذا أهدي لي

عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: استعمل النبي ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أهدي لي. قال: «فهل جلس في بيت أبيه أو بيت أمه، فينظر يهدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده، لا يأخذ أحد منه شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبتة، إن كان بغيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر». ثم رفع بيده حتى رأينا عفرة إبطيه، «اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت» ثلاثاً.^{٥١}

واجه الخبر اسماً اختير للمال: «أهدي لي». فجاء السؤال عن صلة العطية بالمهمة: هل كان سيُهدى إليه لو جلس في بيت أهله؟ لا يجعل هذا السؤال كل هدية حراماً في كل حال، لكنه ينبه صاحب الولاية إلى أن ما يُعرض عليه قد يكون بسبب منصبه، لا لشخصه.

قد يكون أصل المشكلة خفياً على الآخذ؛ فالمانح قد يرجو تقريباً أو تسهياً، وقد يتوقع معاملة خاصة لاحقاً. لذلك لا يستقل الموظف أو المسؤول بالحكم على أثر المنفعة في قراره، بل يبينها للجهة المؤتمنة ويتبع ما يلزم من قواعد النزاهة. وتتفاوت صور الهدايا والمنافع؛ أما حكم الواقعة بعينها فيُرجع فيه إلى تفاصيلها وأهل العلم والاختصاص.

٥١. صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب من لم يقبل الهدية لعلة، حديث 2597، من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

وفي العمل الخيري والمؤسسي، تظهر الأمانة كذلك في فصل مال المؤسسة عن المال الشخصي، وتوثيق ما أؤتمن عليه المرء، وقبول المراجعة. ولا يصح اتهام شخص لمجرد غموض هدية أو صلة؛ يلزم التثبت والعدل، كما يلزم صاحب المسؤولية ألا يجعل حسن ظنه بنفسه بديلاً عن الإفصاح.

ليس المقصود أن يتحول كل تعامل إلى ريبة، بل أن تُحمى الثقة بالوضوح. إذا عرضت عليك منفعة لاتصالها بعملك، فاسأل عن سببها، وبيّنها لمن يملك تقديرها، ولا تسمّها هدية شخصية قبل التحقق من حقيقتها. بذلك لا تظلم من اتهمته، ولا تغفل عن حق ائتمنت على حفظه.

أجر لم ينسه صاحبه

ثبت خبر الأجير الذي حفظ له صاحب العمل أجره كاملاً في قصة أصحاب الغار بالفصل 25. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرّاً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره».^{٥٢}

يضع الحديث منع الأجير حقه في وعيد شديد. ما استوفاه صاحب العمل من جهد لا يصير مباحاً لمجرد أن العامل لم يطالب، أو أنه لا يملك وسيلة ضغط. وقد يكون الأجر في حياة صاحبه قوت بيت أو ديناً لا يعرفه أحد؛ فلا ينتقص الحق بغياب الشكوى.

قبل العمل، يحرر الطرفان ما اتفقا عليه من أجر ومهمة ووقت، ثم يؤدي كل منهما ما التزم به. فإن وقع نزاع في مقدار المستحق أو جودة العمل، فليُفصل فيه ببيان عادل، لا بمماطلة تكره الطرف الأضعف على التنازل. أما التفصيل في الأحكام والأنظمة فيرجع فيه إلى أهل العلم والجهة المختصة بحسب الواقعة.

والعامل أمين في مقابله: يؤدي ما التزم به، ولا يدعي إنجازاً لم يقع، ولا يأخذ من مال أو أدوات ما لم يؤذن له. لكن تقصيره لا يجعل حبس الأجر كله حقاً، كما أن حقه لا يبيح له التعدي. نزن أفعال الطرفين بالعدل، مع الانتباه إلى تفاوت القدرة على المطالبة.

٥٢. صحيح البخاري، كتاب الإجارة، باب إثم من منع أجر الأجير، حديث 2270، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إن كنت تملك قرار صرف حق، فاسأل نفسك: هل أوقفته لسبب ثابت، أم تركته يتأخر لأن صاحبه لا يستطيع الوصول إليّ؟ قد تكون مراجعتك أو توقيعك خطوة يتوقف عليها وصول المال. أنجز ما تقدر عليه، وبيّن موضع التعطيل، وصحح ما انكشف من تقصير. أمانة الأجر لا تحفظها النية وحدها؛ يحفظها أداء الحق في وقته.

عدل يراه أهل البيت

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، وهو على المنبر، قال: أعطاني أبي عطية، فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشهد رسول الله ﷺ. فأتى رسول الله ﷺ، فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله. قال: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟» قال: لا. قال: «فاتقوا الله، واعدلوا بين أولادكم». قال: فرجع فرد عطيته.^{٥٣}

يضع الحديث الموقف في سياقه: عطية لولد دون سائر إخوته، ثم سؤال عن واقع العطاء، وتوجيهه إلى التقوى والعدل، فرجوع الأب عما فعل. لم يخف النعمان الخبر عن الناس، فصار ما وقع في أسرته تعليمًا يتجاوزها.

وتحتاج أحكام العطايا بين الأولاد إلى معرفة تفاصيلها؛ فالحاجة والنفقة الواجبة والهبة المحضة ليست صورة واحدة. لا نحول الحديث إلى معادلة حسابية في كل حال، ولا نتخذ تفاوت الحاجات ستارًا لميل لا صلة له بها. من لم يعرف حكم صورة عائلته سأل أهل العلم وذكر الوقائع المؤثرة بصدق.

٥٣. صحيح البخاري، رقم 2587، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه؛ النهي عن الجور في عطية بعض الأبناء دون بعض.

وكان في رجوع الأب درس لأهل البيت: قبول التصحيح لا ينقص مكانته. قد يخطئ الوالد في تقدير أو يغيب عنه أثر قراره، فإذا بان له وجه العدل استطاع أن يراجع نفسه. التصحيح يعلم الأبناء أن الحق أكبر من الحرج، وأن الرجوع إلى الصواب قوة ومسؤولية.

وفي المقابل، لا يجعل الابن الحديث سلاحاً للمطالبة بكل ما يريد، ولا يفسر كل فرق في المعاملة على أنه جور. يتكلم بأدب، ويتثبت من حقيقة الحاجة، ويقبل البيان. يجتمع حق الوالد في البر وحق الولد في العدل، ولا يلغي أحدهما الآخر.

قد يبدأ الإصلاح بسؤال هادئ: هل غاب عني أحد في هذا القرار؟ وهل فرقت بين حاجة حقيقية وميل شخصي؟ بيتنا موضع تربية ومحاسبة، لا مساحة تسقط فيها الحقوق لأن الناس يعرفون بعضهم. نسأل الله أن يرزقنا عدلاً يراه أهل البيت في الفعل قبل أن يسمعه في الوصايا.

دين بقي بعد صاحبه

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه».^{٥٤}

جاء الحديث موجزًا، لكنه يمنع أن نعامل الدين كأنه ينتهي بموت صاحبه. إذا كان في ذمة المرء حق لغيره، بقي واجبًا أن يُعرف ويؤدَّى من تركته قبل قسمتها، وفق الأحكام الشرعية وتفاصيل الواقعة. ومن كان عليه دين في حياته فليثبت مقداره وأجله، ويبينه لمن يحتاج إلى معرفته، ويسعَ إلى أدائه ما استطاع.

لا يراد بهذا أن يقع المدين في اليأس أو أن يتهم كل من مات وعليه دين بالتفريط؛ فالحديث يحث على حفظ الحق، وتفاصيل المسؤولية والعدل والوفاء لها أبوابها. لكن الوضوح يقي أهله حرج التخمين، ويمنع ضياع حق لا يعرفون صاحبه أو قدره.

والمراقبة هنا أن لا نُؤجل التوثيق بحجة أن الأمر واضح في ذاكرتنا. دون ما لك وما عليك، واحفظ ما يثبت المعاملة، وأخبر من يلزم إخباره. وإذا توليت شأن تركة، فلا تستعجل قسمة مال تعلقت به ديون معلومة؛ اسأل أهل العلم في ترتيب الأداء عند تعارض الحقوق أو نقص المال.

٥٤. جامع الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه»، حديث 1078، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قد يبدو تسجيل الدين عملاً إدارياً بارداً، لكنه صورة من صور الوفاء. القلب الذي يخاف الله لا يكتفي بحسن الظن في نيته؛ يأخذ بالأسباب التي تحفظ حق الدائن وتخفف عن الأهل. أداء الحقوق في حياة الإنسان أيسر من تركها لغموض بعد غيابه.

رحمة لا تنتظر جواباً

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش. فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني. فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في هذه البهائم لأجرًا؟ فقال: «في كل كبد رطبة أجر».^{٥٥}

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار؛ لا هي أطعمتها وسقتهَا إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».^{٥٦}

يجمع الخبران بين إحسانٍ إلى حيوان محتاج وأذىٍ استمر حتى ماتت الهرة. لا يملك الحيوان أن يطالب بحقه بلساننا، لكن عجزه عن الشكوى لا يبيح إهماله. فالمراقبة تظهر في أفعال صغيرة لا يراها الناس: ماء نقدمه، أو أذى نمنعه، أو مسؤولية نفي بها تجاه ما جعلناه تحت رعايتنا.

٥٥. صحيح مسلم، كتاب السلام، باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها، حديث 2244، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٥٦. صحيح مسلم، كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، حديث 2242، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ومن اختار رعاية حيوان تحمل ما يلزمه من طعام وماء وعناية، وإن شق ذلك طلب له طريقًا مأمونًا بدل تركه للأذى. لا نعرضه للخطر لصنع مشهد مؤثر، ولا نتكلف ما يعرضنا أو غيرنا لضرر. نعتني بالحاجة الحقيقية، ونسأل أهل الخبرة عما نجهل من الرعاية المناسبة.

ولا تُجعل القصة مقياسًا نحكم به على كل شخص أو واقعة؛ هي خبر عن عينين من الأفعال، وفي مسائل الرفق تفصيل بحسب الحال والقدرة والضرر. ولا تتنافس رحمة الحيوان مع حقوق الإنسان: من أحسن إلى ضعيف لا يستغني بذلك عن إنصاف قريب أو أجير أو مريض تحت مسؤوليته.

قد يبكي المرء لقصة بعيدة ثم يضيق بحاجة تتكرر في بيته. لا نحتقر تأثيره، بل نسأله أن يحمله إلى فعل ثابت: رعاية مريض، أو إطعام محتاج، أو كف أذى. الرحمة التي تنتظر جوابًا من الناس أضيق من الرحمة التي تخرج أجرها من الله.

أفلا شقت عن قلبه؟

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة، فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشينا قال: لا إله إلا الله. فكف الأنصاري، فطعنته برمحى حتى قتلتة. فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ، فقال: «يا أسامة، أقتلتة بعدما قال لا إله إلا الله؟» قلت: كان متعوذاً. فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.^{٥٧}

ورد الإنكار في خبر عن قتال ودم؛ فلا يُختصر إلى موعظة عامة عن حسن الظن، ولا نقتطع منه تفاصيل تمنحه معنى آخر. في هذه الرواية واجه أسامة رضي الله عنه تصحيحاً شديداً، وحفظه ثم رواه. ونقل الخبر عن النبي ﷺ، لا ظننا نحن في باطن الرجل الذي قال الشهادة. الأصل العملي أن لا نجعل تخميننا في نية إنسان حجة لاعتداء على حقه أو التشهير به. نستطيع أن نصف فعلاً نعرفه، ونطلب تحقيق ضرر، ونحمي من يتعرض للأذى، مع الوقوف عند الدليل فيما لا نعلمه. أما الحكم على السرائر فليس إلينا.

وليس الستر على الظلم مطلوباً باسم عدم شق القلوب. إذا ثبت اعتداء، يُطلب إنصاف المتضرر بالطريق الصحيح؛ وإذا كان الأمر محتملاً، نتثبت ونسمع ونفصل بين المؤكد والمتخيل. العدل لا يحمل المتهم ما لا نعلم، ولا يترك المظلوم بلا عون.

٥٧. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة، حديث 4269، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

كان أسامة قادرًا على أن يروي القصة بطريقة تخفي خطأه، لكنه نقل موضع التصحيح وأثره فيه. ليس في قبول التصحيح امتهان، بل حفظ للعلم ورحمة بالناس. إذا بان لنا أن تفسيرًا استعجلنا إليه لم يكن دليلًا، رجعنا عنه، وأصلحنا ما ترتب عليه.

لا نحتاج أن نعرف ما استقر في قلب غيرنا حتى نؤدي واجبنا. راقب قصدك، واحفظ حق الناس، ولا تجعل يقينك بتفسير صنعتة حجةً على دم أو عرض أو مال. هذا من المراقبة التي تحبس صاحبها عن التعدي وتدعوه إلى التثبت.

الباب السادس: مواقف تكشف ما في القلب

قد تتشابه الكلمات وتختلف الأفعال التي تأتي بعدها. يقول الإنسان إنه يشكر النعمة، ثم ينسى من أين جاءه الخير. ويذكر الأمانة، ثم يختار لنفسه استثناءً لا يقبله لغيره. ليست المشكلة دائماً في غياب المعرفة؛ قد تكون في اللحظة التي نحتاج أن نصدق فيها ما نعرفه. ولا نقرأ المواقف لنقسم الناس إلى من نجحوا ومن أخفقوا ونخرج نحن من السؤال. لكل واحد منا موضع يحتاج إلى صدق؛ نعمة يخشى أن تطفيه، أو خصومة يخاف أن تجره إلى الظلم، أو خبر يحسن أن يتثبت منه قبل أن يحكم. ينتفع القلب حين يسمح للمعنى أن يراجع اختياره هو.

وقد تكون الوقفة قصيرة ثم يبقى أثرها طويلاً: آية تمنع غضباً من الاسترسال، أو علم يجعلنا نترك حكماً على سريرة لا نعرفها. لا نستقل بتوفيق الله، ولا نزكي أنفسنا إذا وجدنا خيراً. نحمده ونسأله الثبات، ونعرف أن اليوم الذي أماننا يحتاج إلى مجاهدة جديدة لا يغني عنها ما مضى.

يوم عادت إليهم صورتهم القديمة

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، بدا لله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكًا، فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن، قد قذرني الناس. قال: فمسحه، فذهب عنه، فأعطي لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا. فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو قال البقر، هو شك في ذلك، إن الأبرص والأقرع، قال أحدهما: الإبل، وقال الآخر: البقر. فأعطي ناقة عشراء، فقال: يبارك لك فيها. وأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا، قد قذرني الناس. قال: فمسحه فذهب، وأعطي شعرًا حسنًا. قال: فأى المال أحب إليك؟ قال: البقر. قال: فأعطاه بقرة حاملًا، وقال: يبارك لك فيها. وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إلي بصري، فأبصر به الناس. قال: فمسحه، فرد الله إليه بصره. قال: فأى المال أحب إليك؟ قال: الغنم. فأعطاه شاة والدا، فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا واد من إبل، ولهذا واد من بقر، ولهذا واد من غنم. ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين، تقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بغيرًا أبلغ عليه في سفري. فقال له: إن الحقوق كثيرة. فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيرًا فأعطاك الله؟ فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر. فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، فرد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى

الأعمى في صورته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، وتقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أبلغ بها في سفري. فقال: قد كنت أعمى فرد الله بصري، وفقيرًا فقد أغناني، فخذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله. فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتكم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبك». ٥٨

يسرد الخبر النعمة من بدايتها إلى عودتها اختبارًا: عافية، ثم مال، ثم سؤال يكشف كيف نظر كل واحد إلى ما أُعطي. لم يكن الذي فُقد من الذاكرة مجرد مرض قديم؛ الأولان أنكرا النعمة ونسبا المال إلى ميراث، والثالث سمّى حاله كما كانت ورد الفضل إلى الله.

لا يلزم المرء أن يكشف ماضيه للناس، لكن صون الخصوصية لا يكون بإنكار نعمة الله أو باختلاق مصدر للمال. والشكر لا يقف عند الاعتراف بالفضل؛ يظهر في بذل ما يستطيع صاحبه، من غير منّ ولا إنزال، وفي ألا يحتقر المحتاج لأنه مرّ يومًا بحاجة شبيهة.

قد نتعلم بعد جهل فنضيق بمن يسأل، أو تتسع أرزاقنا فننسى ما كان بنا. لا نستعمل القصة للحكم على كل غني أو مبتلى، ولا نجعل المال أو المرض وحده علامة رضا أو سخط. هي خبر عن ثلاثة مخصوصين، وفيه دعوة إلى سؤال النفس: ماذا صنعت بالنعمة، وهل بقي في قلبي تواضع لمن لم يزل في حال حاجته؟

٥٨. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، حديث 3464، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفي تعيين مال أحد الأولين شك في الرواية، فأبقي بلفظه ولم يُجزم فيه.

ويذكر الراوي شكًا في تعيين ما طُلب من الإبل أو البقر في أول القصة؛
لذلك أثبتناه كما ورد ولم نجزم بواحد منهما.^{٥٨} ليس هذا التفصيل
موضع العبرة، ولا يصح أن يُزال الشك طلبًا لسرد أجمل. الأمانة في
النقل أن نحفظ ما عُلم وما لم يُحسم.
نعمة العافية والرزق والعلم تذكّرنا بحاجتنا، لا باستحقاقنا المستقل.
نسأل الله أن يجعل ما أعطانا عونًا على طاعته، وأن يرزقنا صدق
الشكر، ولينّا بمن لا يزال يواجه ضيقًا عرفناه يومًا.

٥٨. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، حديث 3464، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفي تعيين مال أحد الأولين شك في الرواية، فأبقي بلفظه ولم يُجزم فيه.

أمانة عبرت البحر

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم. فقال: كفى بالله شهيداً. قال: فأتني بالكفيل. قال: كفى بالله كفيلاً. قال: صدقت. فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر، فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يركبها، يقدم عليه للأجل الذي أجّله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة، فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار، وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أنني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك، وسألني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بك، وأني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإنني أستودعها. فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده. فخرج الرجل الذي كان أسلفه، ينظر لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة. ثم قدم الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار، فقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال: أخبرك أنني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه. قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف الدينار راشداً.»^{٥٩}

٥٩. صحيح البخاري، كتاب الكفالة، باب الكفالة في القرض والديون بالأبدان وغيرها، حديث 2291، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وردت هذه الحكاية في صحيح البخاري عن رجلين من بني إسرائيل، وهي خبر عن واقعة مخصوصة؛ فلا تُجعل طريقةً عامة في أداء الديون أو ترك توثيقها. الذي يلفت النظر هنا صدق المدين في طلب الوفاء مع بذل السبب، وأمانة الدائن حين لم يأخذ المال مرتين. أما أحكام الديون ووسائل حفظ الحقوق فتُطلب من أدلتها وأبواب الفقه، لا من الحكاية وحدها.

قد يذهب نظرنا أولاً إلى وصول الخشبة، وهو من عجيب الخبر الذي أخبر به النبي ﷺ. لكن في القصة أمانتين واضحتين لا ينبغي أن تغطّي عليهما الدهشة: رجل ظل يريد الأداء ولم يكتفِ بما أرسل، وآخر اعترف بوصول حقه ولم يستغل جهل صاحبه ليأخذ مرتين. المراقبة حاضرة في جانبي الدين، لا في عزم المدين وحده.

لم يقلل المقترض إنه بذل محاولة فعفى نفسه من المسؤولية، بل استمر يطلب الطريق، ثم جاء بما يفي به. في حياتنا أسباب مأمونة تؤدي بها الحقوق، ولا نأخذ من القصة طريقة لإضاعة الأموال في البحر. الذي نتعلمه صدق العناية بالأجل والحق، والاستعانة بالله، وألا تجعل تعطل وسيلة واحدة عذراً لتترك البحث فيما تقدر عليه.

والدائن كان قادراً في ظاهر الحال على قبول المال مرة أخرى. لا يعلم الرجل أمامه ما وجد، وربما لم يكن هناك من يطالبه ببيان ما جرى. لكنه قال الحقيقة. كم من الحقوق تتوقف على صدق إنسان في معلومة لا يملكها غيره؛ مبلغ وصل، أو خصم تم، أو ردّ تكرر، أو أمانة بقيت في الدرج بعد نسيان صاحبها.

حين تراقب الله لا يصبح جهل الناس فرصة مشروعة للنفع. قد تستطيع أن تكتب وصفاً يحتمل، أو أن تسكت في موضع يفهم منه خلاف الحقيقة، لكنك تعرف ما قصدت. رد المال الزائد ليس خسارة لما تملكه؛ هو امتناع عن أخذ ما لم يكن لك. وهذه المعرفة تحرر القلب من الحيل التي تسمى الطمع ذكاء.

ولا يمنع الإيمان بالله توثيق الديون وأخذ أسباب حفظ الحقوق. هذه القصة خبر خاص عن قوم وثقوا، ولا تلغي ما شرع من الكتابة والشهادة. الوضوح يحمي الطرفين، ولا يليق بأحد أن يضغط على الآخر بعبارات الثقة ليدخل ماله في غموض لا يريده. تستطيع أن تكون أميئاً وتكتب، وأن تكون محباً وتوضح الاتفاق.

وقد لا تملك الوفاء في الأجل رغم صدقك. حينئذ تحتاج إلى بيان أمين لحالك، وإلى سعي في الأداء، لا إلى اختفاء يزيد صاحب الحق خوفاً. لا تعد بما تعلم أنك لا تقدر عليه، ولا تبدد ما يمكن أن يوفي بعض الحق في مظاهر لا تحتاجها. العجز الحقيقي يحتاج إلى رحمة، أما التلبيس فيجعل العاجز والصادق يدفعان ثمنه معاً.

وفي استقبال الاعتذار ينبغي أن نبقي منصفين. قد نغضب لتأخر حقنا، لكننا لا نزيد عليه مالا لا يحل، ولا نهين صاحب العجز، ولا نستحل عرضه في المجالس. نطلب حقنا بالطريق الصحيح، ونميز بين من يماطل ومن يبذل، ونرجو أن يكون لصدقنا عند القدرة أثر في معاملتنا لمن لا يقدر.

والأمانة لا تحتاج إلى قصة عجيبة حتى تكون كبيرة عند الله. تحويل صحيح، أو حساب تصححه، أو مبلغ ترجعه فور علمك، قد لا يلفت أحدًا. لكنه يكشف ما جعلته حاكمًا على قرارك: حق تعرفه، أم منفعة تستطيع إخفاءها؟ لا تحتقر الأعمال التي لا تتحول إلى حكايات؛ الحياة الصالحة أكثرها وفاء هادئ.

عبرت الخشبة البحر، لكن صدق الرجلين هو المعنى الذي نستطيع أن نحمله إلى يومنا. نبذل للوعد ما نقدر عليه، ونشهد بما نعلم، ونرد ما ليس لنا، ونسأل الله التوفيق. لا نطلب أن يعطينا الناس ثقتهم ثم نعفي أنفسنا من تبعثها؛ بل نرجو أن يجدوا عندنا أمانة تثبت كلما غابت عنهم تفاصيل ما تحت أيدينا.

ليست السفينة لك وحدك

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا. فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».^{٦٠}

هذا مثل نبوي، لا واقعة نضيف إليها أسماء أو أماكن. يقرب معنى المسؤولية المشتركة: ما يفعله بعض الركاب في موضعهم قد يفرق الجميع. وحسن قصدهم في ألا يؤذوا من فوقهم لا يحول خرق السفينة إلى عمل مأمون.

يبدأ المسلم بإصلاح نفسه، ولا يجعل ذلك ذريعة لترك ضرر يقدر على منعه. ينصح بعلم ورفق وبوسيلة لا تزيد الظلم، ويقبل النصيحة إذا بان له أثر غفل عنه. لا يكفي ادعاء قصد الإصلاح إذا اختيرت له وسيلة مؤذية.

وفي المقابل، لا يحول المرء المثل إلى وسيلة لفرض ذوقه على الآخرين. يفرق بين الضرر الثابت وما لا يوافق فحسب، ويرجع إلى العلم في الحكم على الفعل. مراقبة الله تلزمه العدل في إنكاره كما تلزمه ألا يسكت عن ضرر يراه ويستطيع دفعه.

٦٠. صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيها، حديث 2493، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

وقد تكون النصيحة كلمة أمينة في وقتها، أو إبلاغًا لمن يملك منع الأذى، أو تصحيحًا لمعلومة تضر بإنسان. قبلها يسأل الناصح نفسه: أريد أن يزول الضرر، أم أريد أن أنتصر؟ ثم يؤدي ما عليه بقدر علمه وقدرته، دون منة أو تجريح لا حاجة إليه.

نجاة أهل السفينة تتطلب أن يمنعوا الخرق، لا أن يتركوا بعضهم يغرق. ونجاة علاقاتنا وأعمالنا تحتاج إلى أمانة ونصيحة منضبطة بالعدل. نراقب الله في الفعل الذي يصل إلينا أثره، وفي الكلام الذي نختر أن نقوله حين نرى خطأ.

كلمات لغلام

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف.»^{٦١}

يفسر ابن رجب حفظ الله بحفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه؛ الامتثال عند الأمر، والاجتناب عند النهي، والوقوف عند الحد الذي لا يجوز تجاوزه.^{٦٢} فلا يفهم الطفل ولا الكبير من اللفظ أن الله يحتاج إلى حفظ أحد؛ هو الغني، ونحن المحتاجون. المقصود أن نرعى ما أمرنا به، ونجعل له حرمة في أفعالنا.

وهذا الشرح يجعل المراقبة قريبة من الحياة. حفظ الصلاة من حفظ أمر الله، وحفظ اللسان عن الحرام، وحفظ الأمانة والفرج والحقوق. قد نبحت عن معنى عال بعيد، بينما يبدأ الإصلاح من واجب نعلمه ولا نحفظه. ليست المنزلة القلبية بديلاً عن هذه الأعمال، بل هي مما يعين على إحسانها في السر والعلن.

٦١. جامع الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، حديث 2516، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ وقال الترمذي: حسن صحيح.

٦٢. ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث التاسع عشر: «احفظ الله يحفظك»؛ الاعتماد على الله وفعل الأسباب.

ويربط الحديث ذلك بسؤال الله والاستعانة به. لا يطلب من الغلام أن يعتمد على نفسه اعتماداً مطلقاً، بل يعرفه بمن يرجع إليه. يحتاج الصغير إلى هذا الأصل قبل أن تتسع مخاوفه ورغباته؛ يعلم أن له رباً يدعو، وأن الناس أسباب لا يملكون له استقلالاً كل ما يرجوه أو يخشاه.

ولا يمنع هذا أن يطلب الإنسان من المخلوق عوناً يقدر عليه في أمر مشروع. الطالب يسأل معلمه، والمريض يرجع إلى من يحسن علاجه، والمحتاج يستعين بمن يستطيع معاونته. الذي يحفظه القلب ألا يجعل مخلوقاً في موضع لا يليق إلا بالله، وألا يبيع طاعته وصدقه لينال رضا شخص يظن أن الخير كله عنده.

وقد يكون من أشد أثر هذا الحديث في الشباب تحريرهم من الخوف الذي يجرحهم إلى موافقة الجماعة على الخطأ. يظن الشاب أن خسارة رضا أقرانه نهاية كل خير، فيكذب أو يظلم أو يفعل ما لا يريد. حين يعرف أن النفع والضرر تحت قدر الله، يستطيع أن يرفض برفق وثبات، وأن يطلب صحة تحترم الحق بدل أن تساومه عليه.

ويدخل في حفظ الله لعبده، كما يشرح ابن رجب، حفظ دينه وإيمانه من أسباب الفساد، وهو أشرف ما يرجوه العبد.^{٦٢} لا نختزل الحفظ في سلامة البدن والمال دائماً، ثم نظن أن المبتلى لم يحفظ أمر الله. قد يمرض الصالح، وقد يفقد مالاً، ويبقى حفظ الدين أعظم مما كان يخشى عليه. نؤمن بوعد الله من غير أن نفرض على أقدارنا شكلاً واحداً.

٦٢. ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث التاسع عشر: «احفظ الله يحفظك»؛ الاعتماد على الله وفعل الأسباب.

وفي تعليم الصغار نحتاج إلى ألا نجعل الكلام عن الله وسيلة لفرض أهوائنا. نبين ما أمر به حقًا، ونفرك بين حكم الشرع وبين اختيار تربوي نريده في البيت. إذا قلت لطفل إن الله يعاقبه على كل ما يخالف رغبتك، ثم اكتشف أن الأمر مباح، فقد أفسدت عليه معنى كان ينبغي أن يصل إليه نقيًا.

ويتعلم الكبير من توجيه الغلام أن المراجعة لا تنتهي بالعمر. قد تكون حافظًا للحديث منذ سنين، ثم تأتي ساعة قرار تحتاج فيها إلى حقيقته. هل سأكذب لأرضي من أخافه؟ هل أترك واجبًا لأن الناس لا يهتمون به؟ هل أعتقد أن الوسيلة هي التي تملك النتيجة؟ هنا يُختبر نفع ما حفظت، لا عند قدرتك على إتمام ألفاظ الحديث فقط.

اجعل بينك وبين هذه الكلمات موضعًا للتذكر حين تحتاج، دون أن تضيف عددًا تعبديًا أو صيغة لم ترد. تعلّم معناها، وعلمها لمن تحب، واربطها بعمل واضح. يسأل ولدك عن أمر يخافه، فتعينه بالأسباب وتذكره بالله؛ وتجد أنت ضعفًا، فتدعو وتؤدي الممكن. العلم الحي يدخل هذه المواطن البسيطة.

كان ابن عباس غلامًا يسمع، ثم صار ينقل العلم للأمة. لا نعلم كل ما تصنعه الكلمة الصادقة فيمن نعلمه، لكننا نعرف واجب الأمانة في نقلها. فلنحفظ حدود الله، ونسأله العون، ونعرف قدر الأسباب والخلق. ليس المقصود أن نبدو أقوياء، بل أن تبقى عبوديتنا له أصدق من خوفنا على رضا الناس.

الآية التي أوقفته

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحَرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْفُرَاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ كُھُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا. فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ يَا ابْنَ أَخِي، لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ. قَالَ سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَاسْتَأْذِنِ الْحَرُّ لِعُيَيْنَةَ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ هِيَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ، وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ. فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحَرُّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ. وَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ.^{٦٣}

ليست الفضيلة في أن عمر لم يعرف الغضب، فقد غضب. وإنما في أن كتاب الله كان أكبر عنده من استكمال ما حمله عليه الغضب. هذا فرق يفتح لنا باباً واقعياً للمجاهدة؛ لا نتظر أن تخلو نفوسنا من الانفعال، بل نربيها على الاستجابة حين يأتي ما يردّها إلى الحق.

٦٣. صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين} العرف: المعروف، رقم 4642.

وكان التذكير على لسان رجل من مجلسه، لا على لسان من يملك عليه سلطاناً دنيوياً. قبول النصيحة لا يتوقف عند أهل المراقبة على مكانة الناصح الاجتماعية. إذا جاءك الدليل ممن هو أصغر منك أو تحت إدارتك، فحقه في القبول من صدقه لا من رتبته. قد يكون احترام الحق في هذه الحال أشد على النفس، ولذلك يكون موضع تربية. ونقل ابن عباس أن القراء كانوا أهل مشورة عمر، كباراً كانوا أو شباناً.^{٦٣} كان العلم سبباً للاستماع، لا مجرد السن أو القرب. في هذا ما يعيننا على مراجعة مجالسنا: هل نحيط أنفسنا بمن يوافقوننا، أم بمن يقولون لنا ما ننفعن؟ من لا يسمع إلا الثناء قد ينسى أن له أخطاء تحتاج إلى من يبينها.

ولا يجعل هذا الخبر كل إساءة حقاً لصاحبها، أو يمنع المسؤول من محاسبة ظالم في موضعها. نحن نتعلم الوقوف عند الدليل، لا إلغاء الأحكام والحقوق. قد يكون العفو خيراً في حال، وقد يلزم دفع ظلم في حال أخرى. المراقبة أن تعرف حكم الله وتقصده، لا أن تحول غضبك أو لينك إلى قاعدة لا تراجعها.

وفي الخلافات اليومية تمر لحظات شبيهة من جهة المعنى: يذكر قريب بأن الكلمة جارحة، أو أن العهد يلزم، أو أن الغائب لا يجوز بهته. ماذا تفعل حينئذ؟ هل يتراجع لسانك، أم يزيد غضبك لأن أحداً أوقفك؟ ربما كانت استجابتك في تلك اللحظة أصدق من موعظة ألقيتها قبل أيام عن تقوى الله.

٦٣. صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين} العرف: المعروف، رقم 4642.

والاستجابة لا تحتاج إلى عرض طويل للندم. قد يكفي أن تكف، وأن تعتذر حيث يلزم، وأن ترد النقاش إلى حدود العدل. لا تطلب أن ينتهي خلافك كله قبل أن تتوقف عن الظلم. تستطيع أن تختلف مع إنسان وتطالبه بحقك، مع حفظ لسانك ويدك عن تجاوز لا يجيزه اختلافكما.

وقد نستخدم النصوص على الطرف الآخر استخدامًا غير أمين؛ نذكر العفو لنمنع صاحب حق من المطالبة، أو نطالب المظلوم بالصبر لنبقي الظالم مرتاحًا. هذا ليس من فعل الحر، الذي منع اندفاعًا في موضعه بتذكير صحيح. من ينصح يحتاج أن يراقب الله في توظيف النص، وألا ينتزع منه ما يخدم مصلحته أو مصلحة القوي.

ومن أراد أن يكون سريع الرجوع عند الغضب، فليتدرب عليه في المواطن الصغيرة. يقبل تصحيح معلومة، ويعتذر عن تأخر، ويعترف بأن غيره أحسن في مسألة. هذه الأعمال تضعف حاجة النفس إلى أن تكون مصيبة دائمًا. وإذا وقع الخلاف الشديد، وجد العبد في عاداته السابقة ما يعينه على التواضع.

ولا نجعل توقير القرآن قراءة في وقت السكون فقط. من توقيره أن يكون له حكم في أفعالنا حين يشق علينا العمل. نقرأ العدل ثم نعدل مع من نكره، ونقرأ الوفاء ثم نفى بما لم يعد يوافق هوانا. حين يصل النص إلى هذا الموضع من الحياة، يكون قد تجاوز في نفوسنا حد الألفة إلى أثر الطاعة.

وقف عمر عند الآية، وبقي الخبر يُروى لأنه يكشف سلطان الوحي في القلب. فلنسأل الله أن يجعل لنا حظًا من هذا الوقوف؛ نغضب فلا نتجاوز، ونسمع الحق فلا نستكبر، ونقبل أن يذكرنا به من شاء الله. ليس إصلاح النفس أن لا تحتاج إلى تذكير، بل أن يكون فيها استعداد للعودة إذا ذكرت.

ما الذي صغر في أعيننا؟

قال أنس رضي الله عنه:

إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، إِنْ كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُوبِقَاتِ.^{٦٤}

وروى الحارث بن سويد:

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ، حَدِيثَيْنِ أَحَدُهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْآخَرُ عَنْ نَفْسِهِ، قَالَ إِنْ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ . فَقَالَ بِهِ هَكَذَا قَالَ أَبُو شَهَابٍ بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ. ثُمَّ قَالَ لِلَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مِنْزِلًا، وَبِهِ مَهْلَكَةٌ، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً، فَاسْتَيْقِظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، حَتَّى اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ، قَالَ أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي. فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ.^{٦٥}

٦٤. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من محقرات الذنوب، رقم 6492.

٦٥. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة، رقم 6308. صدر الرواية من كلام ابن مسعود، وخبر الفرح بالتوبة مرفوع إلى النبي ﷺ.

نحتاج إلى هذا الجمع. من استصغر الذنب ربما لم يتب منه، ومن ظن أن الذنب أغلق الرحمة ربما لم يرجع أيضًا. الطريق أن نعرف الخطأ باسمه، ونحزن لتقصيرنا بقدر يعين على الإصلاح، ثم نستغفر ونتوب ونعمل. الخشية النافعة لا تحولنا إلى أسرى للماضي، والرجاء الصادق لا يحول المخالفة إلى أمر لا يستحق الانتباه.

قد تصغر الكلمة في أعيننا لأنها تتكرر في المزاح؛ سخرية من هيئة، أو خبر لا نعلمه، أو ذكر عيب يكره صاحبه أن ينشر. وقد يصغر أخذ المال لأنه قليل، أو تأخير الحق لأن صاحبه ساكت، أو إخلاف الوعد لأن الجميع يفعلونه. معيار المراقبة ليس مقدار اعتيادنا، بل حكم الفعل وما يترتب عليه من حق لله أو لعباده.

ولا تعني عظمة المعصية أن نستوي في الحكم على كل خطأ، أو أن نرفع الصفائر إلى أحكام الكبائر من عندنا. مراتب الأعمال تعرف بالدليل، لا بشدة لهجة الواعظ. المقصود ألا نحتقر ما نهى الله عنه، وأن نتعلم حكمه، وأن نتوقف عن تبريره بالألفة. الدقة في العلم جزء من الخشية، وليست تهوينًا من الدين.

ومن علامات الحاجة إلى المراجعة أن ننزعج من اسم الخطأ أكثر مما ننزعج من وقوعه. إذا قيل لنا إن هذا ظلم بحثنا عن لفظ آخر، وإذا قيل إن القول غيبة قلنا إننا نعرف صاحبه ونحبه. قد تكون لدينا تفاصيل تغير الحكم فعلاً، فنذكرها بصدق؛ وقد نكون نغير الأسماء لنستريح. يعرف العبد شيئاً من هذا إذا سأل نفسه بعيداً عن الدفاع أمام الناس.

وللتوبة أثر عملي يحفظها من الدوران. تحدد الفعل، وتترك سببه ما استطعت، وترد حقه إن تعلق بغيرك، وتستغفر ربك. ربما كان اعتذار واضح أنفع من صفحات تكتبها في لوم نفسك، وربما كان إيقاف عادة يومية أصدق من وعد كبير لا تغير معه شيئاً. ليست الجدية في مقدار الألم الذي تصفه، بل في الإصلاح الذي تبدأه.

ومن الرحمة ألا نستعمل كلام أنس لاتهام كل جيل بعده بانعدام الخير. هو تذكير نافع بمقدار الخوف من الذنب، ونحن نتلقاه لنراجع أنفسنا. ما زال باب التعلم والتوبة والعمل مفتوحاً، ولا يرفعنا على من نلومهم أننا حفظنا هذا الأثر. أول من يحتاج إلى وقفة عنده من يرويه.

وقد يصحب الإنسان قوماً يهونون كل خطأ حتى يشعر أنه لا يحتاج إلى تغيير. فاختر من يذكرك برفق، ولا يصنع من معاصيك مادة تسلية أو يأس. صاحب النافع لا يطلب منك كمالاً لم يبلغه أحد، لكنه لا يساعدك على تسمية الاسترسال حرية، أو تسمية ظلم الناس قوة شخصية.

وحين ترى خطأ عند من تحب، فبينه بقدر العلم والحاجة، لا برغبة في تخويفه إلى آخر طاقته. قد يكون لا يعرف الحكم، أو لا ينتبه للأثر، أو يحتاج إلى عون على الترك. الكلام الذي يفتح له طريقاً واضحاً أقرب إلى التربية من كلام يجعله يشعر أن كل ما في حياته محكوم بالفشل.

يدعونا أثر أنس إلى الانتباه لما صغر في أعيننا، وإلى عمل يتجاوز الإعجاب ببلاغة التشبيه. فلنسأل هذا السؤال بهدوء: أي خطأ اعتدته حتى لم أعد أراه؟ ثم نبدأ بإصلاحه، ونرجو المغفرة، ونحمد الله إن أيقظ في قلوبنا خوفاً يردنا إليه ولا يقطع رجاءنا فيه.

حين جثا أبو إدريس

روى أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعَمُونِي أَطْعَمَكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصَيْهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ . قَالَ سَعِيدٌ كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ .^{٦٦}

٦٦. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم 2577. وخبر جثو أبي إدريس من رواية سعيد بن عبد العزيز؛ ليس أمراً بالتزام هذه الهيئة.

قد يقرأ الإنسان بعض هذه المعاني منفصلاً عن بعض؛ يسمع النهي عن الظلم فيخاف، أو يسمع المغفرة فيرجو. لكن اجتماعها يربي القلب تربية أوسع: ربك لا يظلمك، وأنت منهى عن ظلم الناس، وأنت محتاج إليه، وهو غني عنك، وأعمالك محفوظة، وباب السؤال والمغفرة مفتوح. ليست المراقبة خوفاً بلا ملجأ، ولا رجاء يلغي الحساب.

من هنا يتبين خطأ أن نظن أن عبادتنا نفع نقدمه لله فيحتاج إليه. نحن الذين نحتاج إلى هدايته وإلى ثواب الطاعة، وهو سبحانه الغني. هذه المعرفة تحفظنا من المنة؛ فلا نعامل التزامنا كأنه سبب يلزم الله أن يحقق لنا كل ما نختاره، ولا نقول عند أول شدة: صليت، فلماذا جرى لي هذا؟

وإحصاء العمل يردنا إلى مسؤوليتنا من غير أن يسلبنا الرجاء. ما نفعله ليس ضائعاً، صغيره وكبيره. قد تنسى أنت إحساناً أو إساءة، لكن النسيان لا يمحو حقيقة ما وقع. هذا باعث على الجد في الخير، وعلى إصلاح الضرر، وعلى التواضع إذا رأيت من نفسك حسنة؛ فمن وجد خيراً فليحمد الله.

وتأتي طلبات الهداية والطعام والكسوة قريبة من حياة الناس. لا ينفصل القلب عن حاجات البدن، ولا يصبح السؤال عن رزق مباح أمراً صغيراً لا يليق بالدعاء. اسأل الله أن يهديك، واسأله ما يعينك على حياتك، ثم اسع في الأسباب التي أباحها. لا تحتاج إلى أن تخفي حاجتك حتى تبدو أعلى من شؤون البشر.

أما المغفرة فنحتاج إليها بالليل والنهار. قد يمنعك الخجل من تقصيرك أن تدعو، فتزداد بعدًا بسبب الذنب بدل أن تتوب منه. الحديث يردك إلى الاستغفار، لا إلى الاستسلام. لا يجعل تكرر الخطأ أمرًا حسنًا، لكنه لا يترك المخطئ بلا باب يرجع منه. صدق الاعتراف يختلف عن الرضا بالإصرار.

وللظلم صور نحتاج أن نسميها في حياتنا: كلمة نقطع بها حق إنسان في الدفاع، ومال نمسكه بغير حق، وإجراء نستعمله للإذلال، ومعلومة نحرفها لننصر أنفسنا. لا يقتصر الظلم على ما يقع من البعيد والقوي المشهور. قد يكون تحت يد كل واحد منا موضع صغير يستطيع أن يعدل فيه، وهو مسؤول عنه.

وإذا علمت غيرك، فلا تكتفِ بأن تثير انفعاله ثم تتركه بلا فهم. بين له ما يمنعه الحديث وما يفتح له، وأين يكون ذلك في يومه. الكلام عن الغنى الإلهي ينبغي أن يعلم التواضع، والكلام عن المغفرة ينبغي أن يدعو إلى التوبة، والكلام عن الظلم ينبغي أن يعيد حقًا لا أن يزيد قسوة الواعظ.

جلس أبو إدريس يروي حديثًا عظيمًا، فحمل الرواة إلينا النص وأثرا من تعظيمه. وبين يديك اليوم معانيه: لا تظلم، واطلب الهداية، واسأل ربك، واستغفره، واعمل وأنت تعلم أن عملك محفوظ. نرجو أن نقرأه بقلوب محتاجة، ثم يخرج معناه معنا إلى من ينتظرون منا عدلاً ورحمة ووفاء.

أرجو له الخير

أخبرت أم العلاء رضي الله عنها:

أَنَّهُ افْتِسِمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، فَأَنْزَلْنَاهُ فِي أَبْيَاتِنَا، فَوَجَعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوفِّي فِيهِ، فَلَمَّا تُوفِّيَ وَغُسِّلَ وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ، دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهِدَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ. فَقُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ فَقَالَ أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهُ مَا أَدْرِي - وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ - مَا يُفْعَلُ بِي. قَالَتْ فَوَاللَّهِ لَا أُرْكَى أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا.^{٦٧}

كانت محبتها للصالح ومعرفتها بخيره ظاهرتين، لكن المحبة لا تجعل ما نرجوه علماً بالغيب. هذا أدب يحتاجه القلب في ساعات الشئ والفقد: ندعو ونرجو ونذكر الخير الذي نعلمه، ولا نزيد شهادة على مصير شخص لم يشهد له النص. لا تصبح المواساة أكثر رحمة لأننا جزمنا فيها بما لا نعلم.

^{٦٧} صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفه، رقم 1243. وفي هذه الرواية «ما يفعل بي»؛ بين ابن حجر أنه قبل نزول آية المغفرة من سورة الفتح، وذكر احتمال نفي العلم بالتفصيل؛ فتح الباري، شرح الحديث نفسه.

وليس في هذا إغلاق لباب حسن الظن أو حرمان لأهل الميت من الرجاء. قال النبي ﷺ إنه يرجو له الخير، والرجاء واسع حين يقوم على رحمة الله وحسن الظن به. الفرق أن نبى عبداً نسال، لا أصحاب أحكام على ما اختص الله بعلمه. نستطيع أن ندعو بالمغفرة ونعزي برفق ونذكر العمل الصالح دون أن ندعي معرفة القبول تفصيلاً.

ونحتاج إلى الأدب نفسه مع الأحياء. قد نرى إنساناً يجتهد في الخير، فنمدح ما عرفنا منه بقدره. لكن لا نجعل ثناءنا عصمةً له من الخطأ، أو سبباً ليأمن على قلبه، أو حجة تمنع الناس من طلب حقهم عنده. نحب الصالحين، ونقبل العلم، ونعرف أن كل أحد دون الأنبياء قد يصيب ويخطئ.

والمراقبة في موضع الثناء أخفى من المراقبة في الخصومة. لا يبدو أن هناك أذى، فالناس يسمعون كلمات جميلة، لكن المبالغة قد تفسد المنقول وتغر من يمدح. اسأل نفسك قبل القول: هل أعلم هذا؟ وهل يحتاج المقام إليه؟ وهل أذكر عملاً ثبت، أم أصف سريرة لا أعرفها إلا مما أرجوه؟

وقد تكون أنت من يسمع الثناء. افرح بالخير من غير أن تعتمد على كلام الناس في الحكم على نفسك. أنت أعرف ببعض نقصك، وتحتاج إلى مغفرة الله مهما أحسنوا الظن بك. لا يلزم أن تكشف ذنوبك لتوازن مدحهم، بل اشكر الله على الستر، واسأله الإخلاص، واعمل على إصلاح ما تعلمه من نفسك.

وفي مجالس العزاء يشهد احتياج الناس إلى الرحمة. قد تكون الكلمة الصادقة القصيرة أنفع من أوصاف طويلة يضيع فيها الضبط. ادع للميت، وأعن أهله على ما يلزم، واحفظ حقه ووصيته وما بقي عليه. لا تجعل كثرة الحديث عنه بديلاً عن عمل نافع يصل إلى من تركهم وراءه.

ولا نحكم على الميت من صورة عابرة أو قصة مجهولة يتناقلها الناس بعد وفاته. قد تُنسج الأخبار لإثبات علامة قبول أو شقاء، وهي لا تقوم على علم. الذي نحفظه هو النص الصحيح، والدعاء المشروع، وذكر المعروف بصدق. احترام الغيب أن لا نملاً ما لا نعرفه بحكايات لأن القلوب تتأثر بها.

وقبول أم العلاء للتصحيح يعلمنا سرعة الرجوع في هذا الباب. لم يكن قصدها أذى، ومع ذلك احتاج كلامها إلى ضبط. حسن القصد لا يمنع أن نتعلم عبارة أصح، ولا يجعل تصحيح الناصح اتهاماً لنا. قد نصنع خيراً أكبر حين نقول بعد البيان: سأقول ما أعلمه، وأرجو ما لا أعلمه، وأترك الحكم لله.

وهذا الأدب يريح القلب من تكليف نفسه توزيع المنازل. لا تحتاج أن تعرف من هو الأفضل عند الله في كل مجلس، ولا أن تقارن سرائر الناس لتثبت فضل من تحب. لك أن تنتفع بالخير، وتدعو لأهله، وتحفظ حقوقهم، وتعمل على قلبك أنت. هذا ما تحت قدرتك وما تحتاج إليه حاجتك الأقرب.

أرجو له الخير؛ عبارة تحتل المحبة والصدق معًا. فلنحفظها حيث يليق الرجاء، ولنترك الجزم لما ثبت به النص. نراقب الله في تعظيم الناس كما نراقبه في نقدهم، ونسأله أن يرحمنا إذا صرنا إلى ما صاروا إليه، وأن يجعل ما يبقى من ذكرنا خيرًا صادقًا لا مبالغة فيه ولا دعوى.

الباب السابع: علم يربّي المراقبة

قد تؤثر فيك عبارة لا تعرف مصدرها، ثم تبني عليها حكمًا في نفسك أو في غيرك. وقد تسمع جوابًا واثقًا فتطمئن إلى نبرته قبل أن تفهم دليله. والقلب الذي تريد إصلاحه يستحق علمًا أمينًا؛ لا كل مؤثر صحيح، ولا كل كلام شديد أقرب إلى التقوى.

ومعرفة الله التي تنفعك لا تصنع فيك استغناء عن التعلم. تتعلم أسماءه على ما جاء به الوحي، وتساءل عن أحكام ما تعمل، وتراجع المعنى إذا ظهر لك أنك فهمته على غير وجهه. لا يُنقصك أن تقول: لم أعلم، ثم تعلم. الذي يضر أن تحمي خطأك لأنه صار جزءًا من صورتك أمام الناس.

وفي صحبة العلماء ما يعلّمنا الأمانة مع المعرفة: الاعتراف بالحد، وحفظ النص، والتمييز بين خبر ثابت ورأي صاحبه. نحب أهل العلم وننتفع بهم، ولا نعطي بشرًا عصمة لم يجعلها الله له. ونرجو أن ينتهي علمنا إلى عبادة أوفى ورحمة أكثر، لا إلى قدرة على مجادلة الناس ثم الغفلة عن أنفسنا.

مِمَّنْ تَأْخُذُ مَا يَصْلَحُ قَلْبُكَ؟

قال محمد بن سيرين رحمه الله:

إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم.

وقال:

لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم.^{٦٨}

وقال أبو الزناد:

أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون. ما يؤخذ عنهم الحديث يقال ليس من أهله.^{٦٩}

قد يكون الإنسان صالحًا في نفسه، محبوبًا عندك، لكنه لا يتقن المسألة التي يتكلم فيها. محبته لا تعطي قوله ما ليس له، واحترامه لا يمنع سؤال من هو أعلم منه.

٦٨. صحيح مسلم، المقدمة، باب في أن الإسناد من الدين وأن الرواية لا تكون إلا عن الثقات؛ أثر ابن سيرين، رقما 26 و 27 في ترقيم المقدمة.

٦٩. صحيح مسلم، المقدمة، الباب السابق، أثر أبي الزناد، رقم 30 في ترقيم المقدمة.

وعندما تبحث عن كلام يرقق قلبك، تكون حاجتك إلى هذا التمييز أشد، لا أقل. فالعبارة المؤثرة قد تدخل إلى النفس قبل أن تسأل عن صحتها. تسمع قصةً تنتهي بنجاة عجيبة، فتطمئن إليها، ثم تبني عليها انتظاراً لم يأت به الوحي. أو تسمع وعيداً شديداً فتخاف، مع أن من قاله لم يثبت نسبته. ليس كل ما أبكنا علماً، وليس كل ما أراحنا حقاً. لا يدعونا ابن سيرين إلى أن نحقر الناس أو نسوء الظن بهم جميعاً. يدعونا إلى حفظ الدين الذي نلتقاه. حين تحتاج إلى جواب في عبادة أو معاملة، فاسأل من عُرف بالعلم والأمانة، ولا تجعل موافقته لرغبتك وحدها سبب الثقة به. وحين ينقل لك أحد حديثاً، يستطيع أن يذكر مصدره، أو يقول إنه لا يعرف درجته. الاعتراف بحدود العلم أمانة، لا نقص يستر بالكلام الكثير.

ومن مراقبة الله أن نحفظ هذه الأمانة ونحن ننقل إلى غيرنا. ربما وصلت إليك رسالة جميلة، وتستطيع أن ترسلها إلى أناس كثيرين بضغطة واحدة. قف قليلاً: هل ثبت الحديث الذي فيها؟ وهل العبارة قول عالم حقاً؟ ليس المطلوب أن تصير محدثاً قبل أن تنصح، وإنما ألا تنسب ما لا تعلم. لديك من القرآن والحديث الثابت ما يكفي للتذكير، فلا تتعلق بالمجهول لأن قصته أشد إثارة.

وقد يكون الدافع إلى النقل حب الخير، لكنه يختلط بحب أن نكون أصحاب أثر في الناس. نريد أن يشكرونا على الموعظة، أو يروا فينا العلم، فنستعجل ما لا نتقنه. هنا تعود المراقبة إلى أصلها: الله يعلم لماذا نتكلم، ويعلم ما نعرفه وما ندّعيه. لا يحسن أن نربي غيرنا على الصدق ونحن نتهاون في صدق النسبة إلى رسوله ﷺ.

إن تبين لك بعد النشر أن الخبر غير صحيح، فالتصحيح من تمام النصيحة. أخبر من أرسلته إليهم بما عرفت، واحذف النسبة الخاطئة حيث تستطيع. لا تجعل الخجل من الاعتراف سبباً لاستمرار الخطأ. وقد لا يلتفت الناس إلى تصحيحك كما التفتوا إلى القصة، لكنك لا تعمل لتقيس قيمة الصدق بعدد من أثنوا عليه.

والقلب الذي يعتاد العلم الموثوق لا يفقد الوجدان. بل يجد في الموقف الصحيح ما يغنيه عن اختراع التفاصيل. يكفي أن نرى يوسف عليه السلام يختار طاعة الله، أو نسمع أبا مسعود يتلقى التحذير فيترك السوط، حتى نعرف موضع حاجتنا. صدق الخبر يمنح العبرة قوتها؛ فلا نخشى أن يزول أصلها حين تُسأل عن مصدرها.

قد لا تستطيع أن تراجع كل ما يمر بك، ولا يلزمك أن تشاهد كل من يتكلم. اختر لنفسك وقتاً تتعلم فيه بهدوء، ومصدراً موثقاً، وسؤالاً واضحاً. لا تجعل كثرة المقاطع بديلاً عن فهم أصل واحد والعمل به. وربما كان أنفع ما تتعلمه اليوم أن تصحح حديثاً كنت تنقله، أو تتوقف عن فتوى لا تحسنها، أو تعترف بأنك تحتاج إلى سؤال.

لقد حفظ الرواة كلمة ابن سيرين، فبقيت تنبّه من يأتي بعده. ونحن نحتاج إلى معناها في زمن تتسع فيه طرق الكلام. سل نفسك، وأنت تعطي قلبك لمن يوجهه: هل يقودني إلى علم وطاعة، أم يملأ نفسي بالانفعال وحده؟ العلم الذي نطلبه دين؛ فلنأخذه بأمانة، ولنبلّغه بأمانة، ولنسأل الله أن ينفعنا بما علمنا.

رسالة تخاف على العلم

كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم:

انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء.^{٧٠}

وقال رسول الله ﷺ:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا، يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا.^{٧١}

حين يغيب العالم، لا يُعوّض فقدّه مجرد وجود من يستطيع الكلام. وكانت خشية عمر سبباً لفعل يحفظ الخير، لا كلاماً عن الأسف وحده. لا تحتاج إلى منصب عمر بن عبد العزيز حتى تفهم أثر المراقبة في هذا الموقف. كان أمامه خير يخشى ضياعه، فاستعمل ما يستطيع لحفظه. ونحن أماننا أمانات أصغر في ظاهرها: علم تعلمناه، وولد

٧٠. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، قبل الحديث 100. أسند البخاري رسالة عمر إلى قوله «وذهاب العلماء»، اقتصر النقل على هذه الرسالة التامة في روايته المسندة، ولم يلحق بها بقية كلام الترجمة. ٧١. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، رقم 100.

ينتظر أن نعلّمه، وخطأ في فهم قريب نستطيع أن نصحه، وحق يحتاج إلى كتابة تحفظه. الخشية النافعة تسأل: ماذا أستطيع أن أفعل الآن؟

قد نكثر الحديث عن ضعف التربية، ثم لا نصبر على سؤال طفل. ونتأسف على غياب العلم، ثم لا نجعل في يومنا وقتًا نتعلم فيه. وبين التألم على حال الناس وأداء ما نقدر عليه مسافة يقطعها الصدق. لا يلزم أن تحمل عمل أمة كاملة، لكن لا تجعل اتساع الحاجة حجة لتترك نصيبك منها.

وفي الرسالة احترام للعلم نفسه؛ طلب كتابة حديث رسول الله ﷺ، لا اختراع كلام يرضي السلطان أو يوافق المزاج. ومن راقب الله في التعليم لم يزاحم النص برغبته. إذا لم يعرف الجواب بحث وسأل، وإذا أخطأ رجع، وإذا علّم فرّق بين الحكم الثابت ورأيه الشخصي. لا يحق للمعلّم أن يجعل مكانته عند المتعلم سببًا لتمرير ما لا يعلم.

والخوف من ضياع العلم لا يبرر الاستعجال في نشر كل شيء. الحفظ يحتاج إلى فهم ونسبة صحيحة وصبر. قد تجمع كلمات كثيرة في ملف، ثم لا تعرف أيها صحيح وأيها يحتاج إلى مراجعة. ليس هذا هو الخير الذي نرجوه. ابدأ بما تحققت منه، وأبق ما لم يتبين في موضع السؤال، ولا تجعل كثرة المادة أعظم عندك من سلامتها.

وللمتعلم أمانة كذلك. إن سمع جوابًا لم يفهمه، لم ينقله إلى غيره كأنه أحاط به. وإن عرف أن المسألة فيها تفصيل، لم يختصرها اختصارًا يغيّر حكمها. بعض الأخطاء لا تنشأ من تعمد الكذب، بل من رغبة أن ننتهي سريعًا، أو أن نظهر أننا فهمنا قبل أن نفهم. مراقبة الله تعين على احتمال قول: أعد عليّ، أو وضّح لي.

وفي البيت يمكن أن يبدأ حفظ العلم بسؤال عملي: كيف نصلي؟ ما معنى هذه الآية؟ لماذا نرد المال الزائد؟ حين يسمع الطفل الجواب ويرى أثره في فعلك، يجد للدين حضوراً مفهوماً. أما أن تحفظه كلمات ثم تخالفها أمامه بلا اعتذار، فذلك يضعف أثر ما يسمع. لا يلزم أن تكون بلا خطأ حتى تعلّمه؛ لكن يلزمك أن تصدق في الرجوع إذا أخطأت.

وإذا أعانك الله على تعليم نافع، فلا تشغلك صورته عند الناس عن حقيقته. قد يكون حديث هادئ مع شخص واحد أنفع من كلام واسع الانتشار، وقد يبلغ الخير أناساً لا تعرفهم. أنت مطالب بالإخلاص والإتقان فيما تستطيع، لا بضمان النتائج. لا تتكلف وعداً بأن كل من علمته سيعمل فوراً، ولا تترك التعليم لأن الثمرة لم تظهر حين أردت.

كتب عمر رسالةً في أمر خاف فواته. ولعل في حياتك أمراً صالحاً تؤجله من غير عذر: سؤال علم، أو تعليم أهل، أو حفظ أمانة. اجعل معرفتك برقابة الله باعثاً إلى أداء نصيبك، لا إلى لوم نفسك بلا عمل. ما بين يديك اليوم قد لا يبقى غداً؛ فاعمل بما علمت، وتعلم ما تحتاج إليه، وارحُ من الله أن يحفظ عليك دينك.

أسماء تعرف بها ربك

ما المعرفة التي تعين صاحبها على الصدق حين لا ينفعه تصنّع للناس؟
يقول ابن القيم:

المراقبة: دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على
ظاهره وباطنه. فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة وهي
ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله. وهو
مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة، وكل نفس وكل طرفة عين.
والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات. فكيف بحال
المريدين؟ فكيف بحال العارفين؟

ويقول في الفصل نفسه:

والمراقبة هي التعبد باسمه الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير،
فمن عقل هذه الأسماء، وتعبد بمقتضاها: حصلت له المراقبة. والله
أعلم.^{٧٢}

فالعمل القلبي لا يقوم على تفتيش النفس وحده، بل على معرفة من
تعبد.

٧٢. ابن القيم، مدارج السالكين، منزلة المراقبة، فصل حقيقة المراقبة، 65/2-66؛ فقرة التعريف وفقرة التعبد
بالأسماء، كل منهما مستقلة.

وقد رأينا في شكوى المرأة إلى رسول الله ﷺ معنى السمع، وفي استعاذة مريم معنى الاعتصام، وفي أمانة العامل معنى العلم بالسر والعلن. الأسماء ليست ألفاظًا جميلة تُحفظ ثم تبقى بعيدة عن القرار. نؤمن بها على الوجه اللائق بالله، ونتعلم معانيها الصحيحة، ثم يظهر أثر المعرفة في دعائنا وامتثالنا ورجائنا.

الله السميع؛ فإذا دعوت فادع من يسمعك، وإذا هممت بغيبة فتذكر أنه يسمع ما تقول. وليس سماعه كسمع خلقه، ولا نرد الصفة إلى مجرد العلم فنلغي معناها. نثبت ما أثبتته لنفسه، ونحذر الكلام بغير علم في كيفيته. أنت لا تحتاج إلى خيال ترسمه حتى يصدق قلبك؛ يكفيك خبر الله الذي لا يحيط الخلق به علمًا.

والله البصير؛ يرى عملك الذي تخفيه، ويرى خيرًا لا يسجله أحد من الناس. قد تتشابه صورتان في أعيننا، ويختلف ما وراءهما من قصد وأمانة. ليس لك أن تجعل ما خفي عليك من أعمال غيرك موضع حكم جازم، لكن لك أن تصلح العمل الذي تختاره أنت. حين تترك ما حرم الله في خلوة، فهذه معرفة وجدت طريقها إلى الفعل.

والله العليم؛ يعلم ما ظهر وما بطن، وما نعلنه وما نحاول أن نستتر به حقيقة قصدنا. هذه المعرفة تمنع الحيلة على الحق، وتعين على الصدق في الدعاء. لا يحتاج العبد أن يقدم لربه عذرًا مصطنعًا؛ يسأله وهو يعترف بتقصيره، ويطلب فضله وهو يعلم فقره. ومن اتساع الرجاء أن يعلم الإنسان أن خيرًا خفيًا في حياته لا يخفى على الله.

وقد يختار الإنسان لنفسه تذكيرًا مناسبًا للموقف، من غير اعتقاد لفظ خاص يجب تكراره. قبل كلام مؤذٍ يتذكر سمع الله. وعند مال مشتبه يتذكر علمه ومحاسبته. وعند هم يخفيه عن الناس يتوجه إلى من يعلم حاجته. ليس المطلوب أن يعدد الأسماء كلها في كل لحظة، بل أن ينتفع بما تعلمه منها في الموضع الذي يحتاج إليه.

ومعرفة الرقيب لا تحول حياتك إلى خوف من نظر الناس، بل تحررك من جعلهم غاية العمل. قد يحاسبك مدير على تقصير، وتحتاج إلى تنظيم ومتابعة، لكنك لا تؤدي الأمانة من أجله وحده. وقد يشرك أحد، فتفرح من غير أن تبيع صدقك بثنائه. تبقى المعايير الصحيحة للعمل قائمة، ويعلو عليها قصد رضا الله الذي لا يعرفه الناس كله.

ولا تستعمل هذه المعاني لتخويف طفل بكلام مختلق. علّمه أن الله يسمع دعاءه، ويحب منه الصدق، وأنه يتوب على من رجع إليه. وبيّن له الخطأ وحدوده بعبارة يفهمها. لا تنسب كل أذى يقع له إلى عقوبة عن شيء فعله؛ فذلك علم غيب لا نملكه، وقد يحمله على سوء ظن لا نريد تربيته عليه.

ستعود إلى صلاتك وكلامك وحقوق من حولك. فاجعل معرفتك بالله عونًا على صدق كان يشق عليك، ودعاء كنت تغفل عنه، وحق كنت تؤخره. هذه ثمرة نرجوها من تعلم أسمائه، لا مجرد حفظ ألفاظها.

ما كان يقوّي قلب الشيخ

قال ابن القيم في فوائد الذكر:

السادسة عشرة: أنه يورث حياة القلب، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسّمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟!

السابعة عشرة: أنه قوّت القلب والروح؛ فإذا فَقَدَ العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوّته. وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرّةً صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أَتَغَدَّ هذا الغداء لسقطت قوّتي، أو كلامًا قريبًا من هذا. وقال لي مرّة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحته؛ لأستعِدَّ بتلك الراحة لذكرٍ آخر، أو كلامًا هذا معناه.^{٧٣}

ما يجعل هذا الموقف قريبًا منا أنه يضع إلى جانب العلم عنايةً بالعمل. يستطيع المرء أن يشرح الذكر طويلاً، ثم يهمل نصيبه منه. وأن يكتب عن المراقبة، ثم لا يعود إلى نفسه عند الخطأ. ليس في هذا سبب لترك العلم، بل دعوة إلى ألا يكون ما نعرفه بعيدًا عما نفعله. يحتاج المعلّم والمتعلّم إلى هداية الله وعونه معًا.

٧٣. ابن القيم، الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب، تحقيق عبد الرحمن بن حسن بن قائد، ص 96؛ الفائدتان السادسة عشرة والسابعة عشرة.

ولا تجعل زمن جلوس ابن تيمية مقدارًا لازمًا لك أو لغيرك. هذا خبر عن عمله في ذلك الصباح، وليس سنة تحدد للناس جميعًا أن يبقوا إلى الوقت نفسه. تختلف الواجبات والقدرات والأحوال، ومن الناس من يجب عليه أن يخرج إلى رزق أو رعاية. المقصود أن يبقى للذكر موضع محفوظ في حياتنا، وأن نُؤدي ما ثبت من الأذكار، لا أن نقلد صورة ثم نضيّع حقًا.

وقد يكون نصيبك في يوم مزدحم يسيرًا، لكنك تصدق فيه وتداوم عليه. تحافظ على أذكارك المشروعة، وتذكر الله في طريقك، وتستغفر إذا عرفت ذنبًا، ولا تجعل الدعاء آخر ما يبقى بعد نفاذ الوقت. هذا أنفع من خطة واسعة تثير الحماسة أيامًا ثم تسقط كلها. ومراقبة الله تعين على أداء القليل بإخلاص، ثم الزيادة حيث تتسع الاستطاعة.

ومن الجميل في شهادة ابن القيم أنه كان ينتفع بما يراه، لا بما يسمعه وحده. قد يجد المتعلم في فعل معلمه جوابًا عن سؤال لم ينطق به: هل يحتاج العالم إلى الذكر بعد كل ما حصل؟ نعم، لا يغنيه علمه عن العبادة. وهل تكفي قوة الفهم لصلاح القلب؟ لا، يحتاج إلى العمل والافتقار. ليست منزلة العلم نهاية الطريق إلى الله؛ بل يحمل صاحبها مسؤولية ما عرف.

وللعبادة أثر يتجاوز مجلس الذكر إلى سائر اليوم. لا تنقطع عبوديتك حين تقوم من مكان الذكر إلى بر والديك أو وفاء عملك أو أداء أمانتك، إذا أصلحت قصدك والتزمت الحق. لكن لا تستخدم هذه السعة ذريعة لترك الصلاة والذكر، كأن أداء جانب يغني عن جميع الجوانب.

قد تجد أنك تنتظر من مجلس واحد أن يغيّر حياتك كلها. تتأثر، ثم يخف الأثر، فترى أنك لم تنتفع. جدد صلتك بالمعنى. المعرفة تحتاج إلى تذكّر، والعمل يحتاج إلى استمرار. ولا تقيس كل نفع بشعور قوي يظهر فوراً؛ قد تنتبه بعد مدة أنك أصبحت أسرع رجوعاً، أو أقل اندفاعاً في الغضب، أو أصدق في الاعتذار. فاحمد الله، ولا تزك نفسك. وفي صحبتك لمن ينتفع بعلمك، دعهم يرون أنك عبد محتاج، لا صورة للكمال. إن سألوك عما لا تعلم فاعترف، وإن أخطأت فصحح، وإن نصحتهم بالذكر فلا تجعل النصيحة بديلاً عن ذكرك أنت. لا يلزم أن تعلن عبادتك، لكن لا تحمل لنفسك استثناءً من الخير الذي تدعو إليه. أصدق التعليم ما حمل صاحبه على العمل قبل أن يطالبه من غيره. نخرج من ذلك الصباح بسؤال بسيط: ما الذي يغذي صلتى بالله في أيامي؟ ليس الجواب في تقليد زمن جلوس، بل في معرفة حاجتي، وحفظ ما شرع لي، وربط لساني وعملي بقلبي. سل الله أن يعينك على ذكره، وخذ بالأسباب التي تذكرك، ولا تستغن عن الرجوع إليه في الرخاء قبل الشدة.

محاسبة تعينك على الصلاة

عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه:

شُكِيَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّجُلُ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَجِدُ
الشَّيْءَ فِي الصَّلَاةِ قَالَ لَا يَنْصَرِفُ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا. ^{٧٤}

المقصود أن يتحقق الحدث، لا أن السماع والشم هما الطريقتان
الوحيدان إلى العلم به في كل حال. من تيقن انتقاض وضوئه عمل
ببقيته، ومن بقي على الشك لم ينقض ما تيقنه قبله. هذه دقة نافعة؛
لأن الإنسان قد يأخذ لفظًا صحيحًا ثم يفهمه على وجه يوقعه في
مشقة لم يدل عليها. ^{٧٤}

في ضوء هذا البيان، تستطيع أن ترى الفرق بين محاسبة النفس
والتفتيش الذي لا ينتهي. المحاسبة تسأل عن تقصير معروف، ثم تقود
إلى إصلاح ممكن. أما الدوران مع احتمال بعد احتمال فقد يترك
الإنسان عاجزًا عن إتمام عمل صحيح. ليس كل تعب يجده المرء في
عبادته علامة زيادة ورع؛ قد يحتاج إلى علم يرفع عنه الفهم الخاطئ.

٧٤. صحيح مسلم، كتاب الحيض، باب الدليل على أن من تيقن الطهارة ثم شك في الحدث فله أن يصلي بطهارته
تلك، رقم 361.

٧٤. صحيح مسلم، كتاب الحيض، باب الدليل على أن من تيقن الطهارة ثم شك في الحدث فله أن يصلي بطهارته
تلك، رقم 361.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. [الحشر: 18]. يفسر ابن كثير النظر بما قدمت النفس بمحاسبته، وتأمل ما ادخرته من العمل للمعاد. فالآية تدعو إلى فحص العمل والاستعداد، لا إلى صناعة ذنوب متوهمة من كل خاطر يعبر ولا يختاره صاحبه.^{٧٥}

إن عرفت أنك أخرت حقًا، فابحث كيف تؤديه. وإن تذكرت غيبة قلتها، فتب إلى الله، وأصلح ما تستطيع من أثرها. وإن كنت في صلاة فغفلت، فارجع إلى قراءتك ومعانيها. هذه خطوات لها محل تعرفه. أما أن تسأل بعد كل كلمة هل كنت صادقًا حقًا، ثم لا تقبل جوابًا ولا تمضي، فذلك لا يعينك على المقصود الذي بدأت من أجله.

قد يترك الشك أثره حتى بعد الوضوء: يتأخر المرء عن جماعته، ويضيق بمن ينتظره، ثم يدخل الصلاة منهكًا. تعلم الحكم هنا يحفظ للعبادة وقتها، ولمن حوله حقهم. وما استبان حكمه لا يحتاج إلى اختبار جديد لمجرد أن القلق عاد.

ومن الرفق النافع أن تحدد مسألة تشغلك، وتسأل فيها عالمًا موثوقًا، ثم تعمل بالجواب الذي فهمته بدل التنقل طلبًا لمزيد من الاحتياط بلا نهاية. وإن كان القلق مستمرًا يعطل حياتك، فطلب العون المناسب ليس عيبًا ولا اعترافًا بفساد الإيمان. لا ينبغي أن يبقى الإنسان وحده مع مشقة لا يحسن التعامل معها؛ يستطيع أن يجمع سؤال أهل العلم وطلب المساعدة المختصة عند الحاجة.

^{٧٥} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الحشر، الآية 18.

ولا تحمل ما قيل هنا على التهاون في الفرائض. الفرق واضح بين عمل تعرف أنك لم تؤده، وعمل أديته ثم صار الشك يطاردك. من راقب الله احترام العلم في الجانبين؛ لم يتساهل حيث يلزمه، ولم يشدد على نفسه بما لم يلزمه. الدين لا يصبح أقرب إلى الله كلما جعلناه أشق مما جاء به رسوله ﷺ.

وفي المحاسبة اليومية يكفي أن تختار خللاً تعرفه: موعد صلاة زاحمه السهر، أو انشغال كان يمكن إغلاقه قبلها. عالج السبب قبل الصلاة التالية. هكذا يكون السؤال طريقاً إلى إصلاح محدد، ثم ينتهي بانتهاء حاجته.

جاء السؤال إلى النبي ﷺ في شأن صلاة قد يفسد على صاحبها أمرها التوهم، فجاء الجواب يحفظها له. وفي هذا ما نحتاجه ونحن نعتني بقلوبنا: أن يكون العلم عوناً على العبادة، وأن تكون المحاسبة طريقاً إلى العمل، وأن نعرف أن رحمة الشريعة ليست خصماً من الجدية، بل مما يعيننا على الاستقامة.

ليست المراقبة تجسسًا

قال زيد بن وهب:

أَتَيْ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقِيلَ هَذَا فَلَانٌ تَقْطُرُ لِحَيْتُهُ حَمْرًا فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ إِنَّ
قَدْ نُهِينَا عَنِ التَّجَسُّسِ وَلَكِنْ إِنْ يَظْهَرُ لَنَا شَيْءٌ نَأْخُذُ بِهِ.^{٧٦}

يمكن أن تسمع هذا الخبر فتتعجب: أليس إنكار المنكر خيرًا؟ بلى، لكن
الخير لا يبيح كل وسيلة. هناك أحكام للعلم والإثبات والسلطة وحفظ
الحقوق. ليس كل فرد مأذونًا في تفتيش بيوت الناس وأجهزتهم، ولا
في بناء اتهام على ظن. ابن مسعود يذكر بحد شرعي، ولا يقول إن كل
خطأ ظاهر يُترك بلا معالجة.

وحين نتكلم عن مراقبة الله، فالأصل أن نتذكر اطلاعه علينا نحن. قد
يتحول الاهتمام بعيوب الآخرين إلى راحة زائفة للنفس؛ تقيس خطأك
بخطأ أشد، فتطمئن وتترك الإصلاح. أو تشعر أنك تحمي الدين كلما
كشفت سرًا، من غير أن تنظر هل أذن لك في كشفه. ليست كثرة
المعلومات عن الناس زيادةً في تقواك.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ
إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ
أَخِيهِ مِمَّا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾. [الحجرات: 12].
نهي يحفظ الخصوصية، ويمنع فضولًا قد يبدأ بسؤال عابر وينتهي

٧٦. سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في النهي عن التجسس، رقم 4890. أثر موقوف على ابن مسعود؛ صحح
الألباني إسناده.

بأذى طويل. تصل إليك رسالة ليست لك، أو يبقى جهاز مفتوحًا أمامك، أو تسمع بعض حديث خاص. وجود الفرصة لا يجعل التعدي حقًا. ومما يربي مراقبتك أن تترك ما تستطيع الاطلاع عليه لأن الله لم يأذن لك فيه.

ولا يعني حفظ الخصوصية تجاهل خطر حقيقي أو ظلم يحتاج إلى بلاغ مشروع. من يعلم اعتداءً لا يعالج الأمر بالصمت المطلق، بل يسلك الطريق الصحيح إلى من يقدر على حمايته ورفع الظلم. هناك فرق بين حماية المظلوم وبين التشهير، وبين دليل قائم وبين ظن يدفعه الفضول. وعند الالتباس نسأل أهل العلم والاختصاص، ولا نستخرج إذنًا واسعًا من نية حسنة.

وقد يحتاج الوالد إلى متابعة أولاده وتعليمهم وحمايتهم، لكن هذه المسؤولية لا تعني أن يربيهم على أنهم متهمون دائمًا. الحوار الواضح، والحدود المعروفة، ومتابعة ما يقتضيه العمر والخطر، أمور تختلف عن إذلالهم وكشف أسرار لا حاجة إلى كشفها. لا تستعمل اسم المراقبة الإلهية لتجعل سلطتك البشرية بلا حدود؛ أنت أيضًا محاسب على عدلك ورفقك.

وفي العلاقات بين البالغين، قد تفسد الشكوك قدرًا كبيرًا من الحياة. يسأل أحدهم ليختبر، لا ليفهم، ويتصيد اختلافًا في عبارة، ثم يجعله دليلًا على كل ما يخشاه. الرفق بنفسه وبمن حوله يبدأ بمعرفة ما يملك من علم وما لا يملك. إن كان هناك حق يحتاج إلى بيان فليطلبه بصراحة، لا بحيلة تزيد الريبة وتكسر الأمان.

ومن المراقبة أن تحفظ ما أوّمت عليه بعد تغير المحبة. ليست الخصومة إذنا بأن تنشر ما عرفته في زمن القرب. قد يكون عليك أن تطالب بحقك، لكن لا تخلط به أسرارًا لا تتصل بالمطالبة. إنما يظهر الوفاء حين يوجد ما يغري بنقيضه، وحين تستطيع أن تؤذي ثم تمنع نفسك لوجه الله.

وربما وجدت بعد ترك التجسس فراغًا من أخبار كنت تتابعها باستمرار. املاه بما يصلحك، لا بقناة أخرى إلى الأسرار نفسها. اقرأ علمًا، وتفقد حق أهلك، واسأل عن محتاج لتعيينه لا لتروي حاله. المعرفة التي لا يزيد بها خيرك ولا تحتاجها مسؤوليتك ليست كلها كسبًا؛ قد تحملك تبعة لا داعي إليها.

كان زيد ينقل موقف ابن مسعود وحده الواضح، فبقي للناس علم يضبط اندفاعهم. نستفيد منه أن مراقبة الله تُشعرنا بحدودنا قبل أن تمنحنا حديثًا عن حدود الآخرين. وما أجمل أن يلقي الناس منك أمانًا على ما استودعوك، وأن يعلموا أنك تنصح بصدق، ولا تجعل معرفة أسرارهم طريقًا إلى التسلط عليهم.

عشرون ليلة مع معلّم رحيم

قال مالك بن الحويرث رضي الله عنه:

أَتَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدْ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا أَوْ قَدْ اشْتَقْنَا سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا فَأَخْبَرَنَاهُ قَالَ ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ - وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظُهَا أَوْ لَا أَحْفَظُهَا - وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصْلِي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤْذَنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ وَلْيُؤَمِّمْكُمْ أَكْبَرُكُمْ.^{٧٧}

لم تكن الرحمة في هذا المجلس نقيضًا للتعليم. تعلموا الصلاة، وشاهدوا العمل، وحفظوا ما ينقلونه إلى غيرهم. وفي الوقت نفسه كان شوقهم إلى أهلهم أمرًا يُراعى، لا ضعفًا يلامون عليه. بقيت عبادتهم وعلاقتهم بأسرهم في حياة واحدة، ولم يُطلب منهم أن يثبتوا صدقهم بإلغاء حاجتهم الإنسانية إلى أهلهم.

ولعل هذا من أجمل ما نحتاجه حين نعلّم مراقبة الله للشباب. لا نكتفي بأمرهم أن يخافوا الخطأ، بل نقرب لهم طريق الصواب. نعلّمهم كيف يصلّون، وكيف يصحّون تقصيرًا، وكيف يسألون عما لم يفهموا. الخوف الذي لا يعرف صاحبه ماذا يعمل قد يحيره؛ أما البيان الرفيق فيعينه أن يبدأ، ويرى أن الخير ممكن في حياته.

^{٧٧} صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، والإقامة، وكذلك بعرفة وجمع، رقم 631.

وفي قوله: «كما رأيتموني» اتصال بين التعليم والقدوة. لم تكن الصلاة عندهم وصفًا مجردًا؛ رأوا النبي ﷺ يصلي. نحن لا نملك أن نكون معصومين، لكننا نملك أن نجتهد في موافقة ما نعلم. حين يراك ولدك تصدق في موقف صعب، أو تعتذر عن قسوة، أو تحفظ أمانة لا يطالبك بها أحد، يفهم من فعلك شيئًا لا تؤديه المحاضرة وحدها.

ومما يحفظ أثر القدوة ألا ندعي لأنفسنا ما ليس لنا. قد تخطئ أمام من تعلمه، فيكون اعترافك جزءًا من التربية. قل له إن هذا الفعل لم يكن صحيحًا، وأصلح أثره بقدر استطاعتك. ليست هيبة المربي في أن يخرج دائمًا بريئًا، بل في أن يكون الحق أكبر من رغبته في الظهور بمظهر لا يخطئ.

ثم عاد الشبان ومعهم مسؤولية تعليم أهلهم. لم يقل لهم النبي ﷺ إنهم فقدوا كل فائدة المجلس حين خرجوا منه. صار الرجوع نفسه موضع عمل بالعلم؛ صلاة يؤدونها، وتعليم يبلغونه، وأذان وإمامة يعرفون ما يفعلون فيهما. ومن هنا لا نحصر حياة القلب في الأماكن التي نحضر فيها المواعظ؛ ينبغي أن يصحبنا أثرها إلى المكان الذي نعيش فيه.

قد يخرج شاب من مجلس نافع، ثم يجد في بيته من لا يشاركه الحماسة نفسها. يحتاج إلى صبر ورفق، لا إلى أن يبدأ باتهام الجميع بالغفلة. يعمل بما تعلم، ويعلم ما يعرف، ويحسن السؤال عما لا يعرف، ويعطي الناس حقهم من الاحترام. ليس إصلاح الأسرة إعلانًا لتفوق من حضر درسًا، بل خدمة يطلب بها رضا الله.

وإذا كنت معلِّمًا، فلا تجعل بقاء المتعلم حولك هو مقياس نجاحه. ربما كان نفعه أن يرجع إلى أهله بعمل أصدق، لا أن يظل متعلقًا بمجلسك. دلّه على العلم والعمل، وأعنه أن يستقل بأداء واجباته. الناس لا يطلبون منا أن نصير غاية عبادتهم أو مصدر قبولهم؛ غاية النصيحة أن نعينهم على معرفة الله وطاعته.

ويمكن أن تبدأ هذه التربية بسؤال تصغي إلى جوابه حقًا. سأل النبي ﷺ الشبان عَمَّن تركوا، فكان لخبرهم موضع في توجيهه. لا تجعل نصائحك قالبًا واحدًا لا يلتفت إلى حاجات الناس. قد يكون أمامك طالب مجتهد يحتاج إلى طمأنة، أو متهاون يحتاج إلى بيان واجبه، أو خائف يحتاج إلى تصحيح فهمه. الرحمة تسمع قبل أن تحكم.

حفظ مالك عشرين ليلة من التعليم، وحفظ معها وصف الرحمة. ونرجو أن يبقى لمن نتعامل معهم شيء من هذا الجمع: علم صحيح، ورفق يعين على قبوله، وفعل يصدّق القول. حينها لا تكون المراقبة كلمة ترفعها عند الخطأ فقط، بل حياة يراها من حولك في صدقك، ويتعلمون منها أن طاعة الله تقرب الخير إلى البيوت.

حمل أمه، وبقي حقها

روى أبو بردة:

أنه شهد ابن عمر ورجل يمانى يطوف بالبيت، حمل أمه وراء ظهره، يقول: إني لها بغيرها المذل إن أذعرت ركبها لم أذعر. ثم قال: يا ابن عمر أتراني جزيتها؟ قال: لا، ولا بزفرة واحدة، ثم طاف ابن عمر، فأتى المقام فصلى ركعتين، ثم قال: يا ابن أبي موسى، إن كل ركعتين تكفران ما أمامهما.^{٧٨}

الحمل عمل ظاهر شاق، يستطيع الناس أن يروه. أما ما مضى من حمل الأم وولادتها ورعايتها، فقد غاب أكثره عن ذاكرة ولدها. لعل سؤال الرجل كان طلباً لمعرفة قدر ما أدى، فجاءه جواب يمنعه أن يختصر حقها في موقف واحد، مهما عظم. لا يقول ابن عمر إن العمل لا قيمة له؛ بل يذكر بأن الحق أوسع مما يظن صاحبه أنه وقّاه.

وهنا يدخل معنى المراقبة إلى البر. قد يسهل أن نؤدي عملاً يراه الناس، ثم يثقل علينا ما لا يرونه: الإصغاء لسؤال يتكرر، وتخفيف حاجة صغيرة، وحسن الكلام حين نتعب. ليس ظاهر البر مذموماً، لكن لا ينبغي أن يستأثر بالعناية بينما نترك ما يجري في البيت. الله يعلم المعروف الذي أعلنته، ويعلم الكلمة التي قلتها حين انصرف الزائرون.

٧٨. البخاري، الأدب المفرد، باب جزاء الوالدين، الأثر 11؛ سعيد بن أبي بردة عن أبيه في رجل يمانى حمل أمه عند الطواف وسأل ابن عمر. أثر موقوف؛ صحح الألباني إسناده في صحيح الأدب المفرد، رقم 9.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾. [الإسراء: 23]. في الآية عناية بأصغر تعبير عن الضجر، ثم أمر بالكلام الكريم. ليست الرعاية نفقات تؤدي بلا أدب، ولا كلمات جميلة بلا خدمة عند الحاجة. نجتهد في الأمرين على قدر ما أوجب الله وما نستطيع، ونسأله العون على ما يشق.

وقد يعينك تذكر البداية التي لا تذكرها. كنت محتاجاً إلى من يحمل ويطعم ويحفظ، ولم تكن تستطيع مكافأته في ذلك الوقت. ليست دعوتك إلى البر مطالبة بأن تستحضر مشاعر لا تجدها، بل أن تعرف حقاً وتؤديه. قد تبدأ بالفعل الصالح ولو كنت متعباً، ثم تتعلم كيف تنظّم خدمتك وتطلب من يعينك حتى لا يتحول الإرهاق إلى أذى.

ولا يجعل عظم حق الوالدين كل طلب منهما واجباً مهما كان. فقد قال الله في شأن من يجاهدان ولدهما على الشرك: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. [لقمان: 15]. يمتنع عن المعصية ويحفظ الصحة بالمعروف. يشرح السعدي أن النهي عن طاعتها في الشرك لا يعني سقوط الإحسان إليهما. للحق حدوده، وللأدب موضعه، ولا يلغي أحدهما الآخر.^{٢٢}

٢٢. عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير سورة لقمان، الآيات 13-19.

ومن ابتلي بعلاقة مؤذية أو مطالب يعجز عنها يحتاج إلى علم ومشورة، لا إلى حكم عام يحمله كل شيء أو يبيح له كل شيء. يطلب طريقة يحفظ بها واجبه ويمنع الظلم ما استطاع. ليس من الرحمة أن نساوي بين الأحوال كلها، كما ليس من الأمانة أن نتخذ صعوبة العلاقة عذرًا لإضاعة كل حق فيها.

وقد لا يبقى والدك أو والدتك في الدنيا، فيصير نفع هذا الفصل في الدعاء لهما، وفيما تقدر عليه من أبواب البر المشروعة، وفي الرفق بكبار السن من حولك. لا تحوّل ما فات إلى جلد لا ينتهي للنفس. استغفر مما عرفت من تقصير، واعمل بما بقي من خير، واسأل الله أن يعفو ويقبل. ما زلت عبدًا تستطيع الرجوع إليه.

إن كنت تقوم الآن على رعاية أم أو أب، ولا يعرف الناس تعبك، فالله يعلم. خذ من المساندة ما تستطيع، واقسم المسؤولية بالعدل حيث أمكن، ولا تنتظر الاعتراف من كل أحد حتى يستقيم قصدك. من حقا أن تطلب عونًا، ومن الخير أن تحفظ كرامة من تخدمه فلا تجعل حاجته خبرًا تتحدث به لتثبت فضلك.

حمل الرجل أمه في الطواف، ثم سمع أن حقها لا يحيط به ذلك الحمل. فليزنا الموقف تواضعًا لا يأسًا، وبرًا لا منًا. نريد أن نراقب الله في الخدمة التي يعرفها الناس، وفي دقائق المعاملة التي لا يشهدها غير أهل البيت؛ وأن نلقاه وقد اجتهدنا في قول كريم وفعل رحيم، راجين منه المغفرة لما قصّرنا فيه.

الباب الثامن: خشية لا تقطع الرجاء

يحتاج القلب إلى خشية تمنعه من التعدي، وإلى رجاء يعينه على العودة. إذا ذهب أحدهما عن موضعه، اختل سيره؛ قد يغتر فيرى الذنب صغيراً مهما كرره، وقد ييأس فيرى كل باب خيراً مغلقاً. وكلا الحالين يبعده عن الصدق الذي يجمع معرفة التقصير إلى حسن الالتجاء إلى الله.

لا نسأل عن أي الشعورين أجمل في الوصف، بل عما يصلح العمل الآن. إن كنت تستخف بحق فاذكر الحساب، وإن عدت نادماً فلا تيأس من الرحمة، وإن أحسنت فاحمد الله واسأله القبول. تختلف حاجة الموقف، ويبقى الله عظيمًا رحيماً، يعلم ضعف عبده وما يعمل.

والقلوب ليست مطالبة أن تخفي حزنها كي تبدو قوية. نستطيع أن نحب ونخاف ونتألم، ونحفظ مع ذلك أدبنا وحقوق غيرنا. نريد خشية تزيدنا إنسانية وعدلاً، لا قسوة نتذرع بها بالتدين، ورجاء يحملنا إلى الطاعة، لا غفلة تسمي كل تقصير حسن ظن.

ما الذي خافه من سبقونا؟

قال إبراهيم التيمي:

ما عرضت قلبي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبًا.

وقال ابن أبي مليكة:

أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف
النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل
وميكائيل.^{٧٩}

هذه خشية تحمل صاحبها على النظر في المسافة بين ما يقول وما
يفعل. قد نحسن الكلام عن الرفق والعدل، ثم نضعف عنهما حين
يخالفنا أحد؛ فنحتاج إلى محاسبة تصدّق القول بالعمل.
لا نستخرج من هذه الأخبار أن الخوف وحده يكفي لصلاح القلب، ولا
أن كل من خاف فقد سلم. الذي ينفعنا هو أن ندع الخوف يقود إلى
تصحيح معلوم. إن خشيت الكذب، فاجتهد في الصدق. وإن وجدت

٧٩. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب «خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر»، قبل الحديث 48؛ قول إبراهيم التيمي وخبر ابن أبي مليكة عن ثلاثين من الصحابة. أوردهما البخاري في ترجمة الباب بصيغة الجزم؛ كلاهما من كلام التابعين وليس حديثًا مرفوعًا.

خلفًا في وعدك، فاعتذر وأصلح. وإن رأيت نفسك تحسن الظاهر وتتعمد مخالفة الحق في الخلوة، فارجع إلى الله، ولا تجعل معرفتك بالمرض بديلاً عن علاجه.

وقد جاءت النصوص تبين خصلاً يجب الحذر منها، فلا نبقى في شعور عام لا نعرف له طريقاً. من راقب لسانه عند الخبر، ووفاءه عند العهد، وأمانته عند الوديعة، فقد اقترب من عمل يفهمه. أما أن يكرر أنه خائف ثم يصر على الأذى الذي يعرفه، فذلك لا يؤدي حق الخشية. العلم يحدد موضع الإصلاح، والرجاء يعين على القيام به.

ومن الخطأ أن نستعمل خوف الصحابة لنغلق باب الطمأنينة على من يعاني وسوسة. سبق أن رأينا كيف سأل بعضهم عن الخواطر التي يكرهونها، فجاءهم بيان يرفع الخلط. هناك فرق بين الحذر من خلق سيئ نمارسه، وبين الحكم على أنفسنا بالنفاق بسبب خاطر لم نرضه. لا نأخذ من الدين جانباً يضاعف القلق، ونترك البيان الذي يضعه في موضعه.

وربما أردت أن يعرف الناس أنك تخشى على نفسك، فتحول الكلام عن الخوف إلى مدح مستتر. لا تحتاج إلى إعلان هذا الحال. أصلح ما تعرفه، واسأل الله الثبات، واستعن بنصيحة أمين عند الحاجة. الغرض من المحاسبة ليس أن تبني صورة أشد تواضعاً عند الناس، بل أن تقلل الفارق بين ما تؤمن به وما تختاره حين تنفرد بقرارك.

والأمان على النفس قد يأتي من مقارنة لا تنتهي: أنا أفضل من فلان، وخطئي أقل من خطئه، وعملي أكثر مما يعمل. لكن عيوب غيرك لا تمحو عيبك، وفضل الله عليك لا يعطيك إذناً بالإصرار. من عرف أن الله يعلم باطنه استحيا أن يستتر تقصيره عن نفسه بعيوب الناس. له أن يشكر على الخير، وليس له أن يجعل الشكر عجباً واستغناءً.

تأمل أثر إبراهيم التيمي من جهة أخرى: القول يمكن أن يعيننا على محاسبة العمل. كتبت نصيحة لولدك، فهل تعمل بها؟ طالبت زميلك بالأمانة، فهل تحفظ ما ائتمنتك عليه؟ دعوت غيرك إلى الاعتذار، فهل تعتذر حين تخطئ؟ ليس هذا نهياً عن النصيحة حتى نكمل، بل دعوة إلى أن يكون أول من ينتفع بها صاحبها.

وعندما تجد النقص، احذر أن تنقلب المعرفة إلى يأس. لا تقل: لست صالحاً لخير، ثم تترك الطاعة والنصح والعمل. قل: عرفت ما يحتاج إلى إصلاح، وأسأل الله أن يعينني عليه. في كل رجوع صادق عمل ترجوه، وفي كل حق تؤديه خطوة واضحة. العبد لا يصلح قلبه بإعلان البراءة ولا بإعلان الهلاك، بل بالعلم والتوبة والمجاهدة والاستعانة.

حفظ ابن أبي مليكة خشية من سبقوه، وحفظ البخاري ذلك للناس. ونحن نقرؤه لنترك الغرور، لا لنترك الرجاء. نسأل الله قلباً لا يأمن مكره، ولا يقنط من رحمته، وعملاً يوافق ما نقوله من خير. ومن أقرب علامات الانتفاع أن نصبح أصدق في مواطن الخطأ، وأسرع إلى الرجوع، وأقل انشغالاً بالحكم على قلوب الآخرين.

الزاد لا ينافي التوكل

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحْجُونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ وَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}.^{٨٠}

قال تعالى:

{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ}. [البقرة: 197]

في الخبر انتقال من دعوى إلى أثر يمكن رؤيته. قالوا إنهم يتوكلون، ثم آل بهم ترك الاستعداد إلى سؤال غيرهم. لم تكن المشكلة في الثقة بالله، بل في صورة من العمل ظنوها لازماً لتلك الثقة. جاءت الآية تجمع زاد السفر وزاد التقوى، فلا تجعل استعداد البدن خصومةً مع صلاح القلب.

٨٠. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، رقم 1523؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وهذا من أهم ما نحتاجه في المراقبة: أن نراقب حقيقة الفعل، لا الاسم الذي نعطيه له. قد نسمي الإهمال رضا، أو ترك التعلم توكلاً، أو التهرب من مواجهة الخطأ سترًا. الأسماء الحسنة لا تغير ما في العمل من تفريط. من صدق مع الله قبل أن يسأل: هل تبدو عبارتي دينية؟ يسأل: هل فعلت ما أمرت به وأديت ما علي؟

حين تحفظ مال أسرتك، وتتعلم ما يلزم لعملك، وتكتب حقًا يخشى نسيانه، فأنت تأخذ بأسباب نافعة. لا تملك نتيجتها كلها، لكن عدم ملكك للنتائج لا يسقط مسؤوليتك عما تستطيع. إنما يجتمع صدق الاعتماد على الله مع فعل السبب المشروع، فلا تتكل عليه استقلالاً عن الله، ولا تعطل العمل بدعوى الافتقار إليه.

وقد تقدم في وصية ابن عباس أن يسأل العبد الله ويستعين به. ويشرح ابن رجب أن الحفظ المطلوب يشمل حدود الله وأوامره ونواهيه. ليس العبد في طريق إلى مقام يخرج فيه من الأمر والنهي؛ كلما ازداد معرفة بربه ازداد عناية بطاعته. وما يلزمك من رعاية ووفاء لا يصبح دون منزلة قلبك لأنك تحب الحديث عن التوكل.^{٦٢}

ومن لطيف المحاسبة أن تنظر فيمن يتحمل أثر قرارك. إن تركت الاستعداد لأمر يخصك، فقد تحملت جانباً من تبعته، لكنك قد تلقي تبعه أخرى على أهلك أو زملائك من غير رضاهم. ليست الثقة بالله مبرراً لأن تجعل غيرك يسد كل تقصير منك. تستطيع أن تطلب العون عند الحاجة، لكن لا تصنع الحاجة ثم ترفع عن نفسك مسؤولية صنعها.

٦٢. ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث التاسع عشر: «احفظ الله يحفظك»، الاعتماد على الله وفعل الأسباب.

ولا نقلب هذا الكلام إلى لوم للمحتاج الذي عجز فعلاً. من لم يجد زادًا غير من تركه وهو قادر، ومن وقع في ضيق لم يختره غير من استسهل حقوق الناس. الشريعة تدعونا إلى إعانة المحتاج والرفق به. فلا تستعمل قصة من أخطأ في فهم التوكل لتحكم على كل فقير بأنه مهمل، أو على كل طالب مساعدة بأنه قليل المراقبة.

ربما كان استعدادك اليوم في أمر بسيط: تُتم عملاً في وقته، أو تتعلم حكماً قبل أن تدخل في معاملة، أو تستشير من يعرف الطريق الذي تنوي سلوكه. هذه أفعال قد تبدو عادية، لكن قصدك فيها وأمانتك يجعلانها موضع عبودية. الله يعلم ما بذلته وما قصرت فيه، فلا تنتظر عملاً استثنائياً حتى تبدأ مراقبته.

وإذا بذلت السبب ثم لم تصل إلى ما أردت، فهنا موضع الصبر والرجوع إلى الله، مع مراجعة ما يمكن تحسينه. ليس كل تعثر دليل تفريط، ولا كل نجاح دليل صحة الطريق. قد تجتهد وتُبتلى، وقد يُملَى لمن أساء. نزن فعلنا بما علمنا من الحق، ونسأل الله الخير، ولا نجعل النتيجة وحدها شهادةً على القلوب.

عاد معنى التوكل في خبر الحجاج إلى موضعه الصحيح حين ذكر الزاد والتقوى معاً. ونحن نحتاج إلى هذا الجمع في كل مسؤولية: قلب يسأل الله ويعتمد عليه، وعمل أمين لا يتهرب مما يقدر عليه. جهّز زادك، وأصلح قصدك، وامض فيما أذن الله به، وأنت تعرف أن حاجتك إليه باقية قبل السبب ومعه وبعده.

لأنه يحب صفة الرحمن

عن عائشة رضي الله عنها:

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِ فَيَخْتِمُ بِـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ سَلُوهُ لَأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ . فَسَأَلُوهُ فَقَالَ لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ. ^{٨١}

في هذا الخبر عمل يعرفه أصحابه، ومعنى بينه صاحبه حين سئل. كان متعلقًا بما تعرفه السورة من ربه، لا بطولها أو سهولتها فقط. يقرأ توحيد الله وصمديته وتنزهه عن الولد والوالد والكفاء، فيحب هذا البيان. ثم جاءت البشارة من رسول الله ﷺ، لا من تزكية اخترعها الرجل لنفسه.

قد نظن أن المراقبة لا تُبنى إلا بالتحذير، بينما يفتح هذا الموقف باب المحبة. تعرف من تعبد، فتحب كلامه، وتفرح بما يهديك إليه من معرفته، وترجو رضاه. ليست العبادة مجرد تفادي للعقوبة؛ فيها محبة وتعظيم وافتقار ورجاء. وحين تجتمع هذه المعاني، يصير ترك المعصية وفاءً لما تحب، لا خوفًا من انكشافك أمام الناس وحده.

٨١ صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، رقم 7375.

ولا تعني المحبة شعورًا يبيح للإنسان ما يشاء. السورة التي أحبها الرجل تعرفه بربه الواحد الذي يعبد، ولا تمنحه طريقًا إلى الاستغناء عن أوامره. من أحب أن يقرأ كلام الله، فليحب أيضًا أن يعمل بما فهم منه. قد تختلف أحوال قلبه، لكنه يظل يسأل: ما الذي يرضي ربي في هذا الموقف؟ كيف أجعل محبتي أصدق في فعلي؟

ومن فقه القصة أن نميز ما أقره النبي ﷺ مما نبتدعه نحن من صور التعبد. لا نأخذ خصوصية فعل ثبت إقراره لنقول إن كل هيئة ي اخترعها صاحب نية حسنة مقبولة. الاتباع يحفظ المحبة من أن تتفرق مع الأهواء. نقرأ القرآن كله، ونتعلم السنن، ونعرف فضل السورة كما جاء، ولا نجعل تعلقًا شخصيًا سببًا لتغيير الدين.

قد تبدأ علاقتك بسورة تعرفها منذ الصغر من جديد. كنت ترددها محفوظةً، ثم تتأمل معناها، فتجد أن ألفاظًا قليلة تحمل معرفةً عظيمة. لا تحتاج إلى اكتشاف لفظ غريب حتى تنتفع. ربما احتجت إلى أن تقرأ على مهل، وتفهم ما لم تفهمه، وتسأل: أيُّ أثر ينبغي أن يبقى في اعتمادي على الله وخشيتي له بعد هذه القراءة؟

والإخلاص الذي تصفه السورة في توحيد الله لا يجتمع في القلب على الوجه الذي نرجوه مع تأليه رغبة الناس في القبول والثناء. ليس الناس آلهةً تملك سعادتك أو مصيرك. تحسن إليهم وتحفظ حقوقهم، لكنك لا تخالف الله لإرضائهم. ولعل من بركة المعرفة أن تصير أقدر على كلمة حق هادئة، ولو لم توافق ما ينتظرونه منك.

لا تجزم لنفسك بالبشارة الخاصة، لكن ارج الخير واسلك سبيله. أحب كلام الله، وتعلم ما يخبرك به، وأحسن عبادتك، واسأله أن يحبب إليك الإيمان. وليس طلب محبته دعوى أنك قد استكملت أسبابها؛ إنه رجاء عبد يعلم نقصه، ويريد أن يصلح ما بينه وبين ربه، ولا يكتفي بأن يحب الناس حديثه عن ذلك.

«لأنها صفة الرحمن»؛ جواب قصير رد العمل إلى أصله. فلنبحث في عبادتنا عن معرفة صادقة تزيدها حضوراً: لماذا أقرأ؟ ولماذا أصلي؟ ومن أدعو؟ حين لا تكون الإجابة مجرد عادة، نرجو أن يقوى في القلب معنى «كأنك تراه»، وأن تصير العبادة أحب، والعمل أصدق، والعودة إلى الله أقرب كلما غفلنا.

خاف من ذنبه، فعلم الله ما في قلبه

قال رسول الله ﷺ:

قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ لِأَهْلِهِ إِذَا مَاتَ فَحَرَّقُوهُ ثُمَّ انْزُرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ وَأَمَرَ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ثُمَّ قَالَ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا قَالَ مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ . فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ .^{٨٢}

لا نقرأ المغفرة في نهاية القصة إقرارًا للوصية التي أوصى بها. فالعمل الذي بناه على جهله ليس طريقًا نتعلمه للنجاة. الله قادر على جمع الخلق وبعثهم، لا يعجزه شيء منهم حيًّا أو ميتًا. والذي ينفعنا أن نتعلم من الوحي كيف نخشى ربنا ونرجوه، لا أن نبتكر من الخوف تصرفًا يخالف ما شرعه لنا.

وقد ذكر النووي اختلاف العلماء في شرح قول الرجل وحاله؛ فمنهم من فسر اللفظ على معنى القضاء بالعذاب، ومنهم من تكلم على جهله، ومنهم من اعتبر ما غلب عليه من الخوف. فلا حول رواية ذات شرح وتفصيل إلى قاعدة مبسطة تقول إن كل اعتقاد أو عمل يعفى عنه ما دام صاحبه خائفًا. نؤمن بالخبر كما جاء، ونحفظ حدود ما يدل عليه.^{٨٣}

^{٨٢} صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم 2756.

^{٨٣} النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه، شرح حديث الرجل الذي أوصى بتحريق جسده، رقم 2756.

ومع ذلك، لا ينبغي أن تضيع البشارة التي وردت فيه. ربنا يعلم من حال عبده ما لا يعلمه الناس، ويعلم صدق خوفه وافتقاره. قد يأس الإنسان من نفسه لأنه لا يرى إلا ذنوبه، وهو ما زال يستطيع أن يرجع إلى الله، ويتعلم، ويتوب، ويصلح. ليست كثرة الإساءة إذناً بالإصرار، لكنها ليست حجةً لإغلاق باب التوبة أيضاً.

ومن مراقبة الله أن لا تجعل الخوف يقودك وحده بعيداً عن العلم. إذا أقلقك ذنب، فاسأل كيف تتوب منه. إن تعلق بحق إنسان، فتعلم كيف تؤديه. وإن خفت من أمر في اعتقادك، فاطلب بياناً موثقاً. لا تعالج الجهل بتصرف أشد اضطراباً، ولا تظن أن إيذاء نفسك يكفر ما تعلمت أن علاجه التوبة والعمل الصالح.

قد يكون أول ما تحتاج إليه كلمة صادقة تقولها في دعائك: يا رب، أخطأت، وأنا أرجو مغفرتك وأحتاج إلى عونك. ليس الاعتراف هلاكاً، بل ترك للحيلة التي تطيل بقاء الخطأ. ثم يأتي العمل: تتوقف عما تعلم تحريمه، وتندم عليه، وتعزم ألا تعود، وترد الحقوق على الوجه الذي يلزمك. لا يكفي أن تصف خوفك وأنت تختار الاستمرار بنفسه بلا مقاومة.

والخوف النافع يحفظ الرجاء. إن جعلتك الموعظة تعتقد أنه لم يعد لك سبيل إلى الله، فاطلب علماً يبين لك ما التبس، ولا تتبع اليأس. لقد جاء القرآن بالنهي عن القنوط، وجاء بالأمر بالإنابة. لا تتعارض رحمة الله مع جدية التوبة؛ من رجاه صدقاً تحرك إلى ما يقربه منه، لا إلى مزيد مما يبعده عنه.

وحين ينفتح لك قلب إنسان يعترف بخطئه، لا تجعل نفسك مالكا لمغفرة الله. لا تمنحه أماناً لم يدل عليه النص، ولا تحكم أنه لا خير فيه أبداً. دلّه على التوبة والحق، وأعنه على خطوة صحيحة. قد يكون تهوينك للذنب أذى، وقد يكون تقنيطك له أذى آخر. الناصح يجمع بين صدق البيان ورجاء الرحمة.

ولا تحتاج أن تعرف كل تفاصيل ماضيه لتعينه. بعض ما يحتاج إلى إصلاح واضح يكفي فيه القدر اللازم للسؤال. حفظ الستر ليس تواطؤاً على ظلم، كما أن طلب التوبة ليس مطالبةً باعتراف عام. من الحقوق ما يحتاج إلى بيان، ومن الذنوب ما يرجع صاحبه فيه إلى الله دون أن يفضح نفسه. العلم يفرّق، والرحمة تحفظ الأدب.

جمع الله الرجل الذي ظن أن التفرق يخرج من قبضته، وعلم ما في قلبه من خشية. فليكن حظنا من القصة علماً يزيل الجهل، ورجاءً يقطع اليأس، وتوبةً لا تؤجل إلى آخر العمر. ربنا يعلمنا قبل أن نتكلم، ويقدر علينا حيث كنا؛ وليس لنا ملجأ من أمره إلا الرجوع إليه، راجين مغفرته وعونه.

حين رأوا رحمة الأم

قال عمر رضي الله عنه:

قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحَلَّبُ تُدِيهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبُطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ. قُلْنَا لَا وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ. فَقَالَ لِلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا.^{٨٤}

انتقل التعليم من أمر يشاهدونه إلى معنى يخبرهم به رسول الله ﷺ. عرفوا رحمة الأم في فعلها، ثم سمعوا أن رحمة الله بعباده أعظم. فازداد باب الرجاء وضوحًا، وبقي القلب مفتقرًا إلى رحمة لا يستغني عنها.

إذا كانت المراقبة حضور علمك بأن الله يراك، فليكن من هذا العلم أن تعرف رحمته أيضًا. يراك حين تخطئ، ويراك حين تندم وتعود. يعلم تقصيرك، ويعلم ما تبذله لإصلاحه. لا تدخل إلى الدعاء كأنك تطلب من رب لا يحب أن تتوب؛ لقد فتح لك بابه وأمرك بالإنابة، وأخبر رسوله ﷺ عن عظيم رحمته.

وربما نشأت على خطاب لا يذكر الله إلا عند التهديد، فصار خوفك يحجب عنك ما في الوحي من رحمة. تحتاج أن تتعلم الصورة الصحيحة من النصوص كلها: هو شديد العقاب، وهو غفور رحيم؛

نخشى عدله ونرجو فضله، ولا نجعل أحد المعنيين ذريعة لإلغاء الآخر. لا يعلمنا حديث الأم أن نستهيئ بالذنب، بل ألا نقطع رجاء من يدعونا إلى التوبة.

ومن آثار هذا الرجاء أن تستطيع الاعتراف بالخطأ دون أن ترى نفسك خارجةً من كل خير. أنت لا تخبر الله بشيء يجهله، ولا تحتاج أن تخفي عنه ما يعرفه بتبريرات طويلة. إنما تتوب وتصلح. قد تكون العودة صعبةً لأنك اعتدت ذنبًا أو أفسدت حقًا، لكن صعوبة الطريق ليست دليلًا على أنه مغلق.

والذي يطلب رحمة الله جدير أن يرحم من جعلهم الله في قدرته. لا نقصد أنه يملك أن يبادل الله ثمنًا برحمته؛ إنما يعمل بما يحبه سبحانه ويرجو فضله. من ضعف أمامك ليس فرصة لتثبت قوتك. الطفل الذي يتعلم، والعامل الذي يخطئ، والمريض الذي يكرر حاجته، كلهم مواضع يمكن أن يظهر فيها صدق ما تعلمته عن الرحمة.

وقد رأينا في أبواب الحقوق كيف منع التذكير أبا مسعود من المضي في الأذى. وفي هذا الباب نرى الوجه الذي يجمع القوة إلى الرفق. المراقبة لا تجعل الإنسان قاسيًا على نفسه وعلى الخلق، كأنه لا يعرف من الله إلا العقوبة. بل تزيده خوفًا من الظلم، ورجاءً في العفو، وحرصًا على أن يكون سبب خير لمن حوله.

حين تواسي تائبًا، فدع كلامك يفتح له عملاً. ذكّره أن يستغفر، ويترك الذنب، ويرد الحق، ويطلب عونًا يحفظه. لا تكتفِ بعبارات تريحه ساعات ثم يكرر الطريق نفسه. الرحمة الصادقة ليست تبريرًا؛ هي مساعدة على النجاة. وقد تحتاج أن تقول له حقيقة لا يحبها، لكن تقولها من غير تشفٍّ ولا فضيحة.

ونحتاج إلى الرحمة في مواساة أنفسنا أيضًا، دون أن نحولها إلى إعفاء من الواجب. إن قصّرت أمس فلا تجعل التقصير يأخذ منك صلاة اليوم. وإن خالفت ما تعلم فعد إلى العلم والعمل. ما زال في العمر بقية لا تعرف قدرها، وما زال القلب يستطيع أن يسأل الله إصلاحه. لا تبين مستقبلك كله على أسوأ ما مضى منك.

رأى الصحابة فعل أمّ، فسمعوا خبرًا عن رحمة ربهم بقي للأمة. فلنعد إليه حين يشتد علينا الخوف، وحين نكاد نقسو على مبتلى أو تائب، وحين نحتاج أن نعرف لماذا لا نُؤجل الدعاء. الذي نخشاه هو الذي نرجوه، والذي يرانا يعلم حاجتنا إلى عفوهِ؛ فنسأله رحمته، ونجتهد فيما يقربنا منها.

دمعة لا تمنع الصبر

قال أنس رضي الله عنه:

مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرِ فَقَالَ اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي . قَالَتْ إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ . فَقِيلَ لَهَا إِنَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَائِينَ فَقَالَتْ لَمْ أَعْرِفْكَ . فَقَالَ إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى .^{٨٥}

وقال أنس رضي الله عنه:

دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ - وَكَانَ ظَنًّا لِإِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَذْرِفَانِ . فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحِمَةٌ . ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ .^{٨٦}

^{٨٥} صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، رقم 1283.

^{٨٦} صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنا بك لمحزونون»، رقم 1303.

نقرأ الموقفين معاً، فلا نجعل الصبر نفيّاً للدموع، ولا نجعل الألم إذناً بكل قول.

ذلك موضع المراقبة حين نفقد من نحب: أن نحفظ ما نختاره من قول وعمل، ونحن نعترف بما لا نملك إلغائه من الحزن. لا يحتاج الصابر إلى وجه جامد حتى يصدق، ولا يحتاج أن يقنع الناس بأن المصيبة لم تمسه. قد يبكي ويطلب المواساة ويثقل عليه بعض يومه، وهو يرجو الله ويحفظ حدوده.

والتوجيه إلى الصبر عند أول الصدمة يذكّرنا باللحظة التي تسبق ترتيب الكلام. تأتي الأخبار أحياناً قبل أن نستعد لها، فيغلبنا ما نجد. نسأل الله أن يثبت ألسنتنا، ونعوذ أنفسنا الاسترجاع والدعاء، ولا نتعالى على من ضعف. ومن فاته كمال الصبر أولاً، فليس مأموراً أن يستمر في الخطأ؛ باب التوبة والإصلاح قائم فيما بقي.

وقد يحتاج المبتلى إلى خدمة أكثر من حاجته إلى عبارات كثيرة. تقضي له أمراً، أو تبقى معه، أو تخفف عنه عملاً يشق عليه. لا تجعل مجلس العزاء امتحاناً لمقدار ما يظهر من إيمانه، ولا تراقب كل دمة لتحكم عليها. نحن لا نعرف القلوب، ولا كل ما سبق اللحظة من تعب، ومراقبتنا لله تبدأ برحمتنا وأدبنا نحن.

وحين تذكر له الثواب، فذكره رجاءً يحسن به اللجوء، لا وعداً منك بتفاصيل لا تعلمها. لا تجزم له أن مصيبته وقعت بسبب محدد غائب عنك، ولا تحدد زمناً يزول فيه حزنه. تقول ما تعلمه من فضل الصبر ورحمة الله، وتدعو معه، وتترك ما اختص الله بعلمه. أصدق المواساة ما لا يحتاج صاحبها بعد أيام إلى الاعتذار عن وعد لم يثبت.

وقد تكون أنت المبتلى، ويشغلك ما يقال عن حالك. ليس واجباً أن تصف للناس ما في نفسك حتى يقتنعوا بصبرك. أعط أهلك ومن ينصحك ما يحتاجون إليه ليعينوك، واحفظ بقية حزنك حيث شئت من ستر مباح. تستطيع أن تقول: الأمر مؤلم، وأحتاج إلى عون، دون أن يكون هذا اعتراضاً على الله.

ومن مراقبته في الحزن ألا يتحول الألم إلى ظلم من بقي معك. قد تضيق فتشدد على زوج أو ولد، ثم ترى مصيبتك عذراً دائماً. الاعتذار وإصلاح الأذى لا يقللان من حقيقة حزنك. نحن نرحم ضعفنا، لكننا نذكر أن للآخرين حقوقاً أيضاً، وأنهم قد يحملون من المصيبة شيئاً لا نراه كله.

ومهما طال بك الحزن، فلا تؤجل كل صلة بالله إلى أن يزول. صلّ بما تستطيع من حضور، وادع بكلمات تفهمها، واقبل العون النافع. ليس مطلوباً أن تُشفى نفسك من كل ألم قبل أن تعبد. قد تكون العبادة نفسها من أسباب الثبات الذي تحتاجه، ويكون أداء الواجب الصغير حفظاً لما بقي لك في يومك.

وقفت المرأة عند باب النبي ﷺ فعادت ببيان، وبكى النبي ﷺ على ابنه وبَيّن أدب الحزن. وفي جمع المشهدين رحمة وعلم: قلب يحزن ولسان يرضي الله، وخشية لا تلغي الإنسانية، ورجاء يعين على حمل المصيبة. نسأله أن يثبتنا إذا فُجعنا، وأن يجعلنا رفقاء بمن فُجعوا، وأن يجمع لنا الصبر والرحمة وحسن الرجوع إليه.

حين ردّ النعمة إلى صاحبها

قال تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا
مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ فَتَبَسَّمَ
ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ
وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 18-19]^{٨٧}

ملك عظيم، ومعرفة خصّه الله بها، ثم دعاء عبد يحتاج إلى التوفيق والرحمة.

لم يتحول ما أوتيّه إلى استغناء. عرف النعمة، وطلب أن يحسن استعمالها، وربط العمل برضا الله. ويُبقي سؤاله رحمة الله الافتقارَ ظاهراً؛ ليس العمل ثمناً يستقل به العبد عن فضل ربه. يخدم ويعدل ويشكر، ثم يرجو القبول والرحمة، ولا يَمُنّ على الله بما أعانه عليه. وفي خبر عرش بلقيس، قال تعالى:

٨٧. عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير سورة النمل، الآيتان 18-19؛ تبسم سليمان ودعاؤه بالشكر والعمل الصالح.

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾
[النمل: 40]^{٨٨}

رأى سليمان النعمة ابتلاءً يطلب منه جواباً. لا تزيد الله طاعتنا غنى، وإنما يعود نفعها علينا.

نحتاج إلى هذا الفهم في ساعات النجاح التي قد تقل فيها محاسبتنا. نفوز أو نتقدم أو يكثر مالنا، فنظن أن تلك علامة كافية على أن كل ما فعلناه صحيح. لكن السؤال باقي: كيف كسبنا؟ وكيف سنستعمل ما جاءنا؟ وما الحقوق التي صارت في قدرتنا؟ النعمة لا تمنح صاحبها إعفاءً من المراقبة، بل تفتح له أبواب مسؤولية جديدة.

قد تكون نعمتك قدرة على الكلام، فتستعملها لإصلاح بين الناس، أو تجعلها وسيلةً إلى جرح من لا يحسن الجواب. وقد تكون علماً، فتعلم بتواضع، أو تمنعك مكانتك من الاعتراف بخطأ. وقد تكون مالاً، فتؤدي حقه، أو تسوّغ لنفسك ما كنت تنكره قبل أن يتسع رزقك. ليست العبرة باسم النعمة وحده، بل بما تصنعه بها.

وفي دعاء سليمان ذكر الوالدين. يشرح السعدي أن النعمة عليهما نعمة على الولد، وأن سؤال الإيزاع سؤال إلهام وتوفيق للشكر. لسنا نبدأ الحياة من غير فضل سبقنا؛ علمنا أناس، ورعانا أناس، ويسر الله لنا أبواباً لم نصنعها وحدنا. فليكن نجاحنا سبب اعتراف لا نكران، وليبق شكر الله أصلاً وشكر من أحسن من الخير الذي أمرنا به.^{٨٧}

٨٨. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة النمل، الآية 40.

والشكر ليس مجرد لفظ بعد انتهاء المناسبة. هو أن تستعمل ما وهب الله فيما أذن به، وأن تعرف حق من يتعلقون بقدرتك. لا يليق أن تحمد على مال ثم تمنع أجر من عمل لك، أو تشكر على علم ثم تتكبر به، أو تفرح ببيت ثم تجعله مكان قسوة على أهله. اللسان يذكر، والعمل يصدق ما يرجوه القلب.

وقد تخشى أن تفرح بالنعمة لأنك تريد أن تكون زاهدًا. ليس التبسم والفرح المشروع عيبًا؛ لقد ذكر القرآن تبسم سليمان، ثم دعاءه. نفرح ونحمد ونضبط الفعل بحدود الله. ليست المراقبة وجهًا لا يبتسم، بل قلبًا لا ينسب الفضل إلى نفسه وحدها، وعملاً لا يطغى بما أُعطي. وإذا زالت نعمة، فليس زوالها دليلًا قاطعًا على أن الله قد ردك، كما لم يكن وجودها ضمان قبول كل حالك. نعمل بما علمنا، ونصبر، ونستغفر من خطأ نعرفه، ولا نخترع تفسيرًا غيبياً لكل تبدل. ما زال في قدرتنا شكر نعم أخرى، وأداء حقوق، وسؤال الله العوض والخير، دون أن نربط عبادتنا ببقاء صورة واحدة من الرخاء.

يُردُّنا دعاء سليمان من دهشة العطاء إلى سؤال العمل الصالح الذي يرضاه الله. فليصحبنا هذا الرجاء حين ننجح، وحين يمدح الناس ما فعلنا. لسنا نبحت عن شهادة منهم تكفينا، بل عن عمل يرضاه الله. نسأله أن يرزقنا شكر النعمة، ويحفظنا من الطغيان بها، ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين.

٨٧. عبد الرحمن السعدي، تفسير الكريم الرحمن، تفسير سورة النمل، الآيتان 18-19؛ تبسم سليمان ودعاؤه بالشكر والعمل الصالح.

لصاحب الحق مقال

عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أَنَّ رَجُلًا، أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَقَاضَاهُ، فَأَغْلَظَ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعُوهُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا. ثُمَّ قَالَ أَعْطُوهُ سِنًّا مِثْلَ سِنِّهِ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا نَجِدُ إِلَّا أَمَثَلَ مِنْ سِنِّهِ. فَقَالَ أَعْطُوهُ فَإِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ قَضَاءً.^{٨٩}

في هذا الموقف يظهر العدل حين يكون للنفس سبب يهيجها. من السهل أن تعيد الأمانة لمن يطلبها بأدب، لكن ماذا تفعل إذا جرحك أسلوبه؟ قد تنشغل بطريقته حتى تنسى أصل حقه، وتستطيع أن تجمع من يلومه معك. أما النبي ﷺ فحفظ الحق وأحسن أداءه، من غير أن يجعل نصرة أصحابه له ذريعة إلى الإخلال به.

وليس في ذلك دعوة إلى الفحش في طلب الحقوق. للسان أدبه، وللمطالبة طريقها، ومن الخير أن يرفق صاحب الحق حيث يستطيع. لكن خطأه في العبارة لا يعطي المدين ملجأ لما عليه. هذه حقيقة نحتاج إليها في البيوت والأعمال: قد يخطئ الإنسان في أسلوبه، ويبقى محققاً في أصل مطلبه. أنصفه في الحق، ثم عالج الأسلوب بما يليق.

٨٩. صحيح البخاري، كتاب الوكالة، باب الوكالة في قضاء الديون، رقم 2306. حسن القضاء تبرع من المقترض، لا زبادة مشروطة في أصل الدين.

ومراقبة الله تضع هذا الإنصاف قبل رغبتنا في حفظ صورتنا. ربما طالبك عامل بأجر متأخر فغضبت لأنه رفع صوته، أو نبهك قريب إلى حق فالملك أنه قاله أمام الناس. اسأل أولاً: هل له عليّ من المال أو العمل ما أستطيع أدائه؟ لا تجعل الحرج الذي وجدته أكبر من الأمانة التي تركتها. قد تبدأ العدالة باعتراف بسيط يقطع خصومة طويلة.

ومن أحسن ما يربي القلب أن يؤدي ما عليه قبل أن يحشد الحجج لنفسه. إن كنت عاجزاً فبين عجزك بصدق، وإن كنت قادراً فلا تمطل. لا تصنع عجزاً لفظياً بوعود متتابة وأنت تنفق فيما تحب. الذي ائتمنك أو عاملك لا ينبغي أن يدفع ثمن رغبتك في الراحة على حساب حقه. وقد أعطى النبي ﷺ صاحب الدين خيراً مما له تبرعاً في القضاء، لا شرطاً سابقاً في القرض. نحفظ هذا الفرق، فلا نأخذ حسن القضاء حجةً لاشتراط زيادة محرمة. فضيلة الإحسان لا تلغي أحكام المعاملة. من أراد أن يراقب الله في المال احتاج إلى قلب أمين وعلم يميز الحلال من الحرام، ولا يكفي أحدهما عن الآخر.

وفي موقف الصحابة درس لمن ينصر من يحب. قد ترى إنساناً يغلظ على قريبك أو مديرك، فتميل إلى إسكات المطالب قبل معرفة الحق. المحبة لا تبيح الظلم، ونصرة من تحب تكون بإعانتته على العدل أيضاً. تستطيع أن تهدئ الكلام وتحفظ الاحترام، وفي الوقت نفسه تذكره بما يلزمه. لا تجعل ولاءك لشخص أكبر من وفائك للحق.

وكثير من النزاع ينقص حين نفصل ثلاثة أمور: أصل الحق، والطريقة التي طُلب بها، والمشاعر التي أثارها الطلب. ليست كل هذه الأمور حكمًا واحدًا. قد تنصف في الأول، وتعتذر عن تقصيرك، ثم تطلب أدبًا في الثاني، وتدعو الله أن يصلح الثالث. أما خلطها فقد يترك كل طرف ينتظر اعتذار الآخر، ويبقى الحق ضائعًا بينهما.

وإذا أدى لك أحد ما عليه، فلا تحملك القدرة على مطالبتك إلى إزاله أو التشهير بما لا حاجة إلى نشره. نطلب العدل ولا نجعل الحق سلاحًا مفتوحًا لكل أذى. إن احتجت إلى توثيق أو جهة تنصفك فاسلك الطريق المشروع، واحتفظ بلسانك عن كذب أو مبالغة. أنت أيضًا تراقب الله حين تكون صاحب المطالبة.

خرج الرجل بحقه، وبقي للأمة خبر عن حسن القضاء. فلنجعل من المراقبة أدبًا في أموالنا والتزاماتنا، لا معنى يقتصر على خلوة العبادة. الله يرانا ونحن نعد، ويرانا ونحن نوخر، ويرانا حين نختر إنصاف من لا نحسن احتمال كلامه. وما أجمل أن يكون خوفنا منه عونًا على أن يلقي الناس عندنا حقهم، لا أعذارًا تتجدد ولا تنتهي.

الباب التاسع: رجوع يحفظ الطريق

بعد كل ما تعلمه عن المراقبة يبقى لك سؤال عملي: ماذا سأفعل حين أعود إلى حياتي؟ لا تحتاج إلى أن تغيّر كل شيء في ساعة، لكنك تحتاج إلى صدق يمنع المعرفة أن تنتهي بانتهاء القراءة. ابدأ بحق تعرفه، وذنّب تستطيع ترك سببه، وعبادة تحتاج إلى إتمامها.

وقد تتعثّر بعد بداية حسنة. لا تجعل العثرة اسمًا جديدًا لنفسك، ولا تقل إن كل ما سبق كان كذبًا. أصلح الذي ظهر، واستغفر، وارجع إلى العمل. ليس في صدق التوبة وعد أن يصير الغد بلا مجاهدة، ولكن فيه إقبالًا على الله بدل الاستسلام لما يبعد عنه.

ومع مرور الأيام قد تتغير قدرتك وظروفك، وتبقى عبوديتك. تتعلم كيف تعمل صحيحًا وكيف تعمل مريضًا، وكيف تحسن في السعة والضيق، وكيف تؤدي ما عليك دون انتظار منزلة عند الناس. ما نرجوه ليس قصة جميلة نحكيها عن أنفسنا، بل قلبًا يعرف ربه، وعملاً يصدقه، ورجوعًا لا ينقطع حتى اللقاء.

حين عرف مصدر الطعام

قالت عائشة رضي الله عنها:

كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ غُلَامٌ يُخْرِجُ لَهُ الْخَرَاجَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ الْغُلَامُ تَدْرِي مَا هَذَا فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَمَا هُوَ قَالَ كُنْتُ تَكْهَنُ لِإِنْسَانٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَمَا أَحْسَنُ الْكِهَانَةَ، إِلَّا أَنِّي خَدَعْتُهُ، فَلَقَيْتَنِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتُ مِنْهُ. فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ.^{٩٠}

قبل أن تعرف المصدر يكون لك حكم ما ظهر، وبعد العلم تحتاج إلى موقف يوافق ما عرفت. هذه هي النقطة التي تمس حياتنا: ماذا نفعل بالمعلومة التي تمنع منفعة كنا نستمتع بها؟ ربما نتمنى لو لم نسأل، أو نخاصم من أخبرنا، أو نقول إن الأمر قد مضى فلا داعي إلى مراجعته. لكن المراقبة تدعونا أن ننتفع بالبيان، لا أن نعاقب من أوصله إلينا.

ولا نجعل فعل أبي بكر تكليفاً لكل من أكل شيئاً ثم خاف مصدره، ولا دعوة إلى الإضرار بالبدن أو إلى الشك في كل طعام. هذه واقعة معينة عُرف فيها مصدر بعينه. أما الوسواس والاحتمالات التي لا تقوم على بينة فليست مثل هذا العلم. وحكم ما يلزم في واقعة جديدة يُسأل عنه أهل العلم، لا يؤخذ من حماسة تقليد حركة دون معرفة حكمها.

٩٠. صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية، رقم 3842.

الذي نستبقه في القلب هو رفض الانتفاع بالخديعة. الغلام قال إنه لم يكن يحسن ما ادعاه، وإنما خدع الرجل. ما أبعد هذا عن أمانة إنسان يعترف بحدود علمه. وقد تتغير أسماء الخديعة، وتبقى حقيقتها: بيع وعد لا نملك الوفاء به، أو ادعاء معرفة لا نملكها، أو أخذ مال مقابل خبر مختلق يستغل خوف صاحبه أو أمله.

وقد تُعرض عليك منفعة لم تبدأ أنت ظلمها، ثم تعلم حقيقتها. لا يكفي أن تقول: لم أفعل ذلك بنفسي. اسأل عن حَقِّك فيها بعد العلم، وعن الطريق الصحيح إلى رد الحق أو التخلص مما لا يحل. لا يزول الواجب لأن الذي عرض المنفعة قريب تحبه، ولا تصبح الهدية طيبة لمجرد أن رفضها يخرجه.

ومن مراقبة الله أن تكون الأمانة سابقة على المكسب. قبل أن تتحدث باسم تخصص، انظر هل تعرف ما تقول. وقبل أن تعد إنساناً بنفع، انظر هل تبين له ما تعلم وما لا تعلم. بعض الضرر يبدأ بعبارة صغيرة نقصد بها طمأنة العميل، ثم تتسع حتى يعتمد عليها في شأن لا يحتمل الجهل. الصدق قد يفوّت صفقة، لكنه يحفظ ذمة لا يعوضها ثمن.

وأبو بكر لم يكن مكلفاً بعلم الغيب في الطعام، كما أنك لا تكلف معرفة ما لم تظهر لك أماراته. فلا تحمل القصة إلى نفسك حملاً يجعلك لا تطمئن إلى مباح. راقب ما تختاره وتعلمه، ولا تستدعِ كل احتمال بعيد لتثقل به عيشتك. التقوى علم وعمل، وليست جمعاً للشكوك.

قد يكون تصحيحك اليوم كتابة بيان أمين بعد وصف مبالغ فيه، أو رد مبلغ دخل حسابك بغير حق، أو إيقاف معاملة بعد أن بان خطؤها. لا يحتاج كل تصحيح إلى حكاية ترويها عن نفسك. يكفي أن يصل الحق إلى موضعه، وأن تتعلم من السبب الذي أوقعك، وتساءل الله أن يطيب رزقك ويبارك لك في الحلال.

حين عرف أبو بكر، تغيّر فعله. ونحتاج نحن إلى صدق من هذا النوع: ألا يبقى البيان عند باب القلب لأن وراءه منفعة لا نريد تركها. نسأل الله رزقاً حلالاً، وضميراً لا يبيع وضوح الحق براحة العادة، وشجاعة هادئة نقبل بها التصحيح حين نحتاج إليه.

رجل أحب أن يبقى بين الناس

قال أسير بن جابر:

كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا أَتَى عَلَيْهِ أَمْدَادُ أَهْلِ الْيَمَنِ سَأَلَهُمْ أَفِيكُمْ
أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ فَقَالَ أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ قَالَ
نَعَمْ . قَالَ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ قَالَ نَعَمْ . قَالَ فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ
مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ قَالَ نَعَمْ . قَالَ لَكَ وَالِدَةٌ قَالَ نَعَمْ . قَالَ سَمِعْتُ
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ
مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا
مَوْضِعَ دِرْهَمٍ لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ
أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ . فَاسْتَغْفِرْ لِي . فَاسْتَغْفَرَ لَهُ . فَقَالَ لَهُ عُمَرُ أَيْنَ
تُرِيدُ قَالَ الْكُوفَةَ . قَالَ أَلَا أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا قَالَ أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ
النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ . قَالَ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنْ
أَشْرَافِهِمْ فَوَافَقَ عُمَرَ فَسَأَلَهُ عَنْ أُوَيْسٍ قَالَ تَرَكْتُهُ رَثَّ الْبَيْتِ قَلِيلَ
الْمَتَاعِ . قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يَأْتِي
عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ كَانَ
بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى
اللَّهِ لِأَبْرَهُ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ . فَأَتَى أُوَيْسًا فَقَالَ
اسْتَغْفِرْ لِي . قَالَ أَنْتَ أَحَدْتُ عَهْدًا بِسَفْرِ صَالِحٍ فَاسْتَغْفِرْ لِي . قَالَ
اسْتَغْفِرْ لِي . قَالَ أَنْتَ أَحَدْتُ عَهْدًا بِسَفْرِ صَالِحٍ فَاسْتَغْفِرْ لِي . قَالَ

لَقِيتَ عُمَرَ قَالَ نَعَمْ . فَاسْتَغْفَرَ لَهُ . فَفَطِنَ لَهُ النَّاسُ فَأَنْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ . قَالَ أُسِيرٌ وَكَسَوْتُهُ بُرْدَةً فَكَانَ كُلَّمَا رَأَاهُ إِنْسَانٌ قَالَ مِنْ أَيْنَ لِأُوَيْسٍ هَذِهِ الْبُرْدَةُ^{٩١}

أحب أن يبقى بين عامة الناس، لا أن يُقدِّم بسبب رسالة من أمير المؤمنين. لا يقول لنا الخبر إنه يرفض حقوقًا يحتاج إليها، أو أنه يوجب على كل صالح أن يختفي. يخبرنا عن اختياره هو، ويترك أماننا معنى نفهمه: قد يستغني الإنسان عن امتياز يعرض عليه، إذا كان أرفق بقلبه وأقرب إلى ما يحب من عيشه.

ومن أظهر ما ذكر النبي ﷺ في شأن أويس بره بأمه. عمل نعرف اسمه جميعاً، وقد نمر به كأنه دون الأعمال التي تجذب السامعين. لكن خدمة أم، والصبر على حاجتها، وحفظ حقها، يمكن أن تكون من أعظم ما يشغل قلب عبد عن طلب منزلته عند الناس. لا نعرف تفصيل أيام أويس مع أمه، فلا نخترقه؛ يكفينا الوصف الذي ثبت.

وقد يحمل أحداً في نفسه أمنية أن يعرف الناس صلاحه. لا يعلنها دائماً، لكنه يتألم إذا تقدم غيره أو لم يُذكر اسمه. تقرب قصة أويس السؤال من غير قسوة: ما الخير الذي أَرْضَى أن أفعله ولو لم يزد مكانتي عند أحد؟ هل أستطيع أن أبر وأتعلّم وأتصدق، دون أن أجعل الاعتراف بي شرطاً للاستمرار؟

٩١. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أويس القرني رضى الله عنه، رقم 2542. اللفظ لرواية ابن المثنى، عن قتادة، عن زرارة، عن أسير؛

ليس في ذلك ذم لكل ظهور. قد يلزم المعلم أن يتكلم، وصاحب حق أن يبين، والمسؤول أن يعلن ما يحتاج الناس إلى معرفته. الفرق في القصد وفي حدود العمل. لا نطلب الخفاء ليقال عنا إننا أهل خفاء، ولا الظهور ليقال إننا أهل أثر؛ نؤدي ما ينفع على الوجه المشروع، ونسأل الله سلامة النية.

وعمر، مع منزلته، طلب من تابعي أن يدعو له، امثالاً لما سمع. لم يمنعه قدره من قبول خبر عن فضل غيره، ولا جعله يحصر الخير فيمن يشبهه في المنزلة الظاهرة. وفي ذلك ما يخفف عنا تعظيم المقاييس الاجتماعية. من لا تعرفه قد يكون أعظم منك براً وخشية، لكن هذا يدعوك إلى التواضع، لا إلى توزيع شهادات الولاية بغير علم.

وتبقى مراقبة الله صلة خاصة لا يملك الناس أن يطالبوك بكشفها. لا يلزمك أن تروي دعاءك أو صدقتك، ولا أن تشرح لكل أحد لماذا لم تطلب امتيازاً. وفي المقابل لا تجعل خصوصيتك ستاراً يضيع وراءه حق من له أن يسألك عن مال أو مسؤولية. الخفاء في التطوع غير إخفاء الأمانة عن صاحبها.

قد لا يذكر التاريخ أسماء معظم من أحسنوا إلى أمهاتهم وآبائهم، ولا أسماء من كفوا أذاهم وأدوا الحقوق. لكن علم الله لا ينتظر تدوين الناس. ومن قصة أويس نرجو أن نتعلم صدقاً يستريح من طلب المنزلة، ويشغل بالعمل الذي يرضي الله، ويظل صاحبه يسأل المغفرة مهما عرف الناس أو لم يعرفوا.

خرج يريد أن يتوب

قال نبي الله ﷺ:

كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَغْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ قَدْ لَّ عَلَى رَأْهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ لَا . فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَغْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ قَدْ لَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةً نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضٌ سَوَاءٌ . فَاِنْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ . وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ . فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ قَيْسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَذْنَى فَهُوَ لَهُ . فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَذْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ . قَالَ قَتَادَةُ فَقَالَ الْحَسَنُ ذَكَرَ لَنَا أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ ٩٢.

٩٢. صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم 2766. والتعقيب الأخير عن قتادة عن الحسن، متميز من الحديث المرفوع.

ليس المقصود من القصة تصغير الدماء التي سفكها الرجل؛ تبقى جريمته عظيمة. وإنما ألا نجعل عظم الذنب حجة على امتناع التوبة. وقد يزل الإنسان فيفكر: ما دمت قد أفست فلا معنى لما بعده. هذا التفكير لا يصلح ما مضى، ويضاعف الشر فيما يأتي. باب الرجوع يدعوك أن توقف الظلم، لا أن تسترسل فيه حياة من كثرته.

ويكشف اختلاف الجوابين قيمة العلم. كلا الرجلين سُئل سؤالاً يتعلق بالدين، لكن الجواب الأول أغلق الأمل بغير حق، والآخر جمع البيان إلى الطريق العملي. ليست العبرة بظاهر التعبد وحده حين تطلب حكماً. ابحت عن يعرف ما يقول، ولا تجعل كلمة قاسية سمعتها من غير عالم آخر عهدك بطلب الهداية.

والخروج من أرض السوء يذكّرنا بأن صدق التوبة يحتاج إلى مراجعة أسباب الذنب. قد تستغفر ثم تُبقي أمامك كل ما يدعوك للعودة: رفقة تسهل الظلم، أو وسيلة اعتدت بها الخيانة، أو وقت فراغ تعرف ما يوقعك فيه. ليست كل حياة تحتاج إلى سفر، لكن كل توبة تحتاج إلى جدية في قطع ما تستطيع قطعه من أسباب المعصية.

ولا نتخذ القصة سبيلاً لإسقاط حقوق الناس. ما كان عليك من مال أو أمانة أو مظلمة فله حكمه، تسعى في أدائه وتصحيحه وتساءل أهل العلم عن الطريق المشروع. ليس ندمك الخاص إذناً أن يبقى المتضرر محروماً. رحمة الله واسعة، وعدله حق، فلا نضرب معنى بمعنى لنخفف عن أنفسنا تبعة واجبة.

وقد تكون خطوتك الأولى أيسر من أن تغادر بلدًا: تنهي حديثًا محرّمًا، أو تعتذر عما تعلم أنك أفسدته، أو تحفظ الصلاة بعد تضييعها، أو تستعين بمن يعينك على عادة غلبتك. لا تحقر الخطوة لأنها لا تشبه طول الطريق في القصة. الذي يعطيها معناها صدق القصد ومشروعية الفعل، ثم الثبات بما تستطيع.

والرجل مات وهو في الطريق، قبل أن تطول له صحبة أولئك العابدين. في الخبر رجاء عظيم لمن بدأ صادقًا ولم يمهله العمر. لكننا لا نجعل ذلك عذرًا لتأجيل الرجوع؛ لا نعرف متى يأتينا الموت، ولا نستطيع أن نضمن لأنفسنا لحظة أخيرة نختار فيها ما نؤجله الآن.

المراقبة لا تنتهي حين تقع المعصية؛ يتجدد موضعها في التوبة بعدها. يعلم الله ذنبك، ويعلم إقبالك عليه، وما تبذله لتصلح. فلا تكتفِ بالألم على الماضي، ولا تيأس من مستقبل تستطيع أن تستعمل بعضه في طاعة. ابدأ بما تقدر عليه، واسأله أن يتوب عليك، وأن يعينك على رد الحقوق والثبات حتى تلاقاه.

عمل يعرفه الله وإن عجزت عنه

روى إبراهيم السكسكي:

قَالَ سَمِعْتُ أَبَا بُرْدَةَ، وَاصْطَحَبَ، هُوَ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي كَبْشَةَ فِي سَفَرٍ، فَكَانَ يَزِيدُ يَصُومُ فِي السَّفَرِ فَقَالَ لَهُ أَبُو بُرْدَةَ سَمِعْتُ أَبَا مُوسَى مَرَارًا يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا.^{٩٣}

كان الحديث علمًا يقدمه صاحب لصاحبه في حال يعرفها. لم ينقل لنا أبو بردة أنه يفتش نية يزيد، أو يعيره بما اختار من الصوم. ذكره بسعة فضل الله على من كان له عمل في إقامته وصحته، ثم تغيرت حاله. في صحبة كهذه يزداد المرء علمًا بربه، ولا يصبح كل لقاء امتحانًا لشدة احتماله.

قد تعتاد بابًا من الخير ثم تمرض أو تسافر، فتحزن لأنك لم تعد تؤديه كما كنت. لا ينبغي أن يتحول هذا الحزن إلى ظن أن الله لا يعلم إلا الصورة الظاهرة التي انقطعت. أخبر النبي ﷺ عن كتابة مثل العمل الذي كان العبد يفعله صحيحًا مقيمًا. هذا وعد مخصوص نتعلم حدوده، لا تخمينًا نطمئن به أنفسنا دون أصل.^{٩٣}

٩٣. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، رقم 2996.

٩٣. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، رقم 2996.

ولا يسوي الحديث بين صاحب عادة خير منعه عذر، وبين من كان يترك العمل قادرًا ثم يتمنى ثوابه بعد ذلك. لهجة الرجاء لا تمحو الفرق بين النية الصادقة والتمني. اعمل في صحتك بما تستطيع، فإذا طرأ ما يمنعك فارجُ فضل الله، واستمر فيما بقي مقدورًا لك من غير مشقة لا تلزمك.

ومن مراقبة الله أن تعرف حالك بصدق. قد يحملنا حب صورة اعتدناها عن أنفسنا على أن نرفض الرخصة أو العون، لا لأننا نعرف أن الرفض أفضل، بل لأننا نخاف كلام الناس. أنت لا تعبد نظرهم إليك. تعلم حكم حالك، وخذ بالمشروع، ولا تجعل التعب الذي تراه العيون مقياسًا وحيدًا لصدقك.

وقد يمر أب أو أم بوقت تستغرقه رعاية مريض، أو تتغير قدرة إنسان بعد مرض. لا تحصر الخير الذي بقي له في العمل الذي اعتاده قبل ذلك. يستطيع أن يذكر الله، ويحفظ لسانه، ويؤدي من الواجب ما يقدر عليه، ويقبل المساعدة بأدب. تفاوت الصور لا يعني انقطاع العبودية؛ فالعبد يطيع ربه على قدر استطاعته وفي حاله الحاضرة.

ونحتاج أن نرفق بغيرنا كما نرجو الرفق لأنفسنا. ربما غاب صاحب عن مجلس اعتاده، أو خفَّ تطوعه، وأنت لا تعرف ما طرأ عليه. لا تفسر كل غياب بالغفلة، ولا تجعله مضطرًا أن يكشف ما لا يريد كشفه ليحفظ منزلته عندك. اسأل عنه بمحبة، واعرض عونًا مناسبًا، ودع علم سريرته لله.

لكن معرفة سعة الأجر لا تجعل الراحة غاية نهرب إليها من كل تكليف. نميز العذر الحقيقي من الكسل الذي نستطيع علاجه، ونؤدي الفرائض بحسب أحكامها. من لم يفهم ما يقدر عليه يسأل، ومن احتاج إلى مشورة في مرضه يرجع إلى المختص. صدق العبادة يتعلم، ولا يكتفي بشعور يختار به الأسهل أو الأشد دائماً.

وقد يكون أعظم ما ينفعك في أيام العجز تذكر أن حياتك ليست عرضاً متصللاً أمام الناس. ليس مطلوباً أن تثبت كل صباح أنك ما زلت قوياً كما كنت. الله يعلم ما أتاك من ضعف، ويعلم ما ترجوه من الخير. تستطيع أن تهدأ، وتأخذ بما ينفعك، وتبقى مقبلاً عليه من الباب الذي فتحه لك الآن.

روى أبو بردة ما سمعه مراراً، فوصل إلينا رجاء يحتاجه الصحيح قبل المريض. ابن لك عادة خير وأنت قادر، ولا تحتقر دوام القليل المشروع. فإذا تبدلت حالك، فلا تقطع الصلة لأن صورة قديمة تعذرت؛ سل الله العافية والثبات، وارحُ فضله، واعمل بما بقي في يدك.

عمل صغير لم يغب عن النبي ﷺ

عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أَنَّ رَجُلًا، أَسْوَدَ - أَوْ امْرَأَةً سَوْدَاءَ - كَانَ يَقُومُ الْمَسْجِدَ، فَمَاتَ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُ فَقَالُوا مَاتَ. قَالَ أَفَلَا كُنْتُمْ أَذْنُتُمُونِي بِهِ دُلُونِي عَلَى قَبْرِهِ.. أَوْ قَالَ قَبْرِهَا - فَأَتَى قَبْرَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ.^{٩٤}

قد نستصغر خدمةً لأنها تتكرر، أو لأنها لا تحتاج إلى كلام بليغ. لكن المكان الذي نصلي فيه ينتفع بمن يزيل عنه الأذى، كما تنتفع بيوتنا وأعمالنا بأناس يؤديون ما لا ننتبه إليه إلا إذا تعطل. ليست قلة الحديث عن العمل دليلاً على قلة نفعه، ولا ضعف صاحبه في المجتمع عذراً لإغفال حقه.

وفي سؤال النبي ﷺ تربية لمن حوله على الاعتناء بمن قد لا تتعلق بهم الأنظار. لم يكن الموت خبراً يمضي لأن صاحبه غير متصدر. ونحن نتعلم أن نسأل عن الغائب، ونحفظ لأهل الخدمة كرامتهم، وألا نقيس حاجتهم إلى الرحمة بقدر نفوذهم أو قربهم من مصالحنا.

^{٩٤} صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب كنس المسجد والتقاط الخرق والقذى والعيذان، رقم 458.

لكن لا تجعل القصة وعدًا بأن كل خير خفي سيكتشفه الناس. قد يعيش العبد محسنًا ولا يتسع ذكره، ويكفيه علم الله. نقرأ العناية النبوية فنتعلم منها نحن الوفاء، لا أن نشترط على أقدارنا عنايةً ظاهرة مماثلة حتى نصدق أن أعمالنا مهمة. المرجع في القبول إلى الله، ونحن نرجو ثوابه ولا نملك الشهادة به لأنفسنا.

ومن الجميل أن ترى نصيبك من هذا المعنى في عمل قريب. ترتيب مكان ينتفع به غيرك، أو إزالة أذى، أو أداء خدمة لا يصفق لها أحد. اختر ما تستطيع من الخير، ولا تذله بكثرة المنّ. ليس عليك أن تصغر أعمال الآخرين كي تشعر بقيمة عملك؛ تتكامل الحاجات، والله يعلم ما يصحب كل فعل من نية.

وفي المقابل، لا تستعمل الأجر الأخروي لتمنع العامل أجره الديوي أو شكره المستحق. من عمل بعقد فله حقه، ومن تطوع فله كرامته، وكل إحسان يستحق مقابلة حسنة بحسب الحال. لا تقل لمن قصرت في حقه: يكفيك أن الله يعلم، ثم تجعل علم الله حجة على بخل نفسك. أول ما يقتضيه إيمانك بهذا العلم أن تؤدي ما عليك.

وقد يربي الوالدان هذا المعنى في أبنائهما بالفعل. يسمعون منهما شكر من خدم، ويرونهما لا يهيئان عاملاً، ويتعلمان أن النظافة والأمانة ليستا عملاً لفئة دون أخرى. لا يحتاج الطفل إلى محاضرة عن تواضع لم يره؛ يحتاج أن يعيش عدلاً يحفظ للناس قدرهم، وأن يعرف أن الله يحب الإحسان.

خدمة تكررت في مسجد، وسؤال عنها بعد انقطاعها، وصلاة على صاحبها. هكذا يمكن أن يذكرنا مشهد قليل الكلمات بأعمال تمر أمامنا كل يوم. لا تغفل حق من أحسن، ولا تحتقر خيرًا تقدر عليه، ولا تؤخر طاعةً لأن الناس لا يعرفون اسم صاحبها.

خوف يدفع إلى الخير

قالت عائشة رضي الله عنها:

سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ : (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قَالَتْ عَائِشَةُ أَهْمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ قَالَ لَا يَا بِنْتَ الصَّدِيقِ وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ^{٩٥}

كان السؤال عن معنى الوجل، وجاء الجواب ليبين أن الخشية لا تخص من أقدم على المعصية. المؤمن قد يؤدي طاعةً وهو يرجو قبولها، ولا يرى أن أداءه لها جعله مالكا للثواب. يعرف تقصيره وحاجته إلى فضل الله، فيزداد عناية، ثم يعمل. ولم تجعلهم خشيتهم يجلسون عن الصلاة والصدقة.

هذه آخر نقطة ينبغي أن نبقىها ظاهرة. إذا تحولت المحاسبة إلى مانع من كل خير، فقد ابتعدت عن الصورة التي شرحها الحديث. هؤلاء يعملون ويسارعون، وقلوبهم وجلة. لا ينتظرون ضماناً قبل أن يبدأوا، ولا يتركون الصدقة لأن نياتهم تحتاج إلى إصلاح؛ يصلحون ما يستطيعون ويرجون ربهم.

٩٥. جامع الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون، رقم 3175. حسنه محققو طبعة دار السلام.

وقد يفرح أحدنا بإنجاز طاعة فيقول في نفسه: لقد ضمنت. وربما يسيء إلى الناس وهو يستكثر ما عنده من عبادة. خوف القبول يرد هذا الغرور؛ ليست الطاعات رخصة للظلم، ولا تمنحنا حق التعالي على من نراه مقصرًا. كلنا عبيد نرجو الرحمة، وما وافق السنة وخلص لله نرجو قبوله، ولا نزكي أنفسنا على الله.

لكن الخوف ليس حكمًا مسبقًا بأن العمل مردود. لا تقل بعد كل صلاة إن الله لن يقبل منك لمجرد أنك وجدت ضعفًا في حضور قلبك. تعلّم ما يصح به العمل، وأدّه بصدق، واستغفر من التقصير. بقيت لك مساحة واسعة من الرجاء، ولا يجوز أن تنسب إلى الله ردًا لم تعلمه كما لا يجوز أن تضمن لنفسك القبول.

ومن وسائل الاعتدال أن تراجع الشيء الذي تعرفه بدل الدوران حول شعور مبهم. هل ظلمت أحدًا في هذا العمل؟ هل قصدت به رياءً تعلمه فتحتاج إلى مجاهدة؟ هل أخللت بحكم تتعلم إصلاحه؟ المعرفة المحددة تعين على التصحيح. أما تكرار سؤال لا يضيف علمًا ولا عملاً، فقد يشغلك عن الطاعة التي بين يديك.

وعندما تفرغ من خير، يبقى الأدب الجميل أن تحمد الله على التوفيق وتسأله القبول، لا أن تجعل ذكرك له مناسبة لاستعراض ما فعلت. تستطيع أن تفرح بالطاعة، وأن ترجو أثرها، وأنت تعلم أن الفضل لله. الفرحة التي تعين على الشكر ليست مثل العجب الذي يحجب عن صاحبه عيوب نفسه وحقوق غيره.

وفي تعليمنا للناشئة نحتاج إلى هذا الجمع. لا نمنحهم الأمان المطلق مهما صنعوا، ولا نربط العبادة دائماً بالخوف من أنها لن تقبل. نعلّمهم كيف يصلون، ونذكر لهم رحمة الله وفضله، ونفتح باب الاستغفار. يكبر القلب على معرفة رب كريم عظيم، لا على شعور أن كل محاولة خير تهمة تحتاج إلى دفاع.

وقد يكون أنفع ما تفعله بعد قراءة الحديث أن تستمر في خير تعرفه، بدل أن تبدأ فحصاً طويلاً لدرجتك. عد إلى صلاتك وصدقتك وبرك، وأصلح خطأً محدداً ظهر لك. لا توازن بين احتمال الرياء في كل خاطر وبين ترك الأعمال كلها؛ جاهد نيتك وأنت تعمل، واستعن بالله على صدق لا تملكه وحدك.

سألت عائشة فتعلمنا جواباً نحتاجه عند ختام كل طاعة: خوف لا يقطع العمل، ورجاء لا يغطي التقصير. وبينهما يسير العبد إلى ربه، لا يدعي أنه استغنى عن رحمته، ولا ييأس من فضله. نسأله أن يجعلنا ممن يسارعون في الخيرات، ويعملون له، ويرجون أن يتقبل منهم.

عشرة أعوام من القرب

قال أنس رضي الله عنه:

خَدَمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي أَفٍّ وَلَا لَمْ صَنَعْتُ وَلَا أَلَّا صَنَعْتُ.^{٩٦}

لا يقتضي الخبر أن النبي ﷺ لم يعلم أو يوجه؛ فقد كان معلماً يبين الحق. لكنه يصف رفقه بأنس، وبعده عن التأفف والعتاب الذي يثقل النفس. التعليم شيء، وإهانة من تحت يدك شيء آخر. قد نخلطهما حتى نظن أن ترك القسوة يضيّع الهيبة، مع أن الهدى النبوي يفتح لنا باباً أرفع من ذلك.

في القرب الطويل تظهر أخلاق يصعب إخفاؤها دائماً. يسمع أهل البيت ما لا يسمعه الزائر، ويرى العامل ما قد لا يراه العميل. وهنا تحتاج المراقبة أن تنتقل من صورة نحبها عن أنفسنا إلى كلام نقوله فعلاً. ليس السؤال كيف يصفنا من يلقانا دقائق، بل كيف نؤدي حق من تطول صحبتهم لنا.

٩٦. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق، والسخاء، وما يكره من البخل، رقم 6038.

قد يكون أول الإصلاح كلمة صغيرة. توقف التأفف الذي يصحب كل طلب، أو اترك لقبًا يهين من أخطأ، أو اجعل توجيهك متعلقًا بالفعل لا بقيمة الإنسان كلها. تستطيع أن تقول إن العمل يحتاج إلى تصحيح، دون أن تقول لصاحبه إنه لا يحسن شيئًا. وضوح الخطأ لا يحتاج إلى جرح يحمله صاحبه بعد انتهاء الموقف.

وليس حسن الخلق تمثيلًا للرضا في كل حال. قد تغضب بحق، أو تتعب، أو تحتاج إلى حدٍّ واضح يمنع التعدي. لكنك تملك أن تراجع طريقتك، وأن تترك ما لا يحل من سب أو احتقار. المراقبة لا تطلب نفي التعب، بل ألا نجعله عذرًا مفتوحًا لإيذاء من لا يستطيع رد الأذى.

ونحتاج إلى مراجعة خاصة حين تكون لنا سلطة. من يقدر على العقوبة يستطيع أن يُسكت الشكوى دون أن يكون محققًا، وقد يظن الصمت دليل رضا. لا تنتظر من الضعيف أن يخاطر كل مرة ليخبرك بما فعلت به. افحص كلامك أنت، وافتح بابًا آمنًا للتصحيح، وأدِّ الحقوق التي تعرفها قبل أن يطالبك بها صاحبها.

ومثل هذه المراجعة لله أولاً، لا لبناء صورة صاحب البيت اللطيف أو المدير المحبوب. إن فرح الناس برفقك فذلك خير ترجوه، لكنه ليس مصدر وجوبه. لو لم يمدحك أحد بقي السب قبيحًا، وبقي العدل حقًا، وبقي الإحسان محبوبًا. حين يستقر هذا المعنى تستطيع أن ترحم حتى في يوم لم تتلق فيه شكرًا.

وقد تقرأ شهادة أنس فتذكر مواقف تخجل منها. لا تستعملها لتقول إنك لا أمل في صلاحك، ولا لتبرر بأن أحداً لا يبلغ خلق النبي ﷺ الاقتداء يبدأ بما يمكنك تصحيحه. اعتذر عن ظلم تعرفه، وردّ حقاً، وغير عبارة اعتادها لسانك. لا يمحو الاعتذار كل أثر سريعاً، لكنه يصدق حين يصحبه تحول يراه من تأذى.

ومن جهة أخرى، لا تطلب ممن أحسنت إليه أن يشهد لك كما شهد أنس. الشهادة ليست ثمناً للإحسان، ولا واجباً تلزمه به. قد تنسى النفوس بعض المعروف، لكن الله لا يضيع عملاً. اعمل لله، واترك للناس حرية أن يحكموا ما عرفوا بصدق، دون ضغط يفسد عليهم وعليك معنى الرحمة.

عشر سنوات، وكلمة موجزة عن رفق لم ينسه صاحبه. كلما أردنا أن نجعل المراقبة معنى بعيداً، أعادتنا مثل هذه الشهادة إلى يومنا: إلى نبرة، وطلب، وعتاب، وصبر. نسأل الله أن يصلح ما بيننا وبينه، وأن يظهر أثر ذلك رحمةً وعدلاً فيما بيننا وبعين خلقه.

حتى تلقاه

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي فَقَالَ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ . وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ.^{٩٧}

الكلمة الأولى من النبي ﷺ، والوصية التي بعدها من ابن عمر. جمع الراوي بين تعليم تلقاه الصحابي ومعنى كان يوصي به. ليس المقصود أن يصبح كل خبر عن العمر سبباً للذعر، بل أن يعرف المرء أنه عابر، وأن الوقت الذي بين يديه لا يملك ضمان مثله غداً.

عابر السبيل لا ينكر وجود الطريق، ولا يظن أن عليه أن يتوقف عن العمل لأنه سيرحل. لكنه لا ينسى وجهته. وكذلك المؤمن يبني ويكسب ويحب أهله، ويعلم أن لقاء الله آت. إنما يفسد الأمر حين تصبح الإقامة القصيرة كل ما ينظر إليه، فيستحل من أجلها ما يعلم أنه سيُسأل عنه.

^{٩٧} صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل"، رقم 6416. ما يبدأ بـ«إذا أمسيت» من وصية ابن عمر.

ومراقبة الله تصحب هذه الرحلة من أول اليوم إلى آخر العمر. ليست وعدًا بأن القلب لن يغفل بعد قراءة معنى مؤثر، ولا منزلة نعلن أننا وصلنا إليها. يذكر العبد وينسى، ويقوى ويضعف، ثم يعود. الذي يحتاج إلى حفظه هو أصل الوجهة: إلى من يرجع إذا غفل، ولمن يعمل إذا قدر، وماذا يصنع حين يعرف خطأه.

قد تكون آخر ساعة من يومك وقت مراجعة هادئة، لا محاكمة مرهقة. حق لم تؤده، وكلمة تحتاج إلى اعتذار، ونعمة تشكر الله عليها، وطاعة تسأله قبولها. لا تحول ذلك إلى طقس بأعداد وألفاظ تلزم نفسك بما لم يلزمك الله به. المقصود انتباه يعين على العمل، لا سجل طويل تصبح خدمته أثقل من التصحيح نفسه.

ولا تؤجل إصلاح ما تستطيع بحجة أنك ستبدأ بداية أجمل. يمكنك أن تصلي الصلاة الحاضرة، وأن تترك الظلم الآن، وأن ترسل لصاحب الحق ما يلزم من بيان. قد يأتي وقت تكون فيه أحسن تنظيمًا، لكنك لا تملك أن تجعل الخير كله رهينة ذلك الوقت. صدق اليوم ولو كان قليلًا أنفع من مشروع كامل لا يبدأ.

ونحتاج في الرحلة إلى صحبة صالحة وعلم يضبط خطواتنا. لا يعني أن العمل بينك وبين الله أن تستغني عن التعليم والنصيحة. الذي يحفظ خصوصية قصده يستطيع أن يسأل عن حكم ويقبل تنبيهًا، دون أن يجعل الناس أصحاب سلطان على سريرته. نتعاون على الخير، ويبقى القصد لله، والحساب عنده.

وقال سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه:

قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ -
وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ غَيْرَكَ - قَالَ قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمَّ.^{٩٨}

جواب يجمع الأصل والعمل؛ إيمان بالله لا ينفصل عن لزوم الطريق. لا
تستبدل الاستقامة بكثرة وصف المشاعر، ولا تحوّل الدين إلى سلوك
ظاهر ينسى من يقصده.

وحين تراجع نفسك بعد زمن، لا تجعل معيارك الوحيد ما ازداد في
كلامك من مصطلحات. انظر إلى الصلاة والحقوق والصدق والرحمة،
وإلى رجوعك بعد الخطأ. ربما لم تتغير ظروفك كثيرًا، لكنك صرت
أسرع إلى الاعتذار، وأصدق في خلوة، وأرحم بضعيف. احمد الله على
ما يسّر، واستغفر من التقصير، ولا تزك نفسك.

ستمضي هذه الصفحات، وتبقى لك حياة تعيشها. فيها ما يفرحك وما
يحزنك، وما تستطيع تغييره وما لا تستطيع. احمل إليها معنى
الإحسان الذي بيّنه حديث جبريل في أول الكتاب. واسأله أن يعينك
على صدق اليوم، وثبات الغد، وحسن الرجوع إليه حتى تلقاه.

٩٨. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، رقم 38.

خاتمة | حين تغلق الكتاب

لعل أول ما ينتظرك بعد هذه الصفحات أمر عادي: صلاة حان وقتها، أو سؤال من ولدك، أو عمل تريد إتمامه، أو رسالة لم تجب عنها. لا تحتاج إلى ظرف خاص حتى تعمل بما فهمت. المراقبة التي تعلمناها تجد موضعها هنا، في الحياة التي نعيشها، لا في حياة أخرى نتخيل أننا سنكون فيها أصدق وأهدأ.

قد لا تستطيع أن تستحضر كل معنى في كل لحظة، لكن تستطيع أن تعود. حين يشتد غضبك فتذكر أن الله يسمعك، وحين ترى منفعة لا تحل لك فتذكر أنه يعلم اختيارك، وحين تخفي إحسانًا فترجو قبوله عنده. ليست العناية بأن تصف لنفسك ما بلغت، بل بأن تحسن ما بين يديك. وما وجدته من خير فاسأل الله دوامه، وما ظهر من تقصير فاجعله موضع توبة، لا سبب يأس.

وليس الناس غاية هذه المجاهدة. قد يمدحون ما يعرفون، وقد يجهلون أكثر ما تفعل. تحسن إليهم لأن الله يحب الإحسان، وتؤدي حقوقهم لأنها حقوق، لا لتصنع منهم شهودًا على صلاح قلبك. وإذا ألمك جفاء فاعترف بحاجتك إلى الصبر، ولا تجعل الجفاء إذنا أن تخون أمانة أو تقطع خيرًا وجب عليك. تستطيع أن تحفظ حقك بالعدل، وتحفظ قصدك لله في الوقت نفسه.

ولا تحمل من قصص الصالحين صورةً تحاول أداءها أمام الناس. خذ منها الصدق الذي يدل عليه الخبر: استعانة عند الضعف، ووقوفًا عند الحق، وحرصًا على العبادة، ورحمةً بمن لا يملك رد الأذى. ليست

أعمالهم أزياء نرتديها، وإنما نتعلم من هدايتهم ما نقدر على اتباعه. قد يبدأ نصيبك من معنى كبير باعتذار موجز لا يعرف ثقله على نفسك إلا الله.

وحين تخطئ، تذكر أن الله الذي علم ذنبك يعلم رجوعك. لا تجعل خوف الفضيحة أكبر من رغبة الإصلاح، ولا تجعل الستر حجة لتبقي الضرر على غيرك. ما كان بينك وبين الله فتب إليه منه، وما كان للناس فاسع في رده وتصحيحه، واسأل عما يشكل عليك. لا يغني شعور حزين عن حق يمكن أدائه، كما لا يغني ادعاء الإصلاح عن توبة تحتاج إليها.

وابق محتاجًا إلى العلم. السؤال الأمين يفتح لك ما لا يفتحه التخمين، والنصيحة التي تقبلها قد تحفظ عليك عملاً كنت ستفسده. لا يمنعك ما عرفت أن تتعلم المزيد، ولا يحملنك جهل بعض الأمور على التخلي عما علمته يقينًا. يختلف قدر الناس فيما يعلمون، ويشتركون في حاجتهم إلى هداية الله وتوفيقه. ومن صدق في طلب الحق لم يجعل الاعتراف بالخطأ هزيمة.

وربما وجدت أن أكثر ما تحتاج إليه ليس بابًا جديدًا من الأعمال، بل إحسان ما اعتدته. صلاة تتمها بدل العجلة، وأمانة تراجعها بدل إلقاء التبعة على غيرك، وكلمة تقولها برفق بدل أن تجرح بها من تحب. لا تستصغر هذا الإصلاح لأنه قريب. ما يلزم يومك أحق بعنايتك من أمنية كبيرة تؤجلها كل مرة.

إن معنى الإحسان في حديث جبريل، الذي قرأناه كاملاً في أول الكتاب، يبقى أوسع من صفحات قرأناها. في أوله عبادة، وفيه تعظيم ويقين، وفي آخره حقيقة لا تتوقف على حضور أحد من الخلق. فإذا

ضعفت فاستعن، وإذا غفلت فتذكر، وإذا علمت فاعمل، وإذا أحسنت
فاحمد الله. لا تطلب من قلبك الاستغناء عن ربك؛ اطلب منه الصدق
في الافتقار إليه.^١

اللهم أعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. ارزقنا خشيتك في السر
والعلن، واجعل علمنا بك سبباً للصدق والرحمة والاستقامة. اغفر ما
أخطأنا فيه، وردنا إليك ردّاً جميلاً، وأعنا على أداء الحقوق وقبول
النصيحة وترك الظلم. ولا تجعل حظنا من الخير أن نصفه لغيرنا
وننسى أنفسنا، واجعل ما تعلمناه عوناً على طاعتك، ووفقنا لعمل صالح
نرجو به رضاك.

١. صحيح مسلم، رقم 8، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ حديث جبريل في الإسلام والإيمان والإحسان.

تدريب المراقبة ومتابعتها

هذا برنامج تطبيقي من إعداد مدارج، لا ورد تعديدي موقوت ولا دليل على قبول العمل. مدته ثلاثون يومًا؛ صفحة لكل يوم لتُسجّل فيها موقفًا واقعيًا وخطوة قابلة للتنفيذ. اختر وقتًا قصيرًا للمراجعة، ونقذ التمرين داخل أعمال يومك، ولا تترك واجبًا لتنجز خانة في الجدول. في نهاية كل يوم، قيّم الانتباه إلى الاختيار من 0 إلى 2: صفر إذا لم تنتبه إلا بعد الفعل؛ واحد إذا انتبهت أثناءه؛ اثنان إذا انتبهت قبله وعدلت ما استطعت. وإذا لم يقع الموقف فاكتب «لم تتح فرصة»، ولا تحسبه إخفاقًا. هذا وصف لملاحظة السلوك فقط؛ لا يقيس الإخلاص ولا يحكم على قبول العمل ولا يبيح الحكم على سريرة أحد. وإذا كان الموقف متعلقًا بحق أو حكم لا تعرفه، فتحقق واسأل أهل الاختصاص.

اليوم 1: لحظة الاختيار

اختر موقفًا يتكرر في يومك، كفتح الهاتف عند الانفراد أو تأخير مهمة لا يراك فيها أحد. لا تبدأ بتغيير كبير؛ راقب اللحظة التي تسبق الفعل.

تطبيق اليوم: دوّن اليوم وقتًا واحدًا انتبهت فيه إلى اختيارك قبل أن يقع، وماذا فعلت بعد الانتباه. إن لم تقع اللحظة، اكتب أين تتوقعها غدًا.

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 2: العمل الذي لا يراك فيه الناس

اختر مهمة صغيرة من حق العمل أو الدراسة تؤديها عادة حين يكون الآخرون منشغلين. اجعل معيارك أداء ما اتفقت عليه، لا احتمال أن يكتشف أحد تقصيرك. تطبيق اليوم: اذكر المهمة كما هي، وما الخطوة التي أنجزتها في وقتها، وما الذي ستعده إن ظهر تقصير حقيقي.

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلاً؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 3: اللسان في الخلوة

تأمل كلماتك حين تكتب وحدك أو تتحدث في مجموعة مغلقة. استحضر أن مراقبة الله تهذب اللسان، ولا تحولها إلى شك في الناس أو اتهام لهم.

تطبيق اليوم: اختر رسالة واحدة قبل إرسالها؛ احذف ما فيه غيبة أو سخرية أو نقل لا حاجة إليه، وسجل ما تغيّر في الصياغة.

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 4: حق لا يطلبه صاحبه

راجع شيئًا تستعمله وليس ملكًا لك وحدك: أداة مشتركة، وقت مستعار، أو مال وُكل إليك. لا تفترض أن سكوت صاحبه إذن؛ اسأل أو أعد الحق عند الحاجة.

تطبيق اليوم: ما الحق المحدد الذي تحققت منه؟ ما الإجراء العملي الذي أدبته أو ستؤديه؟

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 5: الصلاة بعيدًا عن أعين الناس

اختر صلاة اليوم التي تستطيع الاستعداد لها بهدوء. هيئ مكانك واترك ما يشغلك، ثم أدها على الصفة التي تعلمتها، من غير تكلف إحساس خاص.

تطبيق اليوم: اكتب علامة ظاهرة واحدة ساعدتك على الطمأنينة، وعائقًا واحدًا ستعالجه في المرة القادمة.

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 6: الوعد والموعود

راقب وعدًا صغيرًا قطعتَه على نفسك أو لغيرك. إن عجزت عنه فأخبر صاحبه بصدق، ولا تستر التأخير بكلام ملتبس.

تطبيق اليوم: ما الوعد؟ هل أوفيت أو اعتذرت قبل أن يتضرر صاحبه؟ اكتب خطوة تمنع تكرار التأخير.

بطاقة المتابعة

الموعود	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 7: مراجعة الأسبوع الأول

ارجع إلى ملاحظات الأيام الستة من غير محاكمة لسريرتك. ابحث عن موقف واحد صار أوضح لك، لا عن صورة مثالية تريد إثباتها.

تطبيق اليوم: سجل موقفًا انتبهت فيه قبل الفعل، وآخر تذكرت فيه بعده، وخطوة إصلاح واحدة. قيّم الانتباه: 0 لم ألحظ إلا بعد الفعل، 1 لاحظت أثناءه، 2 لاحظت قبله وعدّلت ما أقدر عليه. الدرجة لقياس الملاحظة لا الإخلاص أو القبول.

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 8: الكلمة عند الغضب

حين يشتد نقاش اليوم، آخر الجواب لحظة إن استطعت. اسأل نفسك: هل أجيب عن المسألة أم أريد إيلاء المتكلم؟ إن أخطأت في العبارة فارجع عنها بوضوح.

تطبيق اليوم: اكتب ما الذي أوقفك أو زاد غضبك. إن صدرت كلمة مؤذية، فما اعتذار أو إصلاح يناسب حق المتضرر؟

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 9: المال المتبس

إذا مر بك شراء أو نفقة مشتركة، تحقق من نصيبك ومن الإذن قبل الدفع أو الأخذ. لا تجعل البسير ذريعة للاستهانة بحقوق الآخرين.

تطبيق اليوم: اذكر قرارًا ماليًا تحققته اليوم. إن لم يظهر موقف، حدد سؤالًا عمليًا ستسأله قبل تصرف مشابه.

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 10: الخصوصية والأمانة

احترم رسالة أو صورة وصلت إليك على وجه الخصوص. لا تنقلها لمجرد أن إرسالها ممكن، واسأل عن الإذن إذا احتجت إلى مشاركتها.

تطبيق اليوم: هل حفظت خصوصية أحد؟ ما القاعدة التي ستتبعها قبل إعادة إرسال محتوى خاص؟

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلاً؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 11: الخطأ الذي يمكن تداركه

إذا تبين خطأ في عمل أو خبر نقلته، صححه لمن وصل إليه بقدر الحاجة. لا تكثر من تبرير نفسك، ولا توسع التصحيح إلى كشف أسرار لا تتصل بالحق.

تطبيق اليوم: ما المعلومة التي راجعتها؟ لمن يلزم أن يصل التصحيح؟ اكتب عبارة تصحيح واضحة ومختصرة.

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلاً؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 12: النية من غير ادعاء

قبل عمل نافع اليوم، سم حاجتك إلى رضا الله في قلبك، ثم اعمل من غير إعلان زائد. لا تحاول الحكم على نفسك بالإخلاص؛ اهتم بما تستطيع من تصحيح القصد والعمل.

تطبيق اليوم: ما العمل؟ ما المشتت الذي حاول أن يحول وجهتك إلى مدح الناس؟ ما الفعل الذي أبقى العمل نافعا؟

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلاً؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 13: الإنصاف مع المخالف

حين تختلف مع أحد، اذكر قوله كما قاله قبل الرد. لا تنقصه لتسهل مجادلته، ولا تجعل مراقبة الله حجة لتفتيش نيته.

تطبيق اليوم: اكتب موضعاً أنصفت فيه كلامه، أو جملة ستعيد صياغتها لتكون أعدل.

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلاً؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 14: مراجعة الأسبوع الثاني

قارن أيام الأسبوع الثاني بالأول في الأفعال الظاهرة: هل صرت تسأل قبل نقل رسالة؟ هل رجعت عن كلمة؟ لا تقارن نفسك بغيرك ولا تزن قبول العبادة.

تطبيق اليوم: استخدم سلم 0-2 للانتباه فقط. اذكر نمطًا تحسن، ونمطًا بقي صعبًا، ووعودًا تحتاجه أو سببًا عمليًا ستغيره.

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 15: أمانة البيت

اختر مسؤولية منزلية لا يذكرك بها أحد عادة. أدها في وقتها أو تفاهم بشأنها، ولا تجعل المعروف مادة للمُنّ على أهلِكَ.

تطبيق اليوم: ما المسؤولية؟ من انتفع بها؟ ما الذي يمنعك من الاستمرار فيها بلا انتظار ثناء؟

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعهُ	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 16: مراقبة من غير تجسس

إذا كنت مسؤولاً عن طفل أو موظف أو متعلم، راجع حدود متابعتك. تابع ما تقتضيه المسؤولية، واترك التفتيش عن أسرار لا حق لك فيها.

تطبيق اليوم: حدد إجراء متابعة عادلاً، وحدًا ستلتزم ألا تتجاوزه. إذا لم تكن مسؤولاً عن أحد، راجع تدخلك في خصوصية قريب.

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 17: وقت الشاشة

قبل فتح تطبيق اعتدت استعماله في الخلوة، حدد الغرض والمدة التي تناسب حاجتك. إذا انتهى الغرض فأغلقه، ولا تحول التجربة إلى امتحان قايِس لكل دقائقك.

تطبيق اليوم: ما الغرض؟ هل انتهيت حين انتهى؟ ما تعديل واحد يجعل الاختيار أسهل غدًا؟

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 18: المعروف الخفي

اصنع معروفًا صغيرًا لا يضر واجبًا عليك، كإزالة أذى أو مساعدة محتاج مع حفظ كرامته. لا تروه لتثبت لنفسك أنك صاحب عمل خفي.

تطبيق اليوم: اكتب وصف الفعل دون اسم المستفيد أو ما يكشفه. ما الحاجة التي قضاها؟

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 19: العودة بعد التقصير

إن فاتك عمل أو قصرت في حق، ابدأ بالإصلاح الممكن بدل أن تجعل اليأس سبباً لمزيد من الترك. فرق بين ندم يردك إلى العمل وبين لوم يوقفك.

تطبيق اليوم: ما الخطوة التي فعلتها بعد التقصير؟ إذا تعلق الأمر بحق، ما طريق أدائه أو الاستئذان فيه؟

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلاً؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 20: منصبك أمانة

إن كان لك قرار يؤثر في غيرك، اذكر معيارًا واحدًا ستلتزم به قبل القرار: حق، موعد، أو طريقة معلنة. لا تقدم قريبًا لمجرد القرب ولا تؤخر صاحب حق لصمته.

تطبيق اليوم: ما القرار؟ هل طبقت المعيار نفسه على نفسك وعلى غيرك؟

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلاً؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 21: مراجعة الأسبوع الثالث

انظر إلى أثر المراقبة في تعاملاتك، لا إلى شدة مشاعرك. هل حفظت حقًا أو صحت خطأ أو كفت أذى؟ اكتب ما وقع كما هو، بلا مبالغة.

تطبيق اليوم: قيّم الانتباه 0-2، ثم اختر عادة واحدة تريد تثبيتها وأخرى تحتاج إلى مساعدة فيها. التقويم وصف للسلوك وليس حكمًا على القلب.

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 22: الخصوصية الرقمية

راجع إعدادًا أو عادة رقمية تعرض بيانات غيرك. لا تسجل أو تنشر ما لم يأذن به صاحبه. أصلح مشاركة سابقة إذا أمكن دون تعريضه لضرر أكبر.

تطبيق اليوم: ما التغيير الذي نفذته؟ هل يحتاج المتضرر إلى إبلاغ أو حذف؟ اختر الإجراء الذي يحفظ حقه.

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 23: الشهادة العادية

إذا طلب منك رأي في شخص أو عمل، اقتصر على ما تعرفه مباشرة وما يلزم للسؤال. قل لا أعلم فيما لا تعلم، ولا تحول ملاحظة جزئية إلى حكم شامل.

تطبيق اليوم: ما الذي شاهدته بنفسك؟ ما الذي لم تتحقق منه؟ اكتب جواباً يميز بينهما.

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلاً؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 24: إرجاع الحقوق

اختر حقًا تعلم أنه بقي في ذمتك إن وجد، وقدر طريقة رد تحفظه. إذا كان للحق تفصيل شرعي أو قانوني لا تعرفه، فاسأل أهل الاختصاص بدل التخمين.

تطبيق اليوم: دُون صاحب الحق أو وصفه في مكان آمن، وخطوة الرد وموعدها. لا تكتب هنا بيانات سرية لا حاجة لها.

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 25: الفرح بعمل صالح

إذا فعلت خيرًا وشكرك أحد، اقبل الشكر بأدب وارجع إلى الله بالحمد، من غير أن تجعل الثناء غاية العمل أو دليلاً على قبوله.

تطبيق اليوم: كيف أجبت؟ هل زادك الشكر على نفع العمل أم صرفك إلى طلب مزيد من المدح؟ دون ما لاحظته دون تزكية لنفسك.

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 26: العبادة أمام الناس

أد واجبك حيث كنت، ولا تتركه خوفاً من أن يراك أحد، ولا تعتمد استعراضه. اتبع الحكم الذي تعلمته، واطلب العلم فيما يشكل عليك.

تطبيق اليوم: ما الواجب أو العمل؟ ما التصرف الذي حفظه من الرياء ومن التفريط معاً؟

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلاً؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 27: الرفق في النصح

إن نصحت أحدًا اليوم، اختر وقتًا وطريقة تحفظ كرامته، وتأكد من علمك بالمسألة. لا تجعل غيرتك مبررًا لتجاوز العدل أو كشف ما لا يلزم.

تطبيق اليوم: ما المعرفة التي تحققت منها؟ ما العبارة التي كانت أرفق وأوضح؟

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلاً؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 28: مراجعة الأسبوع الرابع

راجع أثر الأسبوع في البيت والعمل والعلاقات. لا تجمع زلات الناس لتثبت مراقبتك؛ المقصود أن يزيد صدقك أنت في أداء الحق.

تطبيق اليوم: قيّم الانتباه 0-2، واكتب موقفًا أصلحت فيه ما استطعت، وموقفًا تحتاج فيه إلى مشورة موثوقة.

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 29: العذر الصادق

إذا أخفقت في التزام أو موعد، قل الحقيقة لمن تأثر، وقدم اعتذارًا محددًا وخطة واقعية. لا تختلق عذرًا دينيًا لتخفي سببًا دنيويًا.

تطبيق اليوم: ما الجزء الذي تتحمل مسؤوليته؟ ما البديل الواقعي؟ هل يحتاج الطرف الآخر إلى تعويض أو إجراء آخر؟

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلًا؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

اليوم 30: خطة الاستمرار

اجمع ملاحظاتك واختر ثلاث ممارسات قابلة للدوام: واحدة في العبادة، وأخرى في الحقوق، وثالثة في اللسان أو الخصوصية. اترك ما كان مرهقاً أو متكرراً بلا فائدة.

تطبيق اليوم: اكتب لكل ممارسة وقتاً أو موقفاً محفزاً، وشخصاً تطلب منه المعونة عند الحاجة، وموعد مراجعة بعد أسبوعين. لا تجعل الدرجات مقياساً لقبول العمل.

بطاقة المتابعة

الموعد	ما أراجعه	تسجيلي
قبل الموقف	ما الاختيار المتوقع؟ وما الحق الذي أحفظه؟	
أثناءه	ماذا فعلت فعلاً؟	
بعده	ما الذي أحسنته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟	
غداً	خطوة واحدة ألتزم بها، وموعدها	

درجة الانتباه: ٠ / ١ / ٢ / لم تتح فرصة.

التنفيذ: تم / تم بعضه / لم يتم. سبب التعثر إن وجد:

الموقف بعبارتي:

التصحيح الذي أقدر عليه:

ما يعينني على الاستمرار:

فهرس الآيات

- البقرة: ١٩٧ — الزاد لا ينافي التوكل
- الأعراف: ١٩٩ — الآية التي أوقفته
- الأنفال: ٢٤ — أعظم سورة
- التوبة: ٤٠ — في الغار، لا خارج العناية
- يوسف: ٢٣ — يوسف حين أغلقت الأبواب
- يوسف: ٣٣ — يوسف حين أغلقت الأبواب
- يوسف: ٣٤ — يوسف حين أغلقت الأبواب
- الإسراء: ٢٣ — حمل أمه، وبقي حقها
- مريم: ١٨ — مريم حين استعازت
- مريم: ٢٠ — مريم حين استعازت
- طه: ٤٤ — إني معكما أسمع وأرى
- طه: ٤٥ — إني معكما أسمع وأرى
- طه: ٤٦ — إني معكما أسمع وأرى
- الأنبياء: ٨٧ — دعاء في الظلمات
- الأنبياء: ٨٨ — دعاء في الظلمات
- المؤمنون: ٦٠ — خوف يدفع إلى الخير
- النور: ١٥ — أحمي سمعي وبصري
- النمل: ١٨-١٩ — حين ردّ النعمة إلى صاحبها
- النمل: ٤٠ — حين ردّ النعمة إلى صاحبها
- القصص: ٩ — قلب الأم الذي ثبته الله
- القصص: ١٠ — قلب الأم الذي ثبته الله
- القصص: ١٢ — قلب الأم الذي ثبته الله

- لقمان: ١٥ — حمل أمه، وبقي حقها
- لقمان: ١٦ — وصية بحبة خردل
- الشورى: ١١ — مقدمة
- الشورى: ١١ — كأنك تراه، لا صورة تتخيلها
- الحجرات: ١٢ — ليست المراقبة تجسسًا
- المجادلة: ١ — سمع الله شكواها
- الحشر: ١٨ — محاسبة تعينك على الصلاة
- العلق: ١٤ — ألم يعلم بأن الله يرى

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

كلام الله تعالى؛ التوثيق بأسماء السور وأرقام الآيات.

الجامع الصحيح

محمد بن إسماعيل البخاري. التوثيق بأرقام الأحاديث والكتب والأبواب.

صحيح مسلم

مسلم بن الحجاج؛ مع مقدمة الصحيح.

سنن أبي داود

سليمان بن الأشعث السجستاني.

جامع الترمذي

محمد بن عيسى الترمذي.

سنن النسائي

أحمد بن شعيب النسائي.

سنن ابن ماجه

محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني.

الأدب المفرد

محمد بن إسماعيل البخاري؛ أثر بر الوالدين، رقم 11.

تفسير القرآن العظيم

إسماعيل بن عمر ابن كثير؛ التوثيق بأسماء السور وأرقام الآيات.

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

عبد الرحمن بن ناصر السعدي؛ التوثيق بأسماء السور وأرقام الآيات.

جامع العلوم والحكم

عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي؛ شروح الأحاديث الثاني، والتاسع عشر، والثامن والثلاثين.

المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج

يحيى بن شرف النووي؛ كتاب التوبة، شرح حديث الرجل الذي أوصى بتحريق جسده.

مدارج السالكين

محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية؛ منزلة المراقبة.

الوابل الصيب من الكلم الطيب

ابن قيم الجوزية؛ فصل فوائد الذكر.

مرجع أعمال القلوب

خالد بن عثمان السبت، أعمال القلوب، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، 1438هـ/ 2017م، 1/313، 315: معنى المراقبة وصلتها بالإحسان.